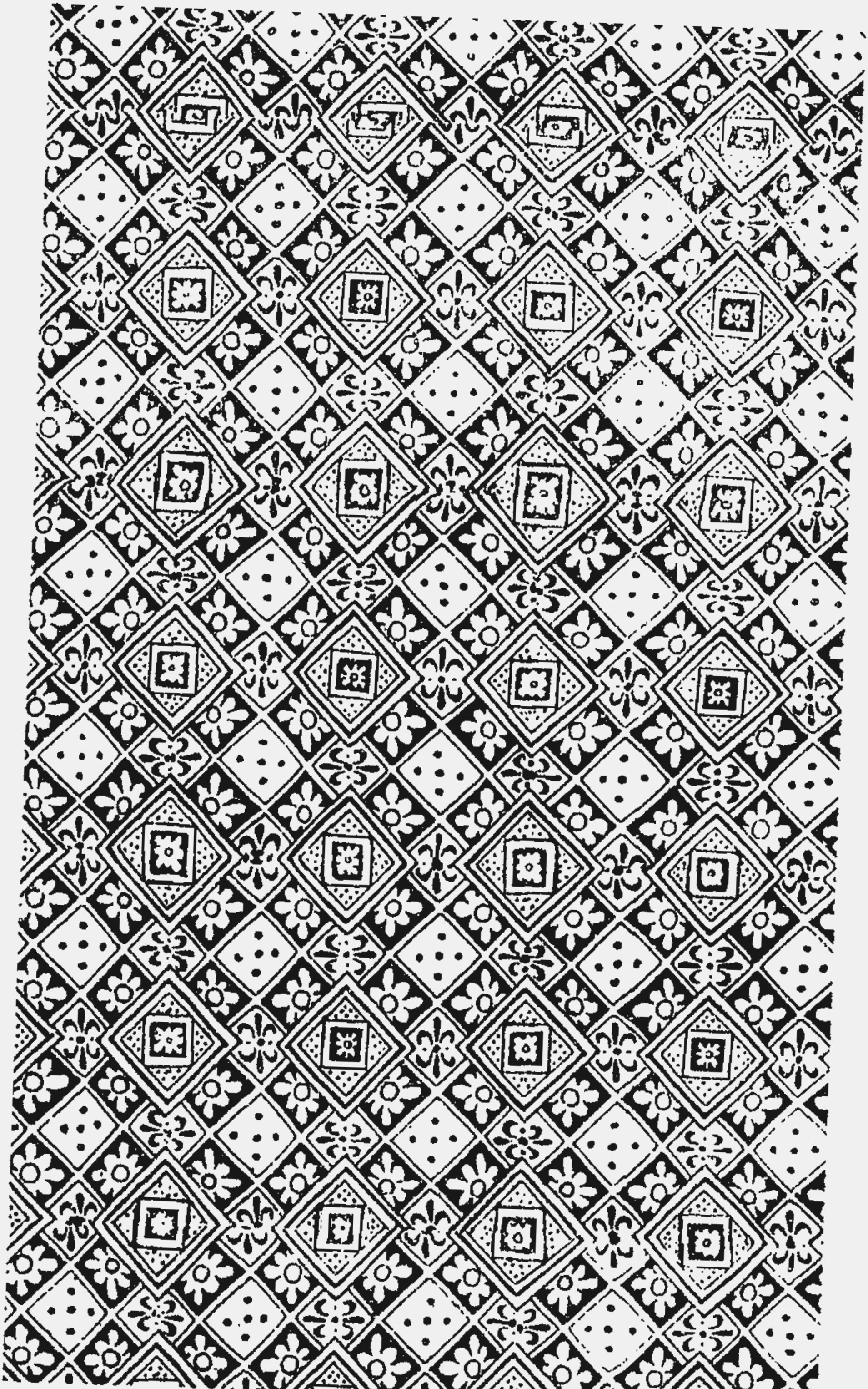


جهاد الأمم في سبيل الدستور

أستاذنا الكبير الدكتور هيكل

« يشمل تاريخ نظم الحكم قديماً وحديثاً ونشوء »

« الدساتير في البلاد المت... وثورات الشعوب في »

« سبيل ذلك و... عملة لهذه الثورات »

« لا يقوم النظام الدستورى في بلد من البلاد راسخا قويا ثابت الاوتاد إلا اذا آمن كل فرد في هذا البلد بأنه مسئول شخصياً وبالذات عن المحافظة على هذا الدستور وعن الذود عنه فعندئذ تتكون شخصية كاملة للشعب مؤمنة بالدستور تحوطه بالقلوب وتدفع عنه شبهة العدوان ببذل الروح والدم والمال عن يقين وايمان »

تأليف

محمد شوكت التوني

المحامي

الجزء الاول

الاهداء

الى ذكرى سعد أول وزير دستورى في حياة مصر الناهضة

والقائد الذى قضي وهو يجاهد في سبيل الدستور

والى ذكرى كل مصرى أريق دمه في سبيل الدستور أوقضى

وهو يجاهد في هذا السبيل الشريف

اقدمه

مجهود أيام وليالي . وثمرة جهد وتعب
وأنا بين ضآلة ما أقدم أمام عظمة ما قدموا للوطن
وبين خجل يتجني على انسانيتي الفانية أمام ذكراهم المجيدة الباقية

اهبه

أبقي أبناء الوطن الباقى
واكرم خالدين بين أهل الخلود

مقدمة

لمؤلفه

لماذا كتبت هذا الكتاب

هى فكرة واحدة تملكتنى لكى اكتب هذا الكتاب فلم استطع التحرر منها . ولا اطلاق ارادتى من غلها. فنفذتها وأنا اروح ما اكون نفسا . وأرضى ما اكون ضميرا. ثم لم اشأ ان أسىء جزاءها فأنسى اثرها واغفل ذكرها فكرمتها بأن جعلتها مقدمة هذا الكتاب وانا اكره الناس للمقدمات . ولكنها مقدمة جديرة بان تتقدم المجهود الذى كانت سببا فى وجوده . وأحق ان تعبر عن رأى صديقها الذى نزلت خاطره ونفسه وقلبه أياما طويلة فأحسن مثواها وأكرم ضيافتها. وإنى لأحب أن يطالعها كل قارىء قبل أن ينفذ الى صميم الكتاب فلعل يكون لها أثر فى السير به الى ضمير الصفحات التالية

. . .

قبل أن ينشأ الدستور المصرى الحديث (دستور ١٩٢٣ المعبر عنه

بدستور الامة) وبعد أن صدر وعمل به لاقى كثيرا من العقبات . ونيل من كيانه بكثير من الاعتداء على مبادئه جملة .ونصوصه. إفرادا. ورغم هذا الاعتداء . المترصد . المتكرر . فقد كان يمكن ان تسير به الامة الى الكمال حثيثا وتطورا . ولكن اعداء الدستور المصرى من ابناء البلاد ومن الانجليز ما فتئوا يصادرون مشيئة الامة فى اكمال هذا الدستور والتمتع بحرياته فهم يعطلونه ويقضون عليه مرة بعد مرة باسباب بعضها صريح العدوان وبعضها ملفق باسباب من القانون . وما أوسع صدر القانون لمن أراد أن يتحايل به ويزيف معانيه ويستغل الفاظه !!

لقد نال الشعب المصرى دستوره بعد جهاد طويل وعنيف وتضحيات وافرة غالية : فكان لذلك عزيزا عنده .أثيرا لديه. مقدسا فى دينه الاجتماعى وما كان يخيل له فى جو هذا الحب الا كيد أن سيناله ما ناله من الظلم والعدوان . والانتقاص والتعطيل . وهو كلما استطاع أن يذود مرة عنه ويسترجعه على على صورة من الكمال نسبية فجع مرة اخرى بالاعتداء عليه. حتى تولد من ذلك تشاؤم خطير فى نفوس أفراد الشعب من ناحية استقرار النظام الدستورى المنشود .

تولد هذا التشاؤم وشاع فى كل نفس فما أنت واجد إلا محيا مرتسما عليه أثر من هذا التشاؤم. ولسانا ناطقا بحديث تشاؤم صاحبه. وقلبا منفطرا من أثر هذا التشاؤم. وقلما تكاد تسمع فى صريره ألما باكيا يتجسم التشاؤم فى نشيج بكائه

وليس أقتل من التشاؤم إذا شاع فى نفس شعب ناهض فهو يبعث اليأس ويفتك بالرجاء. وإذا تسلط اليأس فترت الهمة. وخمدت نار الحماس المشبوبة. وتخاذل المجاهدون وانتثر الجنود كأنما حلت بهم هزيمة... ولا هزيمة!

ولعل أخطر أثر وأفتك تأثير للتشاؤم بعد ذلك هو ما يحدثه فى الشباب الذين تبدأ تتكون عقليتهم المفكرة وعواطفهم الوطنية فى السن التى تقع فى عهود الحكم المطلق الطاغى: فأولئك يشبون مرضى النفوس مفككى العزائم تقعد بهم هممهم عن أن يكونوا جندا صالحين لخير الوطن. واذا فقد الوطن فيلقا من فيالق الشباب فهو يفقد جيلا من أجيال العمر..

والعالم فى هذا الاوان يجرى مسرعا فى سباق الاجيال إلى المثل الاعلى للانسانية العالية فاذا تأخر شعب من الشعوب جيلا

عن العالم فهيهات ان يلحقه وهيهـــات أن يصل . . . إلا إلى قبره ومصيره المحتوم !

إن الشعب المصرى أعزل من السلاح وليس من مبادىء جهاده الاعتماد على الحركات العسكرية والثورات المسلحة . فجهاده سلمى وقواد الجهاد السلمى هم زعماء الحركة السياسية والكتاب والمفكرون. وعلى هؤلاء يقع عبء انقاذ هذا الشعب المتشائم من وطأة القلق على نفسه. ومن أثر التشائم فى جهاده

أما الزعماء السياسيون فهم قائمون بجهودهم الكريم كما خطوا لانفسهم ورسموا لسبيلهم .

أما الكتاب وذوو الرأى والفكر فهذا واحد منهم يقدم هذا الكتاب وأماه أن يستطيع أن يبدد كثيرا من التشاؤم ويدعو إخوانه إلى القيام بمجهودات متضاعفة للقضاء نهائيا على هذا الداء الوبيل الذى بدأ ينخر فى جسد حركتنا المباركة

عندما فكرت فى هذه الحالة السيئه وفكرت فى واجب الكتاب نحو الوطن القلق خطر لى أن أقدم للشعب المصرى صورا من جهاد الشعوب الاخرى فى سبيل دستورها ولئن قرأت كثيرا من تاريخ الدساتير فتولانى العجب وتملكتنى الدهشة إذ

وجدت أن كل الشعوب التى تتمتع الآن بأوسع الحريات وأشد الدساتير ثباتا قدمرت عليها عهود ذاقت فيها المر والصاب وفاتت عليها عصور من الطغيان والاستبداد لا يقاس اليها ما تلاقيه الامة المصرية من عبث بدستورها وتعطيل لحرياتها فسارعت إلى العمل فى هذا الكتاب لاعرض هذه الصور واسرد ذلك التاريخ امينا فى عرضى دقيقا فى سردى بحيث يجد القارىء صورا حقة وتاريخا صادقا ويقينى انه إذا ما وجد القارىء المصرى أن انجلترا كانت تمر عليها فترات من الطغيان والحكم الاستبدادى المطلق مدى عشرات السنين بل مئاتها حتى يخيل لاهلها ان لن يبعث عهد الحرية وحكومة الشعب ثانية فاذا الاحوال تنقلب واذا الظروف تتبدل واذا الشعب يسترجع حريته ويتمتع بها . ثم لا يلبث ان يغدر به حاكم مشرب الروح بالاستبداد فيقضى على الدستور وتمر أعوام ثم يجاهد الشعب مرة ثانية فيفوز . وهكذا ظلت انجلترا تغالب الاستبداد ويغالبها حوالى خمسمائة عام حتى استقر النظام واصبح نموذجا عظيما للنظام الدستورية فى العالم .

واذا قرأ المصرى ما كانت تلاقيه فرنسا من استبداد الملوك والاشراف مما يبعد على العقل مدى تصديقه فاذا هى تحت تأثير

الضغط المتوالى والاستبداد المستمر والطغيان المعمر تنفجر انفجارا جنونيا فتعصف بالعرش وبالعرف وبالتقاليد والقوانين وتقلب الحال حالا آخر وتبدل الشأن شئونا جديدة . ثم تنتهب التمتع بالحريات انتهابا. وتمضى فترة انتقالها بين دستور يقوم واخر يصرع حتى يتم لها المجد الدستورى الذى تفاخر به شعوب الارض قاطبة

واذا قرأ المصرى ماذا فعلت امريكا فى جهادها وكيف تغلبت جيوشها العاريه الحافية الجائعة التى لا تسير على نظام عسكرى أو تحمل عدة حربية كاملة على جيوش انجلترا العظيمة بقوة الايمان واليقين أو ما فعله الشعب التركى فى الطغاة من ملوكه فأذل مطعم الحيتان من لحوم البرايا (عبد الحميد) حتى بكى بين يدى زعماء الحرية كالطفل الضعيف الجبان .

اذا قرأ المصرى الوان الجهاد وتاريخ الحياة الدستورية لهذه الأمم التى ذكرناولغيرها مما سيأتى فى هذا الكتاب بجزئيه لا ريب عندى انه سيجد ارتياحا من نفسه . ورضى من ضميره واطمئنانا فى قلبه ولا ريب عندى انه بعد اطلاعه على تاريخ تلك الدساتير وما لاقته الشعوب فى سبيل الحصول عليها من تعذيب وتنكيل وتشريد للزعماء وحبس للافراد

وتقتيل وبذل تضحيات من المال والدم سيلقى سحب التشاؤم من خاطره وذهنه فتذهب ابادید وتنمحى آثار التشاؤم من فكرة ونفسه وروحه وقلبه . وتصفو أحاسيسه وتقوى عواطفه .وتبعث القدرة فيه على الجهاد فى سبيل تمكين دستوره . والسير به الى الكمال المطلق خطوات مع الزمن .

واذا تبدد الشك وانتفى القلق وخلا الجو من التشاؤم وعمر الايمان قلب الشعب وتمكنت العزيمة من نفوس افراده فلن يرهقه طغيان بل لن يحسه ولن يؤوده حكم مطلق يدوم يوما أو عاما ولن يؤثر فيه عذاب أو تنكيل مهما قسا المعذب ومهما خلت من قلب المنكل الرحمه بل ان الايمان يبعث فيه العزيمة والعزيمة المنبعثة من الايمان الراسخ لا تعرف أمامها صعبا ولا تفهم للمستحيل معنى ولا تدرك للخوف مظهرا أو أثرا واذا سار الشعب على هذه القوة المعنوية فلن تغلبه قوة مادية مهما كان عددها وفيرا وعددها مجهزة وأساليبها مستمدة البطش من قوة السيف والنار .

ليست حياة الشعوب بالايام والاعوام ولكنها بالقرون

والاجيال . وما كان جهاد الامم ليؤتى ثمره بين كروفر أو بين هجمة وتقهقر ولكنه يروح مع مد الحياة ويجىء مع جزرها وكم من فشل أعقبه ظفر . وكم من انكسار أعقبه انتصار وكم من أمة كبت ثم قامت - وسقطت ثم ارتفعت وماتت ثم نشرت

ان تاريخ الامم عبر واحوالها عظات والسعيد من وعظ بغيره والشقى من وعظ بنفسه فليكن لنا من تاريخ الامم واعظ وليكن لنا من أحوال ما غبر منها وما حضر عبرة لنعد خطة جهادنا ولنقم بحركاتنا على أساس ما تعلمته الامم من الدروس فى جهادها وفى حياتها ولنتعز عما نلاقى بالا قت ولنستبشر بانا الا شك منتصرون كما انتصرت ولا ريب انا ظافرون بما ظفرت . فما جاهدت امة فى سبيل حقوقها وحريتها وصبرت وصابرت وعقدت العزيمة واستبسلت إلا فازت وذاقت جنى استبسالها وتضحياتها

لم تمحى من الوجود أمة واصلت جهادها فى سبيل الحياة الحرة ولكنها فنيت أمم استنامت للظلم ونامت على الطغيان واقامت على الذل الذى أريد بها . وما دمنا أمة ناهضة تتعاق بالحياة الحرة وتعمل فى سبيل الحصول عليها فلن نموت ولن تموت حقوقنا بل انا فائزون ظافرون مقيمون على اشلاء الظالمين وعلى خرائب الطغيان صروح مجدنا وحرياتنا

لنتفاءل ولنؤمن بعدالةقضيتنافالايمان أساس القوة فى جهاد الفرد وجهاد الامم وهو غـذاء للارواح الآخذة بسبيل المثل الاعلى . .

ليؤمن كل فرد ولتؤمن المجموعـة وليعمل كل مصري على اعتبار أنه مسئول عن حماية الدستور بروحه وماله وأعماله

ليس النظام الدستورى هو الالفاظ المنسقة فى الموادوليس هو المواد المنتظمة فى صلب الدستور وحواشيه فليست القوانين شيئا اذا لم تحمها القوة وليست هى شيئا اذا لم تنفذها ارادة حـــازمه .

ليس أسهل من العبث بالدستور والتلاعب بمبادئه ومواده وتخريج معانيه من غير مخرج ولا مسوغ اذا لم تكن هنالك عين ساهرة عليه وسواعد حارسة له تذود عنه وترد عنه العادية

يجب ان يكون الدستور فى الارواح قبل أن يكون فى الاوراق ويجب أن تكون مبادئه يقينا فى النفوس قبل أن تكون موادا مجمعة فى الـكتب ويجب ان يكون أيمانا فى القلوب قبل ان يكون فصولا وابوابا فلا يمكن مطلقا ان يقوم نظام

دستورى فى بلد من البلاد راسخا راسى الاوتاد الا اذا آمن كل فرد فى هذا البلد بانه مسئول شخصيا وبالذات عن المحافظة على هذا الدستور وعن الذود عنه فمنذئذ تتكون شخصية كامله للشعب مؤمنة بالدستور تحوطه بالقلوب وتدفع عنه شبهة العدوان ببذل الروح والدم والمال عن يقين وايمان

فلنتفاءل اذن بحالنا و لنؤمن بعدالة قضيتنا . ولنملأ أرواحنا وقلوبنا ونفوسنا بمحبة الدستور والتعلق به والتشرب بمبادئه. ولتختلط فكرته بدمنا . ولنعمل باليقين الثابت والعزيمة القوية ولنقتل من نفوسنا القلق والتشاؤم ولنقض على التراخى فى عزائمنا ولنجن قريبا باذن الله ثمر الجهاد حرية كاملة ودستورا هو مفخرة الدساتير . وان ذلك لخليق بأمة كانت فى تاريخها القديم مقبرة الطغاة . فنى على ضفاف نيلها كل حكم طاغ وكل استبداد باغ وبقى النيل عزيز الجانب وبقيت مصر القديمة العهد بالحريه والمجد أزلية الحياة خالدة الحرية والمجد

وبعد . فقد اخرجت هذا الكتاب بعد دراسة انا موقن انها وافية تقاضت منى ثمنا أعتقد أنه غال من عمل أيام وسهر ليال . فانه لعمل شاق أن اقرأ عدة كتب مطولة لا خرج منها ببضع صفحات وافية بالغرض ولقد كنت الى هذا حريصا على أن

أجمل الصورة التى أعرضها على اختصارهاوا ضحة مما جعلنى أيضا اتبسط فى اللغة حتى جاءت لغة الكتاب سهلة غير متعمل فيها ولا مطلق لقلمى أن يجرى على أسلوبه لكيما تكون الصفحات مليئة بالمعانى ضيقة بالالفاظ

ولقد رأيت لزاما ان أكتب تمهيدا عن القانون وعن الدستور وعن أنواع الدول والحكومات وقد جاء عرضا فى هذه المقدمة بحث مختصر عن نشوء الدستور المصرى فأثبت رأيى أنه حق من حقوق الامة وليس منحة مانح ثم رأيت أن ابتدىء السلسلة من أولها فكتبت باختصار عن نظم الحكم فى الدول القديمة والعصور الوسطى وفى الاسلام وهى لمحات خاطفة لا بحوث وافية ثم رأيت ايضا أن أثبت قبل تاريخ كل دستور أهم المبادىء التى يتضمنها هذا الدستور . ثم تكلمت عن الدستور الانجليزى لانه اقدم الدساتير ثم عن الدستور الامريكى وهو اقدم الدساتير المسطورة وبعده عن الدستور الفرنسى وهو يليهما فى القدم . ولما رأيت المجال يتسع لجزء ثان أثبت دستور تركيا على اعتبارها بلدا شرقيا وارجأت الى الجزء الثانى الدستور المصرى لان لى فيه

آراء خاصة اخشى لو انى اثبتها بصراحة ان تعصف الوزارة القائمة (وزارة صدقى باشا) بالكتاب وهى ضيقة الصدر بحرية الفكر فتذهب الفائدة المنشودة من وصوله الى ايدى القراء وأملى أن يحين حين هذه الوزارة قريبا حتى يتسنى لنا اخراج الجزء الثانى باذن الله فنكتب فى ظل الحرية والفكرية ما نشاء ونثبت ما نريد . وقد ارجأنا ايضا الى الجزء الثانى دستور روسيا واليابان وايران وبولونيا وسوريا والمانيا وايطاليا وغيرها من البلاد الشرقية والغربية

وامل لى بعد ذلك اعتذارا الى القراء فقد كرهت فى هذا الكتاب الغلطات المطبعية وما كان لى حيلة فيها !! ولعلنى بعد ذلك أكون قد وفقت فى القيام بواجب ضئيل نحو الوطن المعبود وليس أروح على النفس من الشعور بأداء واجب نحو الوطن فحياة المرء ليست إلا سلسلة من أداء الواجب نحو بلاده وما حياة الامم إلا سلسلة من تضحيات الافراد ؟

محمد شوكت التونى

المحامى

شارع حسن الاكبر — عابدين

٨ سبتمبر سنة ١٩٣٣

الفصل الإول

الدستور

تمهيد

ماهو القانون ؟

القانون هو مجموعة القواعد التى رضيت جماعة أنسانية معينة تعيش فى مكان واحد من الارض وتربطها ببعضها رابطة ماتطبيقها عليها من السلطات فيها لربط علاقاتها . وتحديدها . والمحافظة عليها ولو بالقوة

ولما كانت « الروابط الاجتماعية » متشعبة . ومترامية الاطراف فقد تشعبت وترامت تلك القواعد تبعاً لذلك .

والجماعة الأنسانية المعينة هي مجموعة أفراد . تربط كل فرد بالآخر روابط مختلفة . وتربطه بالمجموعة نفسها روابط أخرى

متباينة كما تربطه بنفسه علاقات معينة . وتربطه بربه علاقة معروفة مصطلح عليها . كما أنه كفرد تربطه علاقات بجماعات أخرى وأفراد من هذه الجماعات . وكفرد من أعضاء الجماعة تربطه علاقة الجماعة بجماعة أخرى

فمثل رابطة فرد بآخر في مجموعـة معينة . البيع والشراء . والايجار والزواج . و المشاركة . وما تقتضيه الاخلاق المتعارف عليها

تربطه بالمجموعة عـلاقات كرابطة تبعيته لها . وواجبه نحو المحافظة عليها ومساعدتها بماله وفكره . وحقه عليها أن تحافظ عليه ممن يناله بضرر . وتحافظ على حقه . وماله وعياله . وترد له حقه اذا سلب . وتهيء له أسباب التعلم والحرية والراحة والطمأنينة

وتربطه بنفسه روابط شخصية . كواجبه أن يعمل . ليغذي نزعات نفسه بالجد والنعيم . وواجبه أن يأكل ويلبس . ويهيء المسكن . بأقصى ما تصل اليه قدرته .

وعلاقاته بربه . هي عـلاقة الايمان به . وعبادته . واطاعة أوامره . والانتهاء بنواهيه .

وعلاقته كفرد في مجموع بالنسبة لجماعة أخرى هي عـلاقة الجماعة بجماعة أخرى كالمعاهدات التحالفيه والتجارية . وعلاقات السلم والحرب . وعـلاقته بفرد من جماعة أخرى كالعلاقات التجارية والزواج والمصاهرة .

وعلاقته بفرد بجنسية أخرى . كالعلاقة التي تنشأ من وجود في ارض تلك الجماعة وارتكابه جريمة . أو رغبته في التجنس بجنسيتها .

سبب وجود القانون

وهذه العلاقات المتباينه المختلفة استدعت وجود عدة قواعد تنظمها وتطبقها من سلطة عليا . قد تستعمل القوة في تطبيقها وهذه القواعد هي القوانين

فالعلاقة بين الانسان ونفسه . تنظمها قواعد نفسية وخلقيه وفلسفيه لادخل للقوانين فيها وكذلك علاقاته بربه تنظمها الشرائع الدينية أيضا علاقاته الاخلاقية بغيره من الافراد كثير منها ينظمه العرف واصطلاح وقواعد الاخلاق والآداب أما علاقاته الاخرى فهي خاضعة لاحكام القانون الوضعي بمعناه المعروف

اقسام القانون

والقانون على ذلك كما يقسمه علماوه أما قانون خاص أو قانون عام .

فالقانون الخاص هو مجموعة القواعد التي تنظم علاقات الافراد بعضهم ببعض . كالقانون المدني والتجاري

والقانون العام ينظم علاقات أخرى للافراد وينقسم كذلك قسمين : قانون عام داخلي . وقانون عام خارجي

القانون العام الخارجي ينقسم قسمين (١) قانون دولي عام وهو الذي ينظم علاقات الدول بعضها ببعض لا اعتبار للفرد فيها الا كعضو في الجماعة التي تتكون الدوله فيها . امحت شخصيته في شخصية دولته .

(٢) قانون دولي خاص وهو الذي ينظم العلاقات بين أفراد من جماعات مختلفة قوانينهم مختلفة .

القانون العام الداخلي هو الذي ينظم علاقة الفرد بدولته وأقسامه (١) القانون الدستوري ٢) القانون الاداري

القانون الدستوري والاداري

القانون الدستوري هو مجموعة القواعد التي تبين مدى علاقة الفرد بالدولة وشكل الدولة ونظام الحكم فيها وسلطتها بازاء الافراد وحقوق الافراد ازاء هذه السلطة وانواع السلطة المخولة للدولة . اختصاص كل نوع ومدى سلطته وهو بعبارة مختصرة مجموعة القواعد العامة للحكومة

بينما القانون الاداري هو مجموعة القواعد التي تستخلص من

قواعد القانون الدستورى العامة لتسيير دفة الحكومة والتى تطبقها وتقوم على تنفيذها الحكومة كتعيين الموظفين واختصاصهم وتأديبهم ومرتباتهم . والضرائب وتنظيم الجيش ... الخ •

فالقانون الدستورى يؤسس النظام والقواعد العامة والقانون الادارى يفصل النظام ويسيره •

أهمية القانون الدستورى

اذا تلخص تعريف القانون الدستورى فى أنه القانون الذى يبين (١) شكل الدولة ونظام الحكم فيها : هل هى ملكية أم جمهورية وأى نوع هى من أحد هذين القسمين (٢) سلط الدولة بازاء الافراد (٣) حقوق الشعب كمجموعة أفراد بالنسبة لسلطة الحكومة (٤) أنواع السلطات واختصاصاتها •

اذا تلخص التعريف بهذه الصورة البسيطة فانه يعطيك فكرة عظيمة عن أهمية هذا القانون فهو الذى ينظم الشأن الداخلى للدولة كما ينظم شأن الافراد بازاء الدولة •

أن القانون الدستورى هو مظهر القوة والحياة فى الدولة كما أنه مقياسها وهو مظهر الاستقلال فيها • ومظهر الدرجة التى وصلتها من المدنية ووصلها الشعب من الرقى

وهو مظهر لما هو أجل من ذلك. مظهر ما بلغته المجموعة الانسانية المستقرة فى حيز من الارض والتى يهيمن عليها سلطان . من استحقاق للحياة وجدارة لتقرير أمرها. ومصيرها بيدها وهذه الجماعة كلما كانت أقرب الى حكم نفسها بنفسها كلما كانت أشد إيغالا فى المدنية والرقى وأكثر عراقة فى التمتع بمبادىء الحرية وهذا يستخلص من الاستقراء التاريخى . فلقد كان الاصل فى الجماعة السلطة الابوية وهى سلطة استبدادية بطبيعتها ثم سلطة رئيس القبيلة وهى كذلك استبدادية فاما السلطة الابوية فنشأها طبيعى . وما تستغله من سلطة مصدره الوضع الطبيعى للحياة ودروج الطفل فى كنف الوالد . أما سلطة رئيس القبيلة فقد نشأت من ارادة افراد القبيلة أن يلقوا الزمام الى اكبرهم أما سنا أو قوة ليصد عنهم الغارات ويحميهم من العدوان مقابل أن يدينوا له بالطاعة ويؤيدوا اليه جملا من ارزاقهم . أو من اغتصاب هذا الزعيم هذه السلطة لنفسه على أساس القوة أو العقل او السن .

ثم تكونت المدنية فعرف لاول مرة نظام الشورى وهو النظام الذى يقوم عليه النظام الدستورى . وكانت المدينة يحكمها مجلس من عظمائها الذين يمتازون أما بالبأس أو بالعلم أو بالحجى ورئيسهم فى ذلك لايزيد عن كونه واحدا منهم .

ثم تكونت الامم والدول وقام لاول مرة سلطان الفرد.

وهم بطبيعتهم أقوى أفراد الامة أو الدولة فهم أحق من يحكمها خصوصا وأن هذا العصر كان عصر اغارات وحروب والامم كانت أحوج ما تكون الى الاقوياء الذين يصدون الغارات ويصمدون للاعداء ويغيرون على البلاد فيضمونها الى الاملاك العامة

ثم جاء عصر السلطة الدينية حيث تسلط الوهم بان الكهنة أنما يحكمون بوحى الاله الذى يمنح الخير ويدفع البلاء والشر

ثم قوى الملوك واتحدو والكهنة فقالوا بان الملوك يحكمون بسلطة الهية ، وانهم ظل الله فى الارض وان ما يوقعونه من الاحكام انما هو وحى يوحى

ثم قام النبلاء والعظماء ينكرون هذا الحق الموهوم فقضوا عليه

ثم جاء عصر النور وابتدأ المفكرون يشعون أنوار علومهم وأفكارهم ويشيعونها فى الرؤوس والقلوب حتى قامت الشعوب الطالب بحق حكم نفسها بنفسها وانه ليس من الطبيعة ولا الحق أن يتسلط شخص على شعب ويحكم بما يشاء لا معقب لحكمه . ألا لشيء ولا لسبب الا لانه رجل قوى أو تناسل من أب كان ملكا وسودته عصبة من جيش قاهر وانما الطبيعى أن الشعب هو صاحب الحق فى تقرير مصيره وتشريع ما يناسبه من القوانين واختيار ما يلائمه من السلطات لان هذه الانظمة الحكومية التى ينظمها السلطان الاعلا أنما هى موضوعة لخيره وليس لاجباره واستعباده

وقامت الثورات الفكرية وتلتها الثورات الدموية وتغيرت الافكار غير الافكار وبدلت السلطات غير السلطات وقام حكم الشعوب مقام الحكم المطلق ولم تبق أمة متمدينة أو نصف متمدينة الا نال شعبها حق حكم نفسه بنفسه وتقرير مصيره بارادته ومشيئته

وعلى ذلك فقد مر العالم بانواع شتى من السلطات وانتهى الى خير النظم وهو النظام الدستورى . فتكون التاريخ من سلسلة جهاد الطبقات بعضها ضد البعض وليس من الغريب أن نقرر هنا أن تطور الانسانية فى كل شىء فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والاداب والفنون انما كان يقوم على الجهاد فى سبيل الحرية والمساواة والعدالة سواء أكان جهاد أمة ضد أمة أو جهاد شعب ضد حاكمه

ليس التاريخ هو تاريخ ملوك يقومون وآخرين يفنون ، ويبنون القصور وينشئون الحصون انما هو تاريخ جهاد شعوب فى سبيل حقوقها

تناول تاريخ أية أمة من الامم وانزع منه تاريخها السياسى من جهاد الشعب ضد حكامه الباغين سواء أكانوا أجانب مغيرين أو ولاة مستبدين ثم اسقاطهم أو اسقاط اسراتهم وتنصيب آخرين ومناصرتهم وتقرير حقوق للافراد والشعوب اذا نزعت هذا التاريخ لن تجد بين يديك الا صورة تافهة للانسانية وتطورها .

وقد جاءت الثورة الفرنسية فقلبت العالم وأنشأته خلقا جديدا

بما أخرجت للناس من مبادىء وأنظمة تناسب تقدم الشعوب وانقشاع ظلمة الجهل أمام انبثاق أنوار الفكر فى كل النواحى

ثم جاءت الحرب العظمى فاذا هى لا تقل تأثيرا عن الثورة الفرنسية أن لم تفقها بمراحل فلقد نادى كل شعب بحق تقرير مصيره وطاحت كثرة من التيجان وفنيت عدة ملكيات فى ثورة الشعوب ونجح الاشتراكيون والعمال فى تسلم ازمة الحكم فى كثير من البلدان الراقية وبقى على رأس الشعوب حكام محبوبون يحكمون باسم هاته الشعوب وفى سبيل رفاهيتها

أنواع الدول والحكومات

تنقسم الدول الى عدة أقسام وأنواع . بحسب وجهة التقسيم فلها أقسام وأنواع حسب مساحتها ومواردها ودستورها ونظامها الادارى وأثرها بالنسبة للدول الاخرى فى المسائل السياسية والحربية

ولكنا نعنى هنا بتقسيمها بالنسبة لنظامها الحكومى وصلتها بالحياة الدستورية

يقسم مسيو مورو الحكومات الى .

(١) حكومة ملكية monarchie (٢) وحكومة أشراف

democratic وحكومة الشعب (٣) erisocratie

فالاولى ما تتمركز فيها السلطة كلها فى يد شخص واحـد هو الملك أو الامبراطور

والثانيةما يهيمن فيها على السلطةجماعة من أشراف الدولة ليست بذى عدد كبير

والثالثة حيث يكون الحـكم للشعب

ويقول بنوع رابع آخر أضافه بعض الـكتاب الالمان هو حكومة الظل الالهى théocrathie وهى الحـكومة التى تقول باستمداد سلطتها من الالهة وانها ظل الله فى الارض وهى حكومة لاتقوم الا مضافة الى أحد الانظمة الحـكومية الثلاثة السابقة فتقول حكومة ملـكية الهية mouarchie théocrathie وحكومة أرستقراطية الهية وفى الغالب يكون الحـكم فيها فى يد رجال الدين

وحكومة ديمقراطية الهية .حيث يعتقد الناس أنهم يخدمون الله بتعيين واختيار رؤسائهم

وتنقسم الحـكومة الديمقراطية الى قسمين (١) ديمقراطية مباشرة directe حيث يقوم بالسلطة الشعب مباشرة بواسطة تـكوين برلمان منه جميعا وبهذا يقول روسو (فى كتابه العقد الاجتماعى III , ch'xII) وهذا النظام لا يمكن قيامه لانه من الصعب أن تجمع أمة بحالها فى

قاعة اجتماع برلمانى (٢) حكومة ديمقراطية غير مباشرة la reme
représntatif indirecte حيث ينتخب الشعب نوابا عنه
وذكر ايضا الحكومة النصف مباشرة Semi directe

ثم قسم الدول ايضا الى حكومة ملكية mgonarchie وحكومة
جمهورية républiqu

وقسم مونتسكيو الدول فى كتابه Lespritdes lois الى
( ) ملكية (٢) جمهورية (٣) واستبداديه
فالاولى ما تكون السلطة فيها فى يد شخص بمقتضى قوانين

معروفة ثابتة

الثانيه ما تكون فيها فى يد الامة

والثالثة ما تكون السلطة فيها فى يد شخص واحد يتصرف مطلق التصرف

وقسمها الاقدمون كارسطو Aristote الى قسمين (١) فى عهدها
الصالح (٢) فى عهد الفساد

(١) ملكية mona chy هى التى يديرها شخص واحد
(٢) وارستقراطية aristocracy التى يديرها جماعة قليل من الاشراف
(٣) جمهورية polity وهى التى تديرها الامة
وفى عهد الفساد تطلق على الاقسام الثلاثة السابقة الاسماء الآتية

١ — استبدادية Tyrany و ٢ — اوليجارشيه — حكومة oligarcy و ٣ — حكومة الدهماء democracy

ويقسمها الكتاب الحديثون ايضا الى

١ — حكومة دستورية Gouvernement Constitutionel

وهى الحكومة التى تكون الامة فيها مصدر السلطات . وينتخب فيها الشعب نوابه للعمل على ما يقتضيه صالحها

٢ — حكومه غير دستوريه وذات حكم مطلق أو استبدادية Gouvern · Absolu

وهى التى يقوم بالحكم فيها ملك أو رئيس أعلا ولا يكون للامه شأن فى أمرها

٣ - حكومه برلمانيه Gouv · Parlementaire وهى التى تكون فيها السلطة التنفيذية أعنى الوزارة capinet مسئوله أمام البرلمان أو أحد مجلسيه

٤ — حكومه غير برلمانية Non Pralementaire وهى التى لا تكون الوزارة فيها مسئولة أمام البرلمان , انما تعتبر أنها مسئولة شخصيا عن الاعمال السياسيه أمام الناخبين

وهناك تقسيمات أخري لا يهمنا شأنها كثيرا لعدم اتصالها بموضوعنا كدولة متحدة اتحادا شخصيا أو اتحادا حقيقيا . . الخ

خير النظم هو النظام الدستورى الديمقراطى

من الموضوعات ما فرغ الكتاب والباحثون منه وأصبح واضحاً كوضوح الشمس لذى عينين رؤية وللأعمى خيالا ورؤية . ولعل البحث فيه بعد وضوحه يوجب إما اثارة الغموض فيه أو الغض من قدر الكاتب وعقليته .

ومن هذه الموضوعات التى بدأ الباحثون يكتبون فيها وعنها منذ فجر الحركة الفكرية فى العالم القديم . ومنذ قام نظام الحكومات موضوع الحكومة الديمقراطية التى يحكم فيها الشعب بسلطته ، ويكون له النصيب الاكبر فى مباشرة الحكم ومراقبة القائمين به .

فلقد صنفت المجلدات الضخمة فى هذا الموضوع ولسنا هنا لنقتطف منها أو نلخص أقوالها أو ننقل بعض صفحاتها وانما لنشير اشارة بسيطة الى الموضوع

ولعل أهم ميزة من ميزات الحكم الديمقراطى هو شعور الشعب إنه انما يحكم بأرادته وان السلطة قائمة بأمره فان ذلك يعطيه شيئا كبيرا من الثقة بنفسه ومن الطمأنينة الى الحكم القائم . والرضا بالأوامر والقوانين واطاعتها . كما يبث فيه روح العزة والكبرياء ويثير فيه حب الوطن والتفانى فى سبيل الذود عنه

كما أن مباشرة الشعب للسلطة بالحكومة الديمقراطيــة يعتبر حصانة قوية ضد الاستبداد الذى قدتقوم به الحكومةفيمحى بذلك خطر الحكومات المستبدة وتأثيرها السيء فى نظام الحكومة وفى الشعب نفسه

اذ يشعر القائمون بالحكم باشراف الشعب على أعمالهم ومحاسبته اياهم على كل صغيرة وكبيرة . واحساسه القوى برغبات الشعب وبالأمه.

ومن أهم مميزات الحكم الديمقــراطى تأثيره الطيب فى عامة الشعب واثارة اهتمامهم بشئونهم وشئون الدولة العامة ومن محاسنه أيضا توفير الحياة الحرة الراقية للشعب لأن الحكومة تقف أعمالها على تنفيذ ارادة نواب الشعب الذين يحسون آلامه ويعرفون موضع الداء من جسده

وهو يعطى فرصــة عظيمة لظهور الشخصيات النابغــة من بين صفوف الشعب

هــذا كله بعكس الحكومات الديكتاتورية والارســتقراطية لأنها تقتل روح الوطنية والعزة القومية فى أبناء الشعب . وتثير نفوسهم دائما ضد الحكومة مما يسبب القلاقل والثورات الداخليــة ويضرى القائمين بالحكم بالعبث بمصالح النــاس — ولو أن ذلك قد يكون بحسن نية

وتجعل الناس دائما قلقين على مصالحهم غير مطمئنين على ارواحهم وأموالهم فاقدى الثقة فى الحكومة ورجالها وليس أشد هدما للعدالة والحرية والمساواة من فقدان الثقة بين الحاكم والمحكوم بين الشعب والحكومة .

ولسنا نريد أن نتوسع فى هذا البحث فهذا الكتاب لم يوضع لهذا الغرض وان فى هذا الموضوع متسعا لمن يريد الاطلاع ولو انى أعتقد أن أبسط شعاع من التفكير يفضى الى الاقتناع بذلك

أنواع الدساتير

أهم أقسام الدساتير ما يأتى

١ — دستور مسطور Ecrit

وهو الدستور الذى يصدر كقانون من جمعية وطنية مثلا كدستور مصر وفرنسا وبلجيكا وايطاليا والولايات المتحدة .

٢ — دستور غير مسطور Non ecrit

وهو الدستور الذى تعارف الناس على مواده وتقاليده وصار الى ما هو اليه بمقتضى تاريخ حافل من نظم عرفية وتقاليد مرعية كدستور انجلترا

وليس معنى أنه غير مسطور أنه غير مكتوب بل بالعكس فهو يكون مكتوبا ومحفوظا فى سجلات البرلمان

والحقيقة أنه من الصعب التفرقة بين النوعين لان فى النظام الاول المسطور توجد أيضا بعض تقاليد مرعية دون أن تكون مكتوبة

وفى الثانى كثير من القوانين التى تكون مسطورة كالماجنا كارتا mag a charts فى انجلترا وقانون بيان الحقوق

للدستور المسطور ميزة كبيرة — وتلك أن السلطة التنفيذية إذ أن الدستور مسطور وثابت — لا يمكن أن تتناول أى جزء من أجزائه بالتشكيك أو بالمحو أو بالزيادة بعكس الغير مسطور

على أن الواقع أن هذه ميزة ليست بذات أهمية كبرى فقد رأينا من ظروف كثيرة ولعلها فى مصر أكثر وضوحا — ان السلطة التنفيذية فى استطاعتها دائما أن تغير من الدستور المسطور ما تشاء وتمحو وتثبت فيه ما تشاء ما دام هذا الدستور لا يقيه الرأى العام بقوة عظيمة هائلة

٣ — دستور جامد Rigid

وهو الدستور الذى لا يمكن تغييره مطلقا الا بواسطة هيئة خاصة ينص عليها نفس الدستور عند صدوره

٤ دستور مرن Souple

وهو الدستور الذى يمكن للسلطة التشريعيه — مجلس الشيوخ

ومجلس النواب — بشكل جمعية عمومية أن تغيره

وبمقارنة التقسيمين الاولين والثانيين يمكن بسهولة ادراك أنه في معظم الاحايين يكون الدستور المسطور جامدا وغير المسطور مرنا .

نشأة الدساتير

تنشأ الدساتير بواحد من ثلاثة طرق : —

(١) طريق الجمعية الوطنية

وذلك أن تجتمع ارادة الامة — وفي الأغلب يكون ذلك عقب ثورة مسلحة أو ثورة فكريه — على نوال دستور يضع السلطة في يدها — فتنتخب جمعية عمومية . يوكل اليها وضع النظام الدستورى ومواد الدستور

وقد نالت فرنسا والولايات المتحدة وبلجيكا دساتيرها بهذه الصورة .

(٢) طريقة التعاقد بين الرئيس الاعلى في الدولة والشعب .

وذلك أنه في مناسبات معينة يرى الشعب أن ينال حقا من حقوقه او الدستور باكمله فيطالب به الرئيس الاعلا صاحب السلطة وتنتهي المطالبة

بالمفاوضة فالتعاقد على التسليم بهذا الحق والصورة الواضحة لهذه الطريقة فى الدستور الانجليزى وكذلك الدستور المصرى

(٣) طريق المنحة

وذلك بان يمنح صاحب السياده وهو الرئيس الاعلا فى الدولة شعبه دستورا. ولم يصدر بهذه الطريقة غير الدستور الروسى واليابانى والايطالى ..

وعند هذه الطريقة نلاحظ ملاحظتين

(١) أن هذه الطريقة لا يصدربها الدستور الا فى حالة وجود ملك مستبد ظالم يجنح الى الطغيان على حقوق شعبه وافنائها فى سلطته الى شعب ليس له تاريخ دستورى. وترى هذا واضحا فى دستور روسيا التى كان يحكمها القيصر وكان على ما كان عليه من طاغوت وكذلك اليابان وايطاليا.

(٢) أنه ليس من الانصاف أن يسمى منحة أعطاء الملك أو الامبراطور شعبه الدستور لان الحقيقة أن أمثال الملوك المستبدين لم يعودونا مثل هذا الكرم فمن الاستماتة فى جمع السلطة فى اليد الى منحها كلها أو معظمها الى الشعب. يقف الانسان متعنتا ان سمى هذا منحة !

وانما الواقع أن الملك يجبر جبرا على منح الدستور وذلك بمطالبة

الشعب وبالثورة أو بالانقلاب الفكرى فيضطر الملك أو الامبراطور لكى يحفظ ملكه أن يصدر الدستور. ثم لكى يبقى من مظاهر السلطة والطاغوت شيئا يسمى اصدار الدستور « منحة » ! .

هل الدستور المصرى منحة ؟

يقول الاستاذان (دكتور ويت ابراهيم ومصطفى الصادق بك فى كتابهما (مبادىء القانون الدستورى المصرى والمقارن)

« صدر الدستور المصرى فى ١٩ ابريل سنة ١٩٢٣ بشكل منحة من الملك ومقررا بالماده ٢٣ أن جميع السلطات مصدرها الامة وهذا تنازل من الملك عن حقوق السيادة التى كانت له) .

واننى بكل شجاعة وكل قوة أنكر هذا القول انكارا تاما. فلقد أوردنا قبل هذا الكلام ملاحظتين عن نشوء الدستور بطريق المنحة . وذكرنا أن المعهود أن الدستور لا يصدر بشكل منحة إلا من ملك أو امبراطور مستبد ظالم ملك فى يده كل سلطة وغرق فى شهوات الاستبداد إلى شعب ليس له تاريخ دستورى معين .

وأظن أن من البداهة أن يقتنع الناس أن جلالة ملك مصر ليس كذلك ولا الشعب المصرى أيضا كذلك. فالمعروف أن جلالته يميل

الى الديمقراطية . والمعروف أيضا أن الشعب المصرى له تاريخ، دستورى لا يقل قدما عن كثير من البلاد الاوربية المتمدينة العظيمة فالواقع كما — سنبرهن بعد — أن الدستور المصرى هو حق من حقوق الشعب ناله بعد جهاد طويل كنتيجة لاعتراف الدولة المحتلة باستقلال البلاد

وسنرى من تاريخ الدستور المصرى الوارد فى أصل هذا الكتاب، أنه كان لمصر برلمانا من عهد اسماعيل وأن هذا البرلمان كان قائما على، دستور. وهذا الدستور ناله الشعب بعد جهاد و كفاح ومطالبة .

وسنرى أن أشكالا برلمانية قد تعاقبت على مصر فمن مجلس شورى، النواب (١٨٦٦) الى مجلس النواب (١٨٨٢) الى مجلس شورى القوانين (١٨٨٣) الى الجمعية العمومية الى الجمعية التشريعية(١٩١٣)، الى أن جاءت الحرب وأوقفت الجمعية التشريعية جلساتها.

وسنرى أيضا أنه منذ بدأ الاحتلال ورجال الحزب الوطنى كزعماء، للامة عندئذ ينادون بطلب الدستور ويكافحون فى سبيل ذلك .

على أنه وقد كان لنا فى عهد كفاحنا الدستورى ظرف خاص هو احتلال، الجنود البريطانية بلادنا. ذلك الاحتلال التعسفى الغير مشروع ولذلك فقد كان جهادنا دائما مزيجا فى سبيل الاستقلال وان كنا دائما لم نثن عن المطالبة بالدستور

فلما وضعت الحرب أوزارها ونادى منادى حق الامم فى تقرير

مصيرها . وشعرنا بأوان الوقت الذى نطالب فيه بتنفيذ الوعود التى قطعتها انجلترا وأبت علينا تحقيقها فنا قومتنا العظيمة المباركة التى وجهت لنا انظار العالم وتلفت من هزتها الدهر نطالب بالاستقلال والدستور

وكانت أول خطوة فى سبيل ذلك انعقاد الجمعية التشريعية — وفى ذلك ما يشعر باتصال الحياة الدستورية فى مصر اتصالا لا يدع مجالا لكرم المنح والعطاء ! —

وقامت البلاد ثائرة تطالب بحقوقها وعلى رأسها الوفد المصرى الذى اذاع فى ١٠ يناير سنة ١٩١٩ مذكرة جاء فيها :

(تنتظر مصر أن تكون حكومة بلاد دستورية وتتحتم طريقة الحكم هذه لموقف البلاد الخصوصى)

وفى نفس هذا التاريخ اذاع الوفد المصرى مذكرة اخرى على الاجانب ودور السفارات الاجنبية جاء فيها:

(نبغى أن نستقل بشئون بلادنا فى شكل حكومة دستورية حتى نصلح من حالنا الاجتماعية ما يفسده عادة حكم الاجنبى عمدا)

كما أن مذكرة مستر برونيت نفسه أشار فيها بايجاد نوع من الحكومة الدستورية. حقيقة أنه كان نوعا سخيفا ولكنه على أى حال اعتراف بالمبدأ

وقدتوسع فى طلب الحكومة الدستورية المغفور لهحسين باشا رشدى فى مذكرته

وفى ١٣ يناير من نفس العام خطب المغفور له الزعيم الخالد سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصرى فجاء فى خطبته

(أولا تريد مصر أن تكون حكومتها دستورية)

وكتب رئيس الوفد أيضا الى دولة عدلى يكن باشا خطابا بعد انتهاء النفى يقول له فيه:

(نتمسك برأينا فى موضوع عودتناالى مصر ونظرا لاننا لم نفكر مطلقا فى ذهابنا الى لندره فاننا سنفحص المسألة متى قدم لنا اقتراح وبما أن المفهوم من عبارة Self Gover Constitution أن الحكومة البريطانية لا تتعاقد إلا مع حكومة دستورية فقد صار اذن من اللازم مبدئيا تحضير دستور بتأليف وزارة ثقة يكون برنامجها تحضير هذا الدستور ثم المفاوضه للوصول الى مشروع ...)

وجاء فى مذكرة لورد ملنرفى ١٦ يوليه:

((١) تتعهد بريطانيا بضمان سلامة مصر واستقلالها كدولة ملكية دستورية ذات أنظمه نيابية)

وظلت الثورة قائمة ونحن نطالب باستقلالنا وبدستورنا حتى تعبت من مراسنا انجلترا الدولة صاحبة الاحتلال الغير مشروع

وارادت أن تصفى الموقف بينها وبيننا بمفاوضة عدلى باشا فى سنة ١٩٢١ التى انتهت بالفشل . وقد أرسل الفيلد مرشال فيكونت اللنبى الى المركيز كرزون اوف كد لستن فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢١ يقول (لا يسعنى الا ان أطلب اليكم والى حكومة جلالة الملك أن تصدقونى اذا قلت أنه ليس ثم مصرى — كائناما كانت آراؤه الشخصية — يستطيع أن يوقع أية معاهدة لا تتفق فى رأيه مع الاستقلال التام . ولذلك فانه من الضرورى العدول نهائيا عن الفكرة القائلة بان المسألة المصرية يمكن تسويتها بواسطة معاهدة .

ومن أجل هذا يجب أن تطرح حكومة جلالته الامل فى الحصول على المزايا المستفادة من معاهدة فى مقابلة منح قدر ما رضاها على المصريين. إن العلاقة بين بريطانيا العظمى ومصر اليوم شبيهة بما كان بين تركيا ومصر قبل نشوب الحرب ولما كانت تركيا تمنح مصر شيئا فى الماضى كانت الطريقه التى جرت عليها من جانب واحد. فمثلا منح خديو مصر حقوقا معينة بواسطة سلسلة من الفرمانات بين عامى ١٨٤٠ و ١٨٩٢ وكانت أهم هذه المنح فى عام ١٨٧٣ حينما منحت حقوق معينة فيما يختص بالعلاقات الخارجية . وقد صار عمل بريطانيا العظمى لسحبها من مصر ما نزلت عنه تركيا ممقوتا اليوم أكثر من أى شىء سواه)

ثم اقترح تنفيذ مشروع كيرزون كتصريح من جانب واحد .

وفى ١٢ يناير سنة ١٩٢٢ ارسل اللورد اللنبى الى جلالة الملك كتابا مفسرا للمذكرة الايضاحية التى تقدمت الى جلالته فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٢١ وفى البند الثالث يقول تأكيدا لما فى المذكره:

((٣) ان بريطانيا العظمى صادقة الرغبة فى ان ترى مصر متمتعة بما تتمتع به دولة ذات سيادة من مميزات قومية ومركز دولى)

وفى البند ١١ يقول:

(أما من حيث الادارة الداخلية لمصر فان حكومة جلالة الملك (بريطانيا) تنظر بارتياح الى انشاء برلمان له الحق فى الهيمنة على سياسة حكومة مسئوله دستورية وعلى ادارتها)

ارسل اللورد اللنبى أيضا الى وزارة الخارجية فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٢ يقول

(إن حكومة جلالة الملك فى حين أنها لاتنوى مطلقا أن تسلم تحت ضغط الاضطراب والعنف بما هى على استعداد لمنحه مراعاة لانه حق فى ذاته فانها قد جاهرت بانها مستعدة لان تطلب الى البرلمان البريطانى رفع الحماية المعلنه على مصر فى سنة ١٩١٤ والاعتراف بمصر دولة ذات سيادة وللموافقة على ايجاد برلمان مصرى)

وجاء في البند ٦ من تصريح ٢٨ فبراير الذي اعترفت فيه انجلترا باستقلال مصر

(هذا هو كل مرمى الضمانات البريطانية ولم تصدر هذه الضمانات عن رغبة في الحيلولة بين مصر وبين التمتع بحقوقها الكاملة في حكومة شعبيه)

فمن كل هذا ترى ان بريطانيا بعد جهادنا العنيف وبعد اقتناعها بأن معاهدة لن تتم الا اذا كانت تتضمن استقلالنا التام ارادت ان تحسن مركزها بالنسبة لنا أمام العالم بعرض هذا التصريح ذي الجانب الواحد وفيه تعترف لنا بحقنا في الاستقلال وفي الحياة الدستوريه او حقنا في استرجاع دستورنا على الاصح

وعلى اساس هذا التصريح قام النظام الدستوري المصري بعد اعلان الاستقلال الذي وان يكن استقلالا لا صوريا ولا يحقق شيئا من اماني البلاد إلا انه صدر بشكل اعتراف رسمي .

ولما كانت البلاد في هذا الوقت في ثوران وهياج مما يستحيل معه تهيئة انتخاب جمعية وطنية تكون لجنة لتحضير الدستور الفت وجهزت مواده وصدر بعد ذلك كما صدر دستور أمريكا بعد نوالها الاستقلال

حقيقة أن جمعية وطنية لم تجهز مواده ولكن أيفهم من ذلك

أنه ليس حقا للامة نالته بدمها وارواحها ؟ كلا .. فقد برهنا على أن انجلترا اعترفت به كحق كان لنا ثم قضت عليه الظروف ثم رجعنا فنلناه بالجهاد الدامى .

وإن تكوين لجنة الدستور هو أشبه بتكوين جمعية وطنية من غير طريق الانتخاب لان هذه اللجنة كانت من كثيرين من خيرة المصريين ومن كثيرين ممن اشتركوا فى حركة الجهاد الوطنى .

وعلى العموم فان استرجاع حق من الحقوق لا يستلزم عملا شكليا اذا مادام الموضوع مسلم به وهو ان الدستور معترف بانه حق من حقوق الامة التى ظلت عهدا طويلا تنادى بالمطالبة به وتبذل الارواح والدماء فى سبيل نواله

ولقد كان اول عمل عمله أول برلمان مصرى أن نظر فى القوانين التى صدرت اثناء تعطيل الجمعية التشريعية . وفى هذا برهان على ان الحياة الدستورية فى مصر كانت متسلسلة الحلقات وانها لم تكن مقطوعة فى يوم ما

مراجع الفصل الفائت

Duguit Le droit constitutionenel

Moreau « « «

Dicy

Esprit des Lois

كتاب المبادىء الدستورية (لدكتور وايث ابراهيم ومصطفى بك الصادق)

الكتاب الابيض الانجليزى

حوليات مصر السياسيه

بعض الصحف العربيه والافرنجيه

الفصل الثانى

نظام الحكم فى الدول القديمة

مصر — اليونان — الرومان — العصور الوسطى — العرب

رأينا قبل أن نتكلم عن النظم الدستورية . وتطورها . والجهاد فى سبيلها أن نلم المامة بسيطه . مختصرة . بنظم الحكم فى الدول القديمة والعصور الوسطى . حتى يمهد لنا التسلسل التاريخى حسن تفهم ابتداء الدساتير الحديثه . وحتى نستطيع أن نرى مدى ما وصل اليه التطور فى نظام الحكم . بين عهد غبر وعهد حضر .

وسيكون حديثنا فى منتهى الاختصار . لأنه اولا ليس موضوعنا الاصيل . الذى طالت المقدمات عليه . ولسنا نود ان نرمى بتهمة التطويل فى التقديم . واللف حول الموضوع دون النفاذ الى صميمة كما هى العاده التى يرمى بتهمتها المصريون

وثانيا لانه موضوع كبير لا يمكن الالمام به باسهاب

الا فى مجلدات . ولسنا فى احتياج الى ذلك

وثالثا لان كثيرين من القراء لابد قد درسوا هذا التاريخ فى تعليمهم الابتدائى والثانوى والعالى .

وإنالنبدأ بمصر أولا لانها ولا ريب أم المدنيات . ومهدأول الحضارات . ومصباح القبس الأول الذى ترامى بالمدنيةعلى العالم كله . ذلك الى نزعة التعصب بالابتداء بمصر فى كل شىء ذلك التعصب الذى نعتزبه

نظام الحكم فى مصر الفرعونية

أول مالفت نظرى عند كتابة هذا الفصل ما كتبه جوستاف لوبون فى كتابه الحضاره المصرية فقال (فكانت الملكيةالمطلقه المستبدة اذن المظهر الوحيد للحكومة الممكنة فى مصر . وكانت الوحدة الوطنيه الكبرى الاولية التى عرفت فى تاريخ الحضارة البشرية وشوهد فى جميع العصور أن شعبها الذى كيفته قرون طويلة بكيف الطاعة فى حاجه على الدوام الى نير سيد يحكمه)

فجوستاف لوبون على ذلك يرى ان الملكية المطلقة المستبدة هى الحكومةالتىقامت فى مصر فى عهدها الفرعونى .

ومما يؤسف له ان يحاول هذا الفيلسوف ان يطبق قواعد

هذا العصر الحديث على عصر قديم ليخرج بالقاعدة التى انتهى اليها . وكان الاولى ان ينغمس فى تاريخ ذلك العصر ابائدو ذلك الزمان الماضى ثم يحاول ان يتفهم أى نظام كان سائرا .

سنبين مبلغ هذا القول من الخطأ بتناقض اقوال جوستاف نفسه فى مواطن أخرى من كتابه ثم نبين الحقيقة التى لامراء فيها

يقول جوستاف لوبون فى موطن آخر (ان هذا الجنس الذى يبدو لنا غايه الغايات فى عظمة آثاره لم يكن فى السياسة وبعبقريته إلا عبدا ولكن من اولئك العبيد الذين يسودون سادتهم ويتفوقون عليهم ويأخذونهم تحت عبقريتهم)

ارأيت تخبطا مثل هذا ؟! إنه يقول، بأن المصريين كانوا عبيدا ثم يقول إنهم من العبيد الذين يتفوقون على سادتهم ويأخذونهم تحت عبقريتهم . فهل سمعتم عن نوع من هذه العبودية ؟ . إن أبسط ما يعرف عن العبيد أنهم قوم يفنون فى طاعة اسيادهم . وان ليس لهم مع اسيادهم قولا و لا حكما . ولا يعقبون على اوامرهم الا بالخضوع . والخنوع . والرضاء . اما أن العبد يسود سيده . ويتفوق عليه . ثم يكون عبقريا فيفنى سيده فى عبقريته فهذا عبد غير موجود وانما هو نوع او جنس من الناس لاتؤهلهم هذه الصفات إلا ليكونوا اسيادا عظاما كراما .

ويسوق بعض المؤرخين الآخرين مثلا آخر على استبداد الملوك بالشعب المصرى القديم . وذلك المثال هو بناء الاهرام فيقولون إن ملكا يسخر الملايين لبناء مقبرة له لهو ملك مستبد ظالم . لا يقيم لرعيته أى وزن ولا بد أن تكون رعيته عبارة عن فئة خاضعة ذليلة مغلوبة على أمرها

ونحن نقول إن فراعنة مصر لم يكونوا مستبدين على ما يتصور الناس .

فالثابت أن الفراعنة لم يكونوا معتبرين ملوكا وانما كانوا يعتبرون أبناء الآلهة . والدليل الأكبر على ذلك أن كل ملك منهم كان ينسب الى آلهة من الآلهة . إما آمون أو رع أو غير هذين . وكان الشعب يعامله على هذا الاساس

قال تيودور الصقلى (كان المصريون يحبون ملكهم ويحترمونه لأنه أبوهم وابن آلهتهم ومنبع كل فضيلة وكل عدل فلا يخدع ولا يأثم . ومن المراسم فى كل يوم تبعا للقاعدة المرعية أن يقوم الكاهن الكبير أمام الملك معددا فضائله فى المعبد ويصوره بما يجب أن يكون عليه ابن الالهة . ولا يستطيع أن يدلى اليه بنصح لا بطريق المديح والثناء . ثم قال فى موطن آخر (عندما تفيض روح الملك يحد عليه جميع السكان فيمزقون ثيابهم ويغلقون المعابد

ويكفون عن القرابين ولا يقيمون أى احتفال مدة اثنين وسبعين يوما)

وقد قال تيودور (ان الملكه كانت تنال من الساطه والتكريم كثيرا وهذه العادة ترجع الى الذكرى الطيبة التى خلفها الحكم المجيد للاله ايزيس) - وقال لويون (ومن مينا نزل الفراعنة أبناء آلهة الشمس)

فانت ترى من رواية تيو دور أن الصلة بين الشعب ومليكه كانت روحية وليست صلة الحاكم والمحكوم إذ كانوا يعتبرونه أباهم وابن الهتهم ومنبع كل فضيلة وعدل فلا يخدع ولا يأثم

واذا مات شقوا عليه الثياب وحدوا عليه اياما معدودات.

فاذا تصورت السلطان الروحى وأثره على بنى البشر وكيف يجعلهم ينسون آلام نفوسهم ويستهينون بالأم اجسادهم أدركت أن ما كان يقوم به المصريون من عمل فى سبيل الملك انما مبعثه الاعتقاد والايمان الروحى الدينى وليس الخضوع والرضوخ لما ينزل بهم

فالحكومة فى عهد الفراعنة حكومة ملكيه آلهيه théoerathie فالشعب كان ينزل على ارادة مليكه ورغباته لانه كان يعتقد انه بذلك ينفذ رغبات الاله وهذا النظام عرفته الدول المتمدينة فى عصور أحدث كثيرا من عصر الفراعنه

أما البرهان على ديمقراطية الحكومة فقول تيودور الصقلى :

(لم يكن الملوك يعيشون عيشة حرة مستقلة كغيرهم من ملوك الامم الاخرى إذ لم يكن فى وسعهم قط أن يتصرفوا حسب أهوائهم . وكل شىء كان محدودا بالقوانين لا فى حياتهم العامة فحسب بل فى حياتهم الخصوصية اليومية كذلك . ولم يكن يقوم على خدمتهم رجال اجراء أو ارقاء بل ابناء القساوسة الاول الذين تربوا بعناية كبرى وجاوزوا العشرين من اعمارهم وبهذه الطريقة يكون حول الملك ليل نهار ممن يخدمون شخصه نماذج حقيقية للفضيلة فلا يستطيع أن يقوم على عمل مذموم)

اذن فأنت ترى أن كل أعمال الملوك كانت محدودة بالقوانين وهذا نظام ديمقراطى بل دستورى لأن الحاكم الذى يحد حكمه القانون لا يمكن أن يكون مستبدا مطلقا وانما هو حاكم ديمقراطى دستورى . وقد كان امنمحت الاول يباهى بعدله فيقول « لا جائع تحت حكمى ولا ظمآن فى أيامى » .

فاذا أيقنت بما قدمنا أن الصلة بين الشعب ومليكه كانت روحية ادركت بسهولة ان بناء الاهرامات لتكون مقابر للملوك ابناء

الآلهة لم يتم على أساس الارهاق والاعنات وانما قام على أساس رضاء من الشعب وايمان روحي ديني يخفف من آلام الجسد . وإلا فكيف تعلل تجمع الملايين من الشعب فى وقت واحد وعدم حدوث أية ثورة أو حركة عصيان مع أن اجتماع مثل هذا العدد الهائل لا يمكن أن تضبطه قوة عسكرية . ولا يمكن أن تمنعه عن الثوران اذا اراد أية قوة بالغ جبروتها مايبلغ الا اذا كان عدد الجيش ضعف هذا العدد اضعافا مضاعفة . والتاريخ لم ينبئنا بان خوفو كان عنده جيش عشرة ملايين . مع العلم بان التاريخ يشهد على أن المصريين قاموا فى ظروف كثيرة بحركات ثورية قلبت نظام الملك كما حدث فى عهد ابريس عندما سمح لليونان بالتوطن فى مصر وقدم الجيوش اليونانية على المصرية . كما كانوا دائما يقومون بحركات ثورية ضد الشعوب المغيرة كالهكسوس والفرس والاشوريين وغيرهم .

• ثم كيف تعلل رضاء الشعب بان يكمل لنيوتكريس هرمها وهي ملكة - امرأة مستضعفة - لولا نظرته اليها كابنة للآلهة لما تحمل آلام البناء وعذاب العمل . وما كان لو ثار ليخشى قوتها .

فوق انه ظاهر أن كثيرين من ابناء الشعب ارتقوا الى مصاف الملك كأحمس مثلا .

كما أن الادنياء الالباء كان فى مكنتهم الترقى وبلوغ اسمى المراتب

وهذا لا يكون فى عهد استبدادى من الطبيعى أن يسود فيه ابناء الاعيان فقد قال بنتاؤر الشاعر المصرى المعروف لأحد تلاميذه (ولكن الرجل الذى يدرك قيمه الآداب والعلوم ويمارسها يعلو على أهل الخطر ورجال الزلفى فى البلاط فتعلم هذا حق العلم)

كما أن المشاهدات والاستقراءات التاريخية دلت على أنه فى عصور الظلم والاستبداد لا تزهر الفنون والآداب مطلقا وانما فى عصور الحرية تزهر الآداب والفنون والعلوم .

والذى لا ينكر أن مصر بلغت فى عهدها القديم ما لم تبلغه دولة من الدول وما لا يزال يحير عقول الناس فى الوقت الحاضر فى فنون الهندسة والبناء والنحت والتصوير والزخرفة والادب القصصى والشعر والقوانين. واذا أردنا أن نسوق الامثلة لاحتجنا إلى المجلدات وحسبى أن احيل القارىء الى كتاب جوستاف لوبون الحضارة المصرية ليرى كيف يمجد هذا الفيلسوف الاجتماعى مدنية الامة المصرية الفرعونية. وكيف لا يستنتج من ذلك أن حكمها لم يكن حكما استبداديا مطلقا .

فمما تقدم جميعه ترى — مو قنا — أن مصر لم تكن محكومة حكما استبداديا مطلقا وانما كانت حكومتها ملكية ديمقراطية تيوقراطية

نظام الحكم فى اليونان

أهم مصادر النظام الأول لحكومة بلاد الاغريق هو شعر هوميروس

وبلاد الاغريق لم تبدأ حياتها كمملكة معلومة الحدود واحدة الرعية . واحدة السلطان. ولكنها كانت مدنا مستقلة وجزائر منفصلة لا تربطها رابطة حكومية .

وقبل أن تتكون المدينة مرت بنظم حكومية كثيرة فابتدأت بالجنوس génos وهى مجموعة من العائلات لها مذهبها الخاص وطابعها المتميز . وكانت أملاكها واحدة غير مقسمة ورئيسها الاركونت archonte يحكم باعتباره الاب الاكبر

ومن ثم تكونت الفراترى phratri وهى مجموعة عدة جينوس وتجمعت الفراترى فاصبحت قبائل على رأسها ملك يسمى بازليوس Basileus وكان ملكه وراثيا ولطول الحياة وكان يعتبر الكاهن الاعظم والقاضى الاكبر . والقائد الاعلا وكان الملك على عهد هوميروس يحكم وإلى جانبه مجلس من النبلاء gerontés والمستشارين phoroi boulé وجمعية الرجال الاحرار الصالحين لحمل السلاح . ولم يكن الملك يكترث

الى حد كبير باراء هذه المجالس والجمعيات ولكنه كان يستشعر أنه ليس من مصلحته مطلقا أن ينبذ آراءها قطعيا

ثم تجمع الناس فى القرى الصغيرة bourgades (Kômai) ثم اتحدت كل مائة قرية من هذه وكونت للمدينة (Polis) ثم بدأت قوة الملك Basileus تضعف فى اسبارطة , وأصبح فى إمكان النبلاء أن يحملوا لقب Basiléus • وقد كان من اختصاصه دعوة المجالس للاجتماع ولما كانوا يمثلون أقوى عناصر الجيش فقد كان الملك يحسب لهم حسابا عظيما •

ولقد جرب الأثينيون جميع أنواع الحكومات تارة فى ظل السلم والرفاهية وطورا وسط النزاع الداخلى والحروب والويلات وقام على حكمهم الملوك الطغاة ولكن قوة هؤلاء الملوك ضعفت فاجمعت الاسر الكبيرة على الغاء الملكية حوالى عام ١٠٤٥ ق • م وحصروا السلطة فى يد رئيس الحكومة archonte كان يبقى طول حياته • ويظهر أن هذا المنصب كان وراثيا ثم جعل الانتخاب لعشرة اعوام وفى سنة ٧٢١ جعل الانتخاب من بين رؤساء العائلات الاستقراطية وفى عام ٦٨٣ انتخب تسعة أركنه لسنة واحدة •

وأصبحت بذلك الكلمة العليا للاشراف فى أمور الدين والقضاء والحكومة

وقامت بعد ذلك فيها ثورة وتناحر بين الشعب والاشراف وانقسمت الى أحزاب . حزب الجبل والسهل والساحل .

وحوالى عام ٧٥٠ ق ٠م انقضت الملكية من جميع المدن الاغريقية وقامت حكومات الاشراف

ثم بدأت الوحدة الاغريقية تلم تلك المدن بعوامل كثيرة منها اتحاد اللغة والدين . وقيام الالعاب الاولومبية

ثم قام الشعب ثائرا ضد الاشراف واغتصب من أيديهم الحكم وأصبحت الحكومات فى المدن المختلفة ديمقراطية يحكمها الشعب .

وكان أول من سعى لنشر الديمقراطية سولون وأصله شريف وأثرى من التجارة وكان خطيبا يخلب الالباب وشاعرا يسحر القلوب والعقول . فاغتصب الرئاسة .

فلما قام بعث أول قبس من نور الديمقراطية . ووضع اللبنة الاولى فى أساس ذلك الصرح الجبار الذى ظلت الدهور تراوحه بالضعف وتغاديه بالقوة حينا بعد حين حتى أصبح اليوم دينا من الاديان هائلا . لا تزعزعه الصواعق والبروق . فحرر الارض ورفع الحجز عنها كما فعل الفرنسيون فى ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ . وقال فى ذلك شعرا يفتخر فيه وقد أتى بهذا الشعر بلوتارك فى تراجمه قال (إن أرض أثينا كانت بالأمس مقيدة واليوم أصبحت حرة أما المواطنون

الذين اكتسب الدائنـون حق التصرف فيهم فقـد أعيد البعض الى أوطانهم من البلد الاجنبي حيث بيعوا وهاموا على وجوههم زمانا نسوا فيه لغة آباءهم واطلق سراح الاخرين الذين ظلوا فى بلادهم فى أتعس حال من العبودية)

ولقد قال أرسطو عـن سولون (أنقـذ سولون الشعب من العبودية وجمع بمهارته بين أنواع الحكومات المختلفة)

ثم وضع الدستور وقسم فيه السكان الى أربع طبقات حسب الثروة العقارية وقضى على مسألة النسب والاصل الشريف . وفتح مجال الحقوق السياسية والدينية أمام طبقات الشعب وجعل بذلك لجميع الوطنيين الحق فى الاشراف على الشؤن العامة

واعاد لمجلس الشيوخ (الاريوباج) أو المحكمة العليا سلطانها من حيث الرقابة العليا على تنفيذ القوانين واحكام القضاء وتربيـة الشبيبه وحياة الافراد الخاصة .

وقال ارسطو عن دستور سولون فى كتابه (نظام الاثينين) (ثلاثة اصول فى كل ما وضع سولون من نظام كانت فيما يظهر اميل الى تأييد الديمقراطية أولها واحقها بالعناية الغاء ما كانت قـد جرت عليه العادة من تمكين الدائن لخضاع المدين لانواع القهر البدنى والثانى تخويل اعضاء المدينة عامة حق اتهام من أنزل ظلما على أى شخص كان والثالث

حق الاستئناف أمام مجالس الحكم . هذا فيما يقولون مصدر ما حصل عليه الشعب فيما بعد من قوة عظيمة فان جعل الشعب صاحب السلطان على الانتخاب يغدل جعل النظام السياسي خاضعا لأمره

ومن ثم ابتدأ عهد حربي طويل . هائل .حتى أتى عهد بركليس فخول الحكم فى أثينا الى ديمقراطية كاملة وكون مجلسا من خمسمائة عضو منقسمين الى عشرة أقسام كل منها مكون من خمسين رجلا وتتناوب الاقسام العشرة الحكم . وجعل مجلسا آخر لكل الاحرار الحق فى الاشتراك فيه ويجتمع ثلاث مرات فى الشهر وكانت الفصاحة. تلعب دورا هاما فى مثل هذه الاجتماعات

وفى ظل هذه الديمقراطية أينعت المدنية اليونانيـة وظهرت الفنون بأبهى حلل جمالها ونبغ المصور فدياس . وتقدم التمثيل وبنى بالقرب من الاكربوليس مسرح ديونيسيوس حيث كانت تمثل روايات اسكيلوس وسوفوكليس ويوربيدس واريستوفانيس

وقامت بعد ذلك الحرب بين اسبـارطه وأثينا ودامت زمنـا حوالى المائة عام وانتهت بفوز اسبارطه ثم قامت الحرب مع الفرس وظهر بعد ذلك فليب الثانى المقدونى ثم اسكندر المقدونى الاكبر ابنه بأن تغلبت مقدونيا على كل المدن الاغريقية الاخرى فاصبح ملكها فليب . ملكا على الاغريق

وجاء بعده عهد البطالسة وجدهم كان قائدا من قواد الاسكندر

ورغم وجود هذه الملكية فان مجالس الشيوخ والعامة بقيت بعينها.

وأعقب ذلك عصر مظلم

نظام الحكومة عند الرومان

ابتدأ نظام الحكم فى روما بالملكية .

ولقد تأسست روما عام ٧٥٤ ق . م . وتدور حول تأسيسها وملوكها الاول احاديث الخرافات التى لابست العصور الاولى من المدنيات المتقدمة.

ومصادر التاريخ الرومانى مشوشة ومجهولة الى ماقبل المسيح بثلاثمائة عام .

ولقد كان الشعب الرومانى ينقسم الى ثلاث طبقات: الباتريسين وهم الاشراف patriciens والبلبيان plébiens والكليان clients

الباتريسين وهم الاشراف كانوا يتمتعون بجميع الحقوق المدنيه والسياسية

والبلبيان هم جماعة الاحرار الذين ليسوا عبيدا ولكنهم يقلون طبقة عن الباتريسين ويكادوا يكونون الطبقة المتوسطة ومنهم الفلاحون والتجار واصحاب المهن الصناعية والعمال . وانتهت بهم الحال ان تشبهوا بالاشراف والفوا عائلات لهم .

وطبقة الكليان وهم للموالى فقد كان لهم حامى patronu يحميهم ويحكمهم ويدينون له بواجبات يؤدونها . واتفق المؤرخون على ان الطبقة المتوسطه وللموالى كان لها منذ العهد الملكى حق التصويت فى مجالس الاحياء .

وكان الحاكم الاعلاهو الملك . ينتخبه انتخابا مجالس الكوريات(١) وكان الملك هو الكاهن الاعظم ويترأس مجلس الشيوخ ومجالس الاحياء وهو القائد الاعلا للجيش . وقاضى القضاة

وكان مجلس الشيوخ يتكون من ١٠٠ باتريسيين ثم أصبح يتكون من ٣٠٠ بعد ذلك . وكان يعتبر انه مجلس شورى الملك conseil de roi ويروى أنه فى عهد الملك المصلح سرفيوس توليوس Servius tullius تغيرت هذه النظم وقسمت القبائل الى اربعة . وطبقات الشعب الى خمسة . لها جميعها حق الانتخاب . ودفع الضرائب . وقسم افراد الشعب . كل مائة منهم يكونون سنتورى centuries . وكانت هذه السنتوريات اقسام حربيه ثم تحولت الى وحدات سياسية كانت الاصل لمجالس الجمعيات comiees centuriates

ثم أخذت الملكية تضمحل بعد ذلك لما اراد الملك ان يستبد

---

(١) كان لكل ٣٠ حى من احياء رومه مجلس كوريات .

بالأمر وحده وقام نظام ديكتاتورى ينتخب فيه الحاكم مدة منة ثم تدرج الامر حتى انقلبت روما الى جمهورية .

وهنا يختلف المؤرخون فمعظمهم يقول بأنها حدثت على أثر ثورة والمسيو جراندور استاذنا قديما يقول بأنها كانت نتيجة تطور بطيء استغرق زمنا طويلا . والمهم فى الموضوع هـذا انها انقلبت فلا الى جمهورية .

ثم أخذت روما بعد ذلك تشن غارات الحروب أمـدا طويلا جدا . حتى أصبحت سيدة ايطاليا وملكت جميع نواحيها وكان من نتائج هذه الحروب قيـام العراك والنضال بين طبقة الاشراف والطبقة المتوسطة حتى ادى هذا النضال الى تغيير النظام وانقلابها ديمقراطيه بمعنى الـكلمة

عصر الجمهوريه

النزاع بين الطبقات وتطور النظم الرومانيه

كان نظام الجمهورية الرومانية فى اول عهدها نظاما ارستقراطيا لم يكن يتمتع فيه بالحقوق الـكاملة سوى الباتريسيين الذين كانت

لهم امتيازات عديدة.

غير أن الحروب الطويلة أحدثت ازمات اقتصادية اضطرت الباتريسيين لان يتنازلوا للبليبيين عن كثير من الحقوق . وأدى ذلك الى أن الانظمة الرومانية أخذت بالتدريج تتطور تطوراً ذا صبغة ديمقراطية . ومن جهة أخرى فان روما بعد ان زادت فتوحاتها واتسع نظامها لم يعد لها مفر من ان تعدل من انظمتها لتجعلها صالحة لبلاد آخذة فى النمو والاتساع.

وفى عام ٤٩٤ أو ٤٧١ على أقل تقدير أمكن للبليبيين (طبقة الشعب) أن يحرزوا فوزاً عظيما بأن عين قضاة وحكام لهم خاصة ، وهؤلاء اسمهم القضاة : التريبون ، وكان من المحرم التعرض لهم أو ايصال أى أذى اليهم ومن يمسهم بسوء هدر دمه ، وكان عليهم أن يدرأوا عن البليبيين عدوان قضاة الباتريسيين وظلمهم .

جمعيات القبائل البليبية

وفى سنة ٤٧١ كان للبليبيان جمعياتهم الخاصة (كوميسيا بليشى تريبونا) التى كانت تتولى أمر تعيين القضاة البليبيين ثم ازدادت أعمالها فكانت تتولى النظر فى الاحكام المستأنفة فكانت تنقضها اذا تجاوزت الحد الذى نصت عليه القوانين وكان لهذه الجمعيات حق امضاء قرارات اسمها بليبيسيت — كان لها قوة القانون وذلك ابتداء من عام ٢٨٦ وقد جعلت جمعيات القبائل البليبية مثالا ونموذجا لتنظيم

جميع الشعب الرومانى وتقسيمه الى جمعيات وقبائل كوميسيا تريبوتا يصوت فيها جميع أفراد الشعب

وهذه الجمعيات كانت تتولى تعيين صغار الحكام . وكان لها حقوق تشريعية وقضائية (أى كان لها حق سن القوانين والحكم فى القضايا)

قانون الالواح الاثنى عشر

كان من أول ماوفق له التريبون أنهم اجتهدوا حتى حصلوا على قوانين وشرائع مكتوبة بحيث لايمكن لقضاة الباتريسيين أن يلعبوا بها • سميت بالالواح الاثنى عشر لان القوانين حين دونت ملأت اثنى عشر لوحا .

أما القوانين التى فى هذه الالواح فلا يمكن اعتبارها تشريعا كاملا انما كانت عبارة عن حكم وأمثال وقواعد خاصة بالحقوق الشخصية والحقوق الجنائية • بطرق المحاكمة . وبعضها كان عبارة عن تعليمات بوليسية بسيطة

وهذه الالواح وما تضمنته من القوانين وضعت بلا شك تحت تأثير الشرائع الاغريقية • حتى ان الروايات تشير الى ارسال روما

السفراء الى بلاد اليونان وبخاصة الى اتينا حيث قاموا بدرس الشرائع اليونانية أمثال شريعة سولون .

وعلى كل حال فانه مما لاشك فيه أنه بمقتضى القوانين الجديدة التى استنتها روما انتزعت السلطة القضائيه من يد رجال الدين

النزاع بين الطبقات

وتطور الانظمة الرومانية

وقد استمر النزاع بين طبقات الشعب الرومانى بعد سن الشرائع وتدوينها.

الاستيلاء على مناصب الحكومة

لما الغيت الملكية عين بدلا من الملك قنصلان كانا ينتخبان فى كل عام من بين الباتريسيين وحدهم فاحتج البليبيون على هذا الاستئثار. وارضاء لهم تقرر انشاء منصب جديد يجوز لأحد البليبيين أن يتولاه وهو منصب (التريبون الحربى بسلطة قنصل)

وهذا عام ٤٤٤ . وكان لهذا المنصب اسميا ومن الاهمية والخطر مالمنصب القنصل ولكنه كان فى الحقيقةدونه بكثير . إذ كانت أعماله وسلطته موزعة ما بين ستة من الرؤساء . وعدا ذلك فان مجلس الشيوخ حفظ لنفسه حق البت فى هل هنالك داع لتعيين أى قنصل جديد أو أى تريبون حربى بسلطةقنصل فليس بمستغرب والحالة هذه أنه لم يعين أحد البليبين فى هذا المنصب الجديد حتى عام ٤٠٠

وقد جاء فى الاخبار أنه فى هذا العصر ظهر عدد كبيرمن المهيجين سواء من بين العامة أو من الشرفاء ـ حاولوا أن يقبضوا على زمام السلطةمنتهزين فرصة وجود اضطرابات وقلاقل وبعضهم كان يمالى البليبين على الشرفاءحتى يستعين بهم علىحيازة السلطةالمطلقة. وامثال هؤلاء (سبوريوس كاسيوس ٤٨٥ ـ وسبوريوس ما يليون ٤٣٩ ومايليوس كابيتوالا بنوس ٣٨٤) وهؤلاء جميعا قد دفعوا بحياتهم ثمنا لما حاولوه من ممالأة البليبين والتحيز لهم

القوانين الليسينية

لم يكن فى انشاء منصب التريبون الحربى بسلطة قنصل الترضية

الـكافية للبليبين — خصوصا انهم لم يتولوا المنصب الا نادرا

فى سنة ٣٧٦ قدم القاضيان البليبيان (لى نيوس ستولد و (سكـنيوس لا تيرانوس) اقترحا بالغاء ذلك المنصب وبان يكون أحد القنصلين دائما من البليبين . أى من الشعب ثم قدما مشروعا آخر بقانون زراعى يقضى بأنه لا يسمح لاحد ما أن يتولى على كثر من ٥٠٠ يو غيرا (مقياس للارض يساوى ١٢٥ هكتارا) من الاراضى العامة (آجر بوبليكوس)وهى الاراضى التى تملكها الحكومة

وفى سنة ٣٤٢ صدر قرار يلبى (بليسيت) يجيز أن يكون قنصلان — لا قنصل واحد — من البليبين

وتدرج الشعب فى نيل كثير من الحقوق حتى قامت حروب عدة ثم تكونت الامبراطورية ٠

العصور الوسطى

كان النظام السائد فى هذه العصور هو نظام الاقطاعيا

ومنشأ هذا النظام أنه لما ابتدأت ـ ثم كثرت ـ غارات النورمانديين في أواخر القرن الخامس الميلادى وعجزت الحكومات عن صد غاراتهم وفقد الناس الأمن. في ظل هذه الحكومات العاجزة رأوا أن يلجئوا الى أشرافهم ويحتموا بهم . وأجاب الاشراف هذه الرغبة وعمل كل شريف أو أمير على الدفاع عن الجهة التى تدين له بالطاعة وسلح أنصاره. واصبح مستقلا في ادارة بلاده عن الملك أو الامبراطور. يفرض الضرائب ويحصلها ويقيم حدود العدل وهكذا

وورث الابناء هذا النظام حتى استقر وأصبح النظام الشرعى السائد .

ومما ساعد على قيام هذا النظام الحكومى السياسى وجود حياة اقتصادية خاصة تلاءمه

فلقد كان حق الملكية الخاصة غير معروف عندئذ وكان السائد أن الأرض هى ملك الله وان الله قد منحها هبة خالصة للملوك. وهؤلاء الملوك كرما منهم وحسن تنظيم أقطعوها بدورهم الى امراء مملكتهم وأشرافها . وهؤلاء الاشراف لعدم تفرغهم لادارة شأنها الاستغلالى أقطعوها أيضا لكبار الملاك بشروط خاصة تضمن المنفعة للطرفين . وهؤلاء الاخيرون أقطعوها أيضا لفريق من الاحرار يزرعونها ويستغلونها ويوفون لهم قدرا معينا من المال . ويعتبرون

فى الوقت نفسه- بحكم هذه العلاقة الاقتصادية- اتباعهم ثم توارث الابناء عن الاباء الحقوق الاقطاعية على الارض

وأصبح كل من تنتهى اليه الارض يعتبر من فوقه سيدا ملتزما له بواجبات ويرى له عنده حقوقا وهكذا صاعدا الى الملك

وكان السيد على ذلك يحمى تابعه ويقيم حدود القضاء فى الدعاوى التى يعرضها عليه .

وكان التابع يقسم بالولاء لسيده . ويتعهد بمساعدته ومعاداة خصومه ومحاربتهم . ويقدم له منحا ماليه فى ظروف خاصة .

وتفشى نظام الاستقلال المحلى وأصبح كل حاكم أو أمير أو شريف يكون مملكة صغيرة . مستقلة فى كل شئونها الحربية والقضائية والادارية مع الاعتراف - من الوجهة النظرية فقط - بسيادة الملك أو الامبراطور.

وبلغ الملوك من الضعف مبلغا عظيما ولم يعد لهم من جاه السلطة والسلطان غير اللقب البائس مع تملك الاشراف لكل السلطة وتحكمهم فى مال ورقاب اتباعهم . حتى طغوا وبغوا وعاثوا فى اقطاعياتهم فسادا. فسعى الملوك من ناحيتهم سعيا عظيما لاضعاف الأشراف واسترجاع السلطة الى ايديهم

وسمت الشعوب من ناحية أخرى للتخلص من نير الأشراف ومظالمهم

فاجتمع السعيان . واتحدت الرغبتان . وخاصة عندما رأى الشعب تقدير الملوك لهم باصطفاء المستشارين من بينهم وتقريبهم اليهم .

وقام بعد النظام الاقطاعى نظام الفروسيه ولكنه لم يكن الى حد بعيد نظاما سياسيا

وجاءت الحروب الصليبية وبدأ الاشراف يستجيبون لسلطان الملوك الى درجة كبير

وقد قضى على الاقطاع فى القرن السابع عشر ولكنه لم ينتهى إلى نهايته التامة إلا عند قيام الثورة الفرنسية

نظام الحكم فى الاسلام

الاسلام دين وقانون . جمع القرآن وهو دستوره بين تنظيم علاقة الانسان بربه . وعلاقات الانسان بالانسان . فهو كتاب روحى يجمع أوامر الله ونواهيه للانسان ما يكفل له سعادة الدنيا والآخرة . وهو كتاب تشريعى جمع الأحكام والقوانين

التى تقود الانسان وتدفعه فى سبيل حياة توفرت فيها أسباب الرفاهية والسعاده والكمال .

وهو على ذلك الكتاب المقدس الوحيد الذى جمع بين الديانة والتشريع كما أن الاسلام هو الدين الوحيد الذى نظم السبيلين للانسان .

ولقد كانت الحياة العربية قبل الاسلام بدائية . كل قبيلة مستقلة بشئونها تعيش على نظم الحكم الفطرية الأولية . فلما جاء الاسلام جمع القبائل تحت لواء واحد . قادهم فى طريق واحد بشريعة مفردة. وأنت اذا قرأت القرآن خرجت من تفصيل آياته بأن الله إنما يريد بعباده اليسر. وأن الحياة ماخلقت وهيئت فيها الأسباب إلا لنفع الانسان . وخرجت من القرآن أيضا بصورة مثالية عليا لحياة اجتماعية فى منتهى الروعة والكمال متوفرة فيها السعادة الانسانية . ولم تجد فى آياته مايميز إنسانا على انسان وانما ساوى بين الناس أجمعين . وهتف بالمساواة والعدل والحرية والاخاء على ابناء صحراء العرب قبل أن يصيح الهاتف بتلك المبادئ فى أبناء السين فى الثورة الفرنسية .

فليس فى الاسلام أفضليه لإنسان على إنسان آخر إلا بالتقوى . والناس فى سنة نبيه سواسيه كاسنان المشط وحكم النبى

فى أيام حياته كان قائما على التسوية . وعلى العدل.وعلى الشورى فهو يراجع الصحابة ويستشيرهم فيشيرون عليه.فيعمل بما يشيرون اذا لم ينزل الوحى .

وليس فى القرآن مايشير الى تأييد نظرية من النظريات الاستبدادية التى تجعل الحاكم او الرئيس الأعلى ظلاله فى الأرض بل أنه جعل « محمداً » رسوله رسولا قد خلت من قبله الرسل

وهو يأمره أن يقول للناس أنه مثلهم (قل انما أنا بشر مثلكم)

وهو يأمر بالشورى فى كثير من الآيات

ففى سورة آل عمران (وشاورهم فى الأمر)

وفى سورة الشورى (وأمرهم شورى بينهم)

وفى سورة النمل (قالت يأيها الملأ افتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون)

وفى سورة الشعراء (قال للملأ حوله ان هذا لساحر عليم يريد ان يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون)

هذا بعض ما ورد فى آى القرآن

ولقد كان عصر النبى عصر شورى وعدالة ومساواة بل عصر ديموقراطيه كأفضل صورة من أسمى صور الديموقراطيه التى تمخضت

عنهامدنية العصر الحديث . وا نتجبها جهاد الفلاسفة وللمفكرين الاحرار .

وكان النبي يعامل الصغير كالكبير . والغنى كالفقير . والقريب منه كالغريب عنه . ومن والاه كمن ناوءه .

حدث فى وقت ما أن قابل النبي جمعامن عظماء العرب وحادثهم فى شئون الاسلام فجاءه أثناء ذلك رجل أعمى اسمه عبد الله بن مكتوم فاستفسره بعض الامور فعبس النبي وأعرض عنه الى العظماء فجاءه الوحي بقوله تعالى (عبس وتولى أن جاءه الاعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكرفتنفعه الذكرى)

ومما يؤثر عن أن النبي أنه كان دائمايردد « اللهم احينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين »

هذا عن روح القرآن وروح النبي أما عن الحكومة . فيقول الاستاذ على عبد الرازق فى كتابه « الاسلام واصول الحكم » أنه فى عصرالنبوة وما تلاها من عهود الخلفاءلم يكن للعرب حكومة بالمعنى المعروف وينكر ما أورده بعض كتاب العرب عن وجود مثل هذه الحكومة ونحن نؤيد هذا الرأى الى حد كبيررغم أننا استقصينا كثيرا من كتب تاريخ العرب قبل الاسلام فوجدنا أن نظام رئيس القبيلة

كان سائدا فى أكثر القبائل شأن الجماعة الفطرية . وعرفت الملكية فى بعض أقسام جزيرة العرب

وكان نظام الحكومة معروفا بالاقسام الآتية فقط :—

(١) رئاسة دار الندوة ففيها يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الامور

(٢) اللواء فكانت لا تعقد راية الحرب الا بيده :

(٣) الحجابة وهى حجابة الكعبة لا يفتح بابها إلا هو . وهو الذى يلى أمر خدمتها

(٤) سقاية الحاج ورفادته

فوق أن المعقول عقلا أنه لا بد من وجود نظام تسير عليه الجماعة

ولكنها يصدق قول الاستاذ الفاضل الى الحد الكبير لأن حياة العرب كانت فطرية بدائية ليست متعددة المرافق . ضيقة الحدود . فكانوا لذلك أقل الناس حاجة الى حكومة بالشكل المرسوم فى الأذهان .

ولكن للعلم فى الموضوع أن الاسلام جاء بالشورى وأن عصر النبى كان عصر شورى وكانت الخلافة بعد رسول الله أشبه بالجمهورية منها بأى شكل من اشكال الحكومات .

فلقد انتخب أبو بكر انتخابا فوقف بعد تمام البيعة له وقال (. . فاطيعونى ما أطعت الله . فاذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم) ثم بكى وقال (إنى لم أجعل لهذا المكان أن أكون خيركم ولوددت أن بعضكم كفانيه ولئن أخذتمونى بما كان الله يقيم به رسوله من الوحى ما كان ذلك عندى وما أنا إلا كاحدكم فاذا رأيتمونى قد استقمت فاتبعونى وإن زغت فقومونى)

وجاء بعده عمر فكان أقوى الناس عزيمة ومضاء رأى . وكان إلى ذلك أعدل خلق الله وإن عدله لمضرب المثل فى كل عصر سبق أو لحق فعدله خالد على فناء الاجيال . وإنا لنورد مثلين على ذلك:

الأول : أن ولده ارتكب ذنبا — وهو الزنا — فلم يقبل أن يمضيه وحده رجما بيده

والثانى : أن جبلة بن الايهم من اشراف العرب — وهذه قصة معروفة — لطم عربيا فشكاه الى عمر فقضى عمر بان ترد اللطمة بلطمة مثلها وقد كان وفى هذا أجل معنى للعدالة والمساواة.

وعمر هو الذي قام فى الجماعة خطيبا يقول لهم « اذا رأيتم فى أعوجاجا فقوموه » فرد عليه أعرابى قائلا « والله لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناه بحد السيف »

وبعد عمر عقدت الشورى لجماعة من الصحابة انتخب من بينهم عثمان وعقدت البيعة بعد وفاته لعلى . وعقد البيعة هو انتخاب قائم على الرضاء والتفضيل

فهل عرف الناس أعدل من حكم الاسلام أو أشد تمسكا بالشورى من نظمه ومن حكامه؟

إذ تشريع الاسلام تشريع انسانى جليل عادى الظلم . شروع السيف على الطغيان وهتف بالعدل والحرية والمساواة

مراجع الفصل الفائت

Notes sur l' histoire Grecque

Notes sur l' histaire romaine

Histoire romaine : Par P. Gagnol

The Historian's Histony of the world

The Cambridge Modern history

Bodge } The History of ancient Egypt.
Brestead }

الحضارة المصرية لجوستاف لوبون

الامامة والسياسة

تاريخ الامم الاسلامية

The Spirit of Islam

تاريخ التشريع الاسلامى

الفصل الثالث

الدستور الانجليزى

الدستور الانجليزى سلسل تقاليـــد وعهود . لم يصدر به قانون لامن الملك ولا من جمعية وطنية .

فهو بالتعريف القانونى « دستور غير مسطور »non ecrit يعنى أنه يستمد قواعده من العرف الذى اضطرد العمل به فاصبح ثابتا بتوالى استعماله وله قوة القانون .

وليس معنى كونه غير مسطور أنه ليس مكتوبا ولا مدونا وإنما معناه ماقلناه أنه لم يصدر به مرسوم ملكى أو منحة ملكيه ولم تقرره جمعية وطنية . ولكنه على أى حال مكتوب ومسجل فى الادارات التشريعية

على أن الدستور الانجليزى كما سنرى من تطوره التاريخى قد احتوى على جملة قوانين مدونه كالماجنا كارتا سنة ١٢١٥ وقانون بيان الحقوق سنة ١٦٨٩ والقانون المتعلق بالعرش سنة ١٧٠١ وقانون الهابيس كوربيس وقوانين أخرى صدرت مابين ١٨٣٢ و ١٨٨٥

وهو أيضا دستور مرن Soupie يقبل التعديلات والزيادات لأن التعديل فيه من خصائص السلطة التشريعية العادية ولا يحتم نظاما خاصا ولا جماعة خاصة لتعديله .

وانجلترا مملكة ، ملكها وراثى . دستورية برلمانية .

سلطة الملك

عقب الفتح النورماندى أصبح المركز القانونى لملك انجلترا هو مركز صاحب مقاطعة من المقاطعات . وحقوقه لا أكثر من حقوق صاحب مقاطعة . وكان كثير الشبه بملك فرنسا فى ذلك الحين . غير أن الملكية الفرنسية كانت سائرة فى سبيل التطور نحو الحكم المطلق asolutisme . بينما ظلت الملكية الانكليزية قانعة بمحدودة السلطة .

وكان ملك الانجليز يحكم بمساعدة مجلس من « البارونات » ينضم اليه جماعة من الاساقفة .

وفى القرن الثالث عشر حينما ظهر نواب من طبقة الكونتات والطبقة الغنية . والطبقة الأولى تمثل جماعة الاشراف الضعاف قوة وثروة . والذين كان البارونات قد أقصوهم عن ادارة الحكومة . والطبقة الثانية خلقهم الملك إذ كان يبحث من مساعدة

المدن الغنية التي كانوا ينتسبون اليها .

وعلى ذلك فقد النضال الحقيقي بين الأشراف و الملك ، لأن الأخير بدأ يعتز بالطبقة الغنية التي بدأت تملك الثروات الضخمة وإن كانت لا تتصل بحسب عريق ولا نسب مؤثل .

وفي نهاية القرن الثالث عشر كانت العناصر المختلفة للبرلمان قد تكونت وكان النظام قائما على ان كل جماعة في البرلمان تعمل مستقلة وتتداول مع الملك وحده .

وبعد ذلك اتحدت جماعة الكونتات وجماعة الاغنياء كما كون البارونات ورجال الطبقة العالية من الاشراف جبهة منيعة ضد اتحاد الجماعتين . وكان الملك حينئذ يلعب دوره بين الحزبين الجديدين . بما يوحي اليه ضميره أو بما توسوس له نفسه الأمارة بالسوء .

وحوالى القرن الرابع عشر تم تكوين المجلسين الحاليين . مجلس اللوردات من البارونات ومجلس العموم من الطبقات الأخرى وأصبح هذا البرلمان مكتوف اليد ، محدود السلطة بقوة الملكية التي كانت تحد من سلطانه وخاصة في المسائل المالية. وفي القرن السابع عشر تغيرت الملكية إذ قتل ملك وتنازل آخر عن العرش

ولم يفكر الملك الجديد عام ١٦٨٨ فى اثارة عراك مع البرلمان . ورأى من واجبه أن يختار وزراءه من البرلمان .

ولما كان الملك عندئذ يجهل اللغة الانكليزية فقد ضعف نفوذه لأنه لم يكن يشترك فى مناقشات مجلس الوزراء . فلما أعقبه خلفه لم يكن على شيء من النبوغ ولا المؤهلات الكافيه حتى يتمكن من إرجاع السلطة الملكية التى كانت فى دور احتضارها .

وفى القرن السابع عشر نالت جماعتا الهوجز whigs والتورى Tory من الملك حق انتخاب الوزراء جميعا من حزب الاغلبية البرلمانيه وخاصه فى مجلس العموم .

وفى القرن التاسع عشر وخاصة فى أيام الملكة فكتوريا ضعف نفوذ الملكية . واتسع نفوذ البرلمان وأمتد حتى لم يبق للملكية إلا الأثر البسيط التافه وصارت السلطة الحقيقيه فى يد الوزراء الذين كانوا دائما زعماء الأغلبية البرلمانية .

والملك الآن يمثل الامة لأنه يمثل جزءا من البرلمان السلطة التشريعية وسلطته فى الظاهر واسعة جامعة لأن كل القوانين والمراسيم تحمل اسمه ولكن سلطته الحقيقية ضئيلة جدا ودوره يظهر غالبا فى الأزمات السياسية حيث يكون مهدئا . ومخففا وساعيا لتقريب وجهات النظر

والملك كما قلنا جزء من البرلمان أعني من السلطة التشريعية وينعقد البرلمان بناء على دعوته . باستشارة بمجلسه الخاص His Privy Council كما أن انتهاء دور الانعقاد يكون بأمره .

والقوانين المالية بناء على القرار البرلماني سنة ١٩١١ إذا لم يصادق عليها مجلس اللوردات فانها تنفذ إذا وافق عليها مجلس العموم وأقرها الملك .

والملك له حق حل مجلس العموم باشارة الحكومة وله حق تأجيله وله أن ينشأ مقاعد لوردية في مجلس اللوردات لترجيح كفة الحكومة فيه إذا كانت الحكومة حائزة لثقة الأمة ومجلس اللوردات يعارضها

والقوانين لا تنفذ إلا اذا صدق عليها الملك وله أن يستعمل حق الفيتو Veto وهو حق ايقاف التشريع

ولكن هذا الحق لا يستعمله في الواقع مطلقا مهما كان رأيه وكانت مشيئته . وذلك نتيجة تطور تاريخي في التقاليد البرلمانية

فانت ترى اذن أن الملك ليس له في الواقع أية سلطه إلا منبعثه من اراده الوزراء الذين يمثلون الاغلبية البرلمانية وإلا مستمدة من ارادة الأمة

والملكية في انجلترا لهذا السبب ديمقراطية محبوبة جدا من الشعب

السلطة التشريعية

هى الملك كما ذكرنا ومجلس العموم ومجلس اللوردات

مجلس العموم

يتكون من ٦١٥ عضوا لا يقل سن أحدهم عن ٢١ سنه ولا ينتخب عضوا أحد رجال الدين أو موظفو الحكومة ولا متعهدو المقاولات والتوريد للحكومة .

وفى عام ١٩١٨ ابيح للنساء حق الدخول فى مجلس العموم وفى عام ١٩١٩ دخلت أول سيدة عضوا فى لمجلس العموم

ويتناول عضو مجلس العموم مكافأة قدرها ٤٠٠ جنيـــه سنويا . غير أن أعضاء مجلس اللوردات لا يتناولون مكافأة ويمكن لأى عضو أن يرشح نفسه فى أية دائرة شاء ولا يشترط أن يكون مقيما بها

ويشترط فى الناخب أن لا تقل سنه عن ٢١ سنه اذا كان ذكرا ولا عن ٣٠ اذا كانت سيدة . وأن يكون من القدرة بحيث يدفع ايجارا سنويا عن مسكنه فى الدائرة التى يستعمل حقه الانتخابى فيها أو فى التى تجاورها لا يقل عن عشرة جنيهات .

والانتخاب ذو درجة واحدة . والدورة البرلمانيـــه خمس سنوات ولا يجوز استقالة العضو الا للالتحاق بوظيفه ولا

يجوز القبض على عضو فى دور الانعقاد الا فى حالة التلبس

ومجلس العموم له حق اقتراح القوانين حقا مطلقا بعيد المدى سواء أكانت مالية أو غير مالية وقد تقرر فى عام ١٩١١ أن القوانين المالية Money Bills تعرض أولا على مجلس العموم فاذا اقرها ارسلها الى مجلس اللوردات مرة واخرى وثالثة. فاذا مضى عامان على مشروع القانون أصبح نافذا . وكذلك اذا لم يصادق مجلس اللوردات بعد مصادقة مجلس العموم فان القانون ينفذ إذا أجازه الملك .

وهذه الحقوق التشريعية التى يتمتع بها مجلس العموم نتيجة تطور تاريخى .

ولقد أعطى المجلس حق ضرب الضرائب منذ القرن الرابع عشر .

ومجلس العموم يقترع على عدم الثقة بالوزارة وذلك بأحد طريقين إما صراحة أو بعدم التصديق على قانون تعرضه الحكومة وتظهر اهتمامها به . وعندئذ يجب عليها ان تستقيل .

وللحكومة وحدها حق اقتراح القوانين المالية ولاعضاء المجلس حق اقتراح القوانين الاخرى .

ويجب ان يجلس الوزير فى المجلس التابع له ولذلك فهناك

وظائف وكلاء برلمانيين ليجلس الوكيل البرلماني في المجلس الذي لا يجلس فيه وزيره .

ورئيس مجلس العموم اسمه The speaker وينتخب عند إبتداء الدورة . وسلطته تنحصر في حفظ النظام وترجيح الكفة عند تساوى الاصوات في الاقتراع . وقراراته في المسائل المتعلقة بالنظام نهائية حاسمة لايمكن للمجلس ان يعترض عليها .

وتعين الحكومة عند ابتداء كل دور انعقاد «رئيس اجتماع» chairman of Committie ليحل محل الرئيس عند غيابه وينتخب مجلس العموم وكيلا Deputy Chairman ليحل محل ال Chairman عند غيابه

ومجلس العموم ينظر في توفر او عدم توفر شروط النيابة في اعضائه

والفصل في صحة عملية الانتخاب يقوم بها قاضيان من قضاة لندن .

ومجلس العموم هو الذي يتهم الوزراء وموظفي الحكومة الكبار فله حق ال impeachement

مجلس اللوردات

يتكون مجلس اللوردات من ٦٠٠ عضو منهم أعضاء يتلقون

مراكزهم بحكم الوراثة . وبحكم منحهم لقب اللورديه . ومنهم ٢٦ من رجال الدين يعينون طول حياتهم . و ١٦ عضوا ينتخبون من أعيان اسكتلندا وأربعة تعينهم الحكومة من رجال القانون Law Lords ليكون لهم الرأى القانونى عندما ينعقد المجلس بهيئة محكمة

وينعقد المجلس انعقادا صحيحا اذا حضره ٣ من اعضاءه ويجوز لكل عضو أن يوكل غيره فى ابداء الرأى .

ورئيس المجلس غالبا هو وزير الحقانية Lord Chan celler ويرأس المجلس دائما اذا انعقد بهيئة محكمة .

و ليس للرئيس أى حق من الحقوق حتى ولا حق حفظ النظام إلا اذا أذن له المجلس بذلك .

وينعقد مجلس اللوردات بهيئة محكمة فى حالتين:

(١) عند النظر فى محاكمة الوزراء وموظفى الحكومة الكبار.

(٢) عند النظر فى استئناف بعض الاحكام من المحاكم العادية . وهنا يجلس الرئيس مع رجال القانون الاربعة . ولا تستأنف اليه الاحكام الصادرة من محاكم المستعمرات أو الاملاك البريطانية .

وليس له حق اقتراح القوانين المالية ولا تعديلها . وليس لرفضه اياها تأثير من جهة نفاذها .

السلطة التنفيذية

للملك هو الرئيس الأعلا للسلطة التنفيذية وسبق ان ذكرنا اختصاصاته. والسلطة التنفيذية هى الحكومة وعلى رأسها مجلس الوزراء وهى التى تنفذ القوانين والمراسيم وتدير كثيرا من مرافق الدولة.

السلطة القضائية

السلطة القضائية فى انجلترا مثل أعلا للقضاء العادل الحر المحصن وهى فى الواقع سلالة لسلطات قدمت فيها السنون فلمها وشكلتها حسب الحالة الاجتماعية فى كل عصر من العصور. حتى جاءت سنة ١٨٧٣ فأخذ الانجليز يرتبون ويهيئون تقاليدهم القضائية وينظمون المحاكم بشكل جديد على الاساس القديم ويضعون الشروح والاحكام والمبادىء حتى جاء النظام كاملا تاما من كل نواحيه

وليس لانجلترا قوانين مكتوبه محصورة كقانون العقوبات أو القانون المدنى ولكن هناك قوانين للمرافعات دقيقة وللقاضى الحرية فى اصدار الاحكام حرية واسعة. وتقوم المبادىء التى تنطوى عليها أحكام المحاكم وخاصة المحكمة العليا مقام نصوص القانون

فالقاضى وإن كان مقيدا بالتقاليد والاحكام غير أنه فى الوقت نفسه حر يستطيع عند اللزوم ان يتخلص منها ويحكم حسب ضميره

ورأيه ومبدئه وقد يكون حكمه مبدءا جديدا و يسرى بين القضاة تطبيقه •

وهذا بعكس النظم القضائية فى البلاد الاخرى فنحن فى مصر قد يكون للقاضى رأى حر نزيه عادل ولكن لأنه يخالف نصا صريحا فى القانون لا يستطيع ان يحكم إلا بالنص الصريح وان كان جائرا٠

ولعل أهم الضمانات للنظام القضائى الانجليزى هم القضاة انفسهم فهم يعينون عادة من كبار المحامين الذين اشتهروا بالعلم .وحسن السمعة . وهم مستقلون عن السلطة التنفيذية التى لا تملك لهم ترقية أو نقلا أو عزلا أو نفعا ما . فمرتب القاضى يوازى مرتب الوزير ومركزه اثبت من مركز الوزير إذ أنه لا يعزل. وهو يفضله لأن للقاضى معاشا عند اعتزال وظيفته وليس للوزير معاش

وهناك ميزة أخرى للقضاء فى انجلترا إذ انه سلطة مراقبة لكل أعمال السلطة التنفيذية فله ان يجبرها على اداء وظيفتها بشكل معين وان يمنعها عن إجراء ما ليس من وظيفتها كأنها فرد أو مصلحة غير أميرية وحكمها فى ذلك حكم سائر الافراد والشركات فليس لمصلحة أميرية أن تأتى عملا غير جائز قانونا ولا أن تمتنع عن إجراء عمل واجب عليها اداؤه . وتنفذ

المحكمة حكمها بطريقة سهلة جداً وهى حبس كل من يعصى أمرها حتى ينفذ حكمها

والمحاكم فى انجلترا هى المحكمة العليا Supreme court of Judicature . وتنقسم الى محكمتين المحكمة الابتدائية الكبرى ومحكمة الاستئناف وتقسم المحكمة الابتدائية الى عدة دوائر وينتقل قضاة المحكمة الابتدائية ثلاث مرات فى السنة الى الارياف لنظر الدعاوى المدنية والجنائية فى عواصم المديريات فيعقدون فيها محاكم تسمى المحاكم المتنقلة

وهناك أيضا المحاكم الجزئية المدنية وتسمى محاكم للمديريات. وتشكل أيضا محاكم جزئية جنائية فى الارياف من حكام الصلح وفى المدن من قاضى جزئى

وتستأنف أحكام المحاكم الجزئية المدنية والجنائية الى المحكمة الابتدائية الكبرى وتستأنف أحكام المحكمة الابتدائية الى محكمة الاستئناف وأحكام محكمة الاستئناف الى مجلس اللوردات

تاريخ الدستور الانجليزي

يتصل تاريخ الحكم الدستورى فى انجلترا بتاريخ نشوءها . فهى مملكة دستورية منذ فجر حياتها

ولقد ابتدأ التاريخ الحقيقى للشعب الانكليزى الحالى من تاريخ دخول النومنديين الجزيرة عام ١٠٦٦ بقيادة وليم الفاتح . واستيطانهم للبلاد وامتزاجهم مع أهلها السكسونيين ذلك الامتزاج الذى أنتج الشعب الانكليزى الحالى .

ولقد مر الحكم الدستورى بعدة أدوار يمكننا أن نقسمها كما يلى :—

(١) العصر الأول
(٢) العصر الثانى
(٣) العصر الثالث

(١) العصر الاول من عام ١٠٦٦ ـ ١٤٥٠

وهذا مبدأ النزاع بين الملوك والاشراف واتحاد الشعب والاشراف والكنيسة ضد الملك مما أنتج أساس الدستور الانكليزى وهو الماجنا كارتا عام ١٢٥٢

وهذا العصر اضطرد فيه نجاح الشعب ضد الملك وانعقاد البرلمان وتأليف المجلسين .

العصر الثانى من ١٤٨٥ — ١٦٠٣

عصر حكم الاسرة التيودورية وفيه عانى الحكم الدستورى ظلم الملوك حتى ضعف وكاد يتلاشى

العصر الثالث ١٦٠٣ — ١٦٨٨ ثم الى اليوم

هو العصر الذهبى للحكم الدستورى حيث قامت المعارك الدستورية الفاصلة . واستقر الحكم استقرارا متينا ونال البرلمان كل الحقوق

وسنتكلم عن كل عصر من هذه العصور

العصر الاول

قبل الفتح النورماندى

يبتدأ النظام الدستورى والقضائى فى انجلترا بمحكمة كانت تنعقد فى دوننج ستريت أولا لتسمع الدعاوى واستئنافات الاحكام من الاقاليم — وثانيا — لتعطى النصائح للملك فيما يجب قبوله أو رفضه.

من الالتماسات التى يقدمها الشعب اليه . فهى ليست محكمة بالمعنى الدقيق ولكنها مجلس خاص لمستشارى الملك

وعلى ذلك فنشأة النظام الدستورى والقضائى قامت على أساس أن للملك كان يرى وجوب مساعدة بضعة أشخاص له من ذوى النبل أو العقل أو العلم فى مسائل العدالة وحفظ النظام . والحصول على المال لهذين الغرضين .

مجلس ال witan

وبمرور الزمن أصبح هؤلاء المستشارين مندوبين عن جماعات وليسوا من ذوى النبل أو العلم فقط وأصبحوا يكونون مجلسا سمى ال witan . وأول مظهر من مظاهر القوة والحياة لهذا المجلس بدا عندما نال وليم الاول عرشه غصبا بقوة السيف ورأى أن يجعل لهذا الاغتصاب الحربى شرعية بانتخاب من مجلس الويتان witan فطلب منهم ذلك فمنحوه لقب بريطانيا

بعد الفتح النورماندى

واختفى الويتان بالفتح النورماندى ولكن أعقبه المجلس العظيم Great Council أو Gurie regis وكان ينتقيه الملك من أصدقائه واتباعه ويجتمع كالويتان فى مناسبات غير محددة يوليس له

أية سلطان بجانب سلطان للملك وكانت حياته تظهر فى بعض قوانينه التشريعية والمالية فحسب هـذا الى أنه كان يعتبر المحكمة القضائية العليا .

وكان الاشراف يحضرون الى هذا المجلس ليسووا مشاكلهم ويجلسوا اذ أحبوا قضاة فيـه وكان القليل منهم من يرضى بذلك أما أكثرهم فقد كانوا يفضلون البقاء فى مراكزهم على أن يستدعوا فى وقت الحاجة اليهم

وكان على رأس هذا المجلس ثلاثة: القاضى الاعظم justiciar وقد كان بيده شؤون المدالة . والخازن Treasurer وكانت بيده شؤون المالية. والمستشار الاعظم Chancellor وقد كان يرأس ويرعى جماعة السكرتارية والكتبة فى قصر الملك.

وقد كان هنرى الثانى بعقليته الفرنسيـة هو أول من وصل النظام الادارى والقضائى بالمجلس. وقد كان هذا المجلس يرسل بعض أعضاءه فى أنحاء المملكة ليراقبوا عملية جمع الضرائب وقيام المحاكم بأعمالها القضائية .

ابتداء النزاع بين الاشراف والملك

وبابتداء القرن الثالث العشر أخذ كيان انجلترا كمملكة يتم ويقوم بصورة واضحة وقد صحب هذا التكوين ابتداء النزاع بين الاشراف (البارونات) والملك ريشارد حول ما كان يقوم به الملك من امتصاص دماء الاهالى بالضرائب المختلفة .

اول صورة للحياة البرلمانية

والواقع أنه فى عصر هذا الملك بدأ يظهر بصيص ضعيف للحياة البرلمانية التمثيليه فى انجلترا . فلقد كان هم الملك جمع المال وكان هم رجاله أن يهيئوا المال لسيدهم باكبر كمية ممكنة ولذلك فقد ابتدعوا ايجاد جماعة من الاشراف أو من الفرسان Kinghts ليستدعوا فى وقت اللزوم لينظروا فى الاحوال التى يصح فيها جمع الاموال وليس من الواضح إذا كان هؤلاء الاشخاص بالمنتخبين أو بالمعينين .

ويظهر أن النظام ابتدأ بانتخابهم بواسطة العمد فى محاكم الارياف ثم كانوا يعينون بعد ذلك بواسطة نفس تلك المحاكم . على أن المهم أن فكرة التمثيل ابتدأت بقيام هذه الجماعة .

وكانت مهمتهم فى أول الامر قاصرة على تحديد قيمة الضرائب على كل مقاطعة من المقاطعات

ومن تحديد قيمة الضرائب ارتقوا الى الحد الذى مكنهم من النظر فى قبول أو رفض الضرائب .

وفى سنة ١٢١٣ دعى العمد لانتخاب أربعة عن كل مقاطعة ليذهبوا الى الملك ويتحدثوا معه فى شئون الدولة عامة .

وبذلك ابتدأ البرلمان اسما وشكلا

عصر الملك جون ١١٩٩ — ١٢١٦

عندما قام الملك جون بحروبه فى فرنسا بدأ الأشراف يصرحون بأنهم لايقرون الملك على غزواته داخل القارة لتوسيع ملكه على استبداده بهم وطلبه المستمر للمعونة منهم وعمله دائما على جعلهم مفقودى الارادة أمام رغباته ولذلك فانهم بمجرد ابحاره الى فرنسا عقدوا مجلساعظيما فى سانت البانس St. Albans اعلنوافيه تمسكهم بالقوانين التى كانت تحفظ لهم حقوقهم . وقرروا عقوبة الاعدام للعمد أو لموظفى الملك الآخرين الذين يمسون سلطاتهم الخاصة أو الشرعية .

ورجع جون عندما استشعر فى نفسه الضعف لعدم مصاحبة الاشراف له . وقد امتلأ عقله وقلبه ونفسه بفكرة الانتقام منهم وسرعان ماطلب اجتماعه بهم

اجتماع البارونات

فاجتمع البارونات بعد ذلك وحدهم وأقسموا بان يكونوا أمناء بعضهم على بعض وأن يموتوا فى سبيل حرياتهم وتكونت منهم جمعيه league فى سنة ١٢١٤ لمقاومة ذلك الملك الفرنسى .

اجتماع سان ايدمون

وفى ٢٠ نوفبر اجتمعوا فى برى سانت ايدموند Bury St Edmunds حيث قرروا نهائيا للمطالبة بحقوقهم مجتمعة فى سجل خاص in abody وذلك فى البلاط الملكى عند الاحتفال بعيد المسيح . واقسموا واحداً وراء واحد على ان يقفوا فى وجه الملك ويحاربوه لو رفض مطالبهم ويظلوا على مخالفته حتى يجيب مطالبهم باصدار عهد منه اليهم

الملك يختفى و يقفل باب قصره

وعندما وجد الملك نفسه وحيداوقد انكمش حولها الانصار ورأى جبهة الاشراف قوية رجع الى لندن واغلق باب قصره عليه وهناك تجمع البارونات وراء الباب فى مناسبة عيد الايبيافانى Epaphany. واضطروه أن يقابلهم ويستمع الى طلباتهم

ارتعاد الملك

ولقد حاول الملك لأول وهلة أن يصدمهم ولكنهم أظهروا ثباتاً

جعله يرتعد ويصفر جبينه ويعدل عن تهديده الى القول : « بأن ملتمسكم يحوى أمورا من الصعب تحقيقها . ويجب أن تمنحونى مهلة حتى يوم ايستة Easter لأراجع نفسى فأبرر موقفى واحفظ كرامة تاجى »

فاجابوه بأنهم يقبلون على شرط أن يكون الكاردينال لانجتون Cardinal Langton واسقف إيلى Bilshop of Ely ووليم ايرل بيمبروك William earl of Pembroke مستشاريه فى هذا الشأن وأن يجابوا على طلبهم فى اليوم المعين .

اسلحتنا ستتكلم عنا

وفى ذلك اليوم اجتمع البارونات فى ستامفورد فى حشد حربى كبير يبلغ الألفى محارب وساروا فى طريقهم الى اكسفورد حيث كان يوجد الملك . وبالقرب من اكلى Brackley تلاقوا مع وفد الملك حيث قال الاشراف وهم يقدمون لذلك الوفد مطالبهم:

« هذه هى مطالبنا فاذا لم نجب عليها حالا فان اسلحتنا ستتكلم عنا »

ورجع الوفد الى الملك بالمطالب فما ان قرأها حتى صرخ مغيظا :

« ولماذا لم يطلبوا أيضا تاجى ؟ .. قسما بالله لن امنحهم حريات تجعلنى عبدا لهم »

جنود الله والكنيسة

عندئذ اعلن الاشراف أنهم (جنود الله والكنيسة المقدسة) وانتخبوا روبرت فتزوالتر Robert Fitzwalter قائدا لهم وساروا داعين فى البلاد ففتحت لهم أبواب المدن ورحب الاهالى بهم وانضموا اليهم .

انضمام الشعب للاشراف

وكذلك فى لندن عندما وصلوها فى ٢٤ مايو شاركهم الشعب وهلل لهم وصفق . وطالب الأشراف كل متردد أن ينضم اليهم ضد الملك جون الحانث بوعوده

وعلى ذلك ترك الاشراف والفرسان قلاعهم وانضموا الى الشعب والثوار فى لندن

ضعف الملك وتقهقره

عندئذ ارتعد الملك وتحول قلبه الصلد ماء عند ما رأى نفسه وحيدا محوطا ببضعة فرسان ضعاف وأرسل لورد بيمبروك الى الاشراف يخبرهم بأن للملك فى سبيل السلام وحقن الدماء مستعد لمنحهم كل

الحقوق والمطالب وعليهم أن يحددوا الميعاد والمكان فاجابوه: « ليكن اليوم الخامس عشر من يونيه فى رونيميد «ruinnymede»

الاجتماع فى المروج الخضراء

وفى يوم ١٥ يونيه اجتمع الملك والاشراف فى المروج الخضراء على ضفتى التاميز . من ناحية الملك وبضعة أشراف وإن كانوا يتظاهرون بالولاء له وإنما يعمر قلوبهم السرور ويشاركون الاشراف الثائرين قلبا فى جهادهم .ومن الناحية الاخرى جميع اشراف انجلترا. وتقدم الاشراف الى الملك وقدموا اليه طلباتهم فوقعها صاغرا وقلبه يتقد غيظا

وقد كان ذلك هو العهد بعد ذلك الأعظم Magna charta

ثم طلبوا من الملك بعد ذلك أن يطرد الى الخارج كل ضباطه الأجانب وأن يعين منهم خمسة وعشرين عضوا ليكونوا احفاظا للحريات التى منحت وليدافعوا عنها بالقوة فى حالة خرق أى ناحية من نواحى العهد . فاذا لم صلح هذا الخرق حالا فانهم يكونون فى حل من احتلال كل أراضى وحصون الملك وإثارة الحرب ضده .

ماجنا كارتا Magna Charta

العهد الاعظم للحريات The great Charter of Liberties

يعتبر الماجنا كارتا أساس الحرية الانجليزية

وقد كان على هيئة مجموعة قوانين فى لغة سهلة يتضمن المبدأين الآتيين :

( ) حصر أو تحديد ما يدعيه الملك من حقوق إقطاعية ومنع سوء استعمال تلك الحقوق.

(٢) تعريف الحقوق العامة للاشخاص الاحرار التى كانت لهم بمقتضى قوانين قديمة أهملت أو نبذت

وقد حد هذا العهد من سوء استعمال الملك لطريقة جمع المال باسم نجدات reliefs أو إعانات كما شمل تنظيم حالات الوصاية على القصر والزواج الذى كان يعقده الملك لغاياته وحقوق الارامل . . . الخ

وأعاد بعض قوانين تخفيض ايجار الاقطاعيات .وكان الملك قد أساء استعمالها كما قرر فرض ضرائب على أملاك التاج . وقرر أيضا وجوب موافقة المجلس عند منح ولى العهد أى لقب أو أملاك وعند زواج ابنة الملك. كما حد من حق الملك فى منح رتب الشرف وجمع بدل الخدمة Scutage

كما أنه شمل حماية الاهالى من المضايقات الغير مشروعة التى كان يقوم بها اتباع الملك والتى كانوا يكثرون منها عند سلب المؤن للملك. وكذلك حرمهم من حق أخذ الضباط حاجيات الملك المنزلية

منهم قسرا .

على أن هذا العهد لم يشمل رغم كل ذلك أى حق للعبيد أو فلاحى الاقطاع Serfs ولا انصاف العبيد Villeins

وقد اشتمل العهد على نظام جديد للحكم. منه ماجاء بالمادة الثانية عشر (لا تفرض أى ضريبة أو معونة مالية على أحد من المملكة إلا بموافقة مجلس الدولة الاستشارى العام)

كما جاء أيضا فى الماده التاسعة والثلاثين — وهى أشهر مواد العهد — (أنه لا يجوز القبض على رجل حر أو حبسه أو تجريده من حقوقه المدنية أو نفيه أو الحاق أى أذى به او محاكمته إلا بمقتضى محاكمة قانونية يقضى فيها الاشراف باعتبار أن كل شريف له حق محاكمة أتباعه على مقتضيات قانون البلاد.

ولا يجوز بيع أو منع أو تأجيل أى حق أو أى اجراء من اجراءات العدالة الا بمقتضى القانون وقد كانت الرشاوى للقضاء شائعة فى ذلك الوقت وبذلك حفظت الحياة والحرية والملكية للافراد والشعب

ولم يعد بعدئذ من المستطاع حبس أى انسان دون محاكمته ولا فى استطاعة أحد شراء العدالة فوضع بذلك حد للرشاوى التى كان يستحلها القضاة . لا لأنفسهم فقط ولكن للملك أيضا

ولقد خلف بارونات هـذا العهد تراثا مجيدا أمكن لمن خلفهم سواء من الاشراف أو الشعب ان يصلوا به الى نصر الحرية ذلك الانتصار العظيم الخالد

ولقد قال هالام Hallam اعظم مؤرخى انجلترا (ومن هذا العهد خلقت فى الشعب الانجليزى روح جديدة

وانغرست هـذه المبادىء فى تربة انجلترا كما انغرس شجر الانكيرويك على ضفاف التاميز واعتدل فينانا عندما وقف بجانبه جنود الله والـكنيسه المقدسة ولا زال يحمل اوراقه الخضراء الى الآن .

والعهد يشمل ٦٣ بندا وقد بدأ بهذه الـكلمات:

(مرجون — ملك انجلترا ببركة الله — ولورد ايرلند ورون نورثماندى وا كيتين وكونت انجو إلى اساقفته ومطارنته وابرلاته وباروناته . وقضاته وحراسه وعمده ومحافظيه وضباطه والى كل رعاياه الامناء

الآن انتم يامن تفنون معنا فى حضرة الآله حيث عبودية ارواحنا وارواح اجدادنا واحفادنا نقرر باسم الله وفى سبيل تقدم الـكنيسة

للمقدسة و اصلاح دولتنا باشارة الآباء والمحترمين ... اعلان العهد الآتى .)

ويتبع ذلك المبادىء الثلاثة وستون

بعد صدور العهد

دسائس الملك

أخذ جون بعد انفضاض الاشراف وهو فى حصن وندسور يجمع حوله بعض الاجانب ويجعلهم ينتشرون فى البلاد يثيرون الشعب ضد العهد ويجلبون له جيوشاً من القارة . ولقد بلغ به الحنق والغضب ان روى بعض المؤرخين انه كان فى حالة جنون تامة .

وارسل الى بعض انصاره ليستعدوا ويكونوا على أهبة القيام بجانبه .

جبنه

وقد راجعه فى ذلك جماعة من الاشراف فاجتمع بهم فى ونسترو وضلك مؤكدا لهم ان شيئا من ذلك لم يحصل وأنه مستعد لتنفيذ العهد الذى اصدره .

وأخذ بعد ذلك يقوم بمناورات حتى عرف الاشراف ان آلاف

الجنود تتسرب من القارة الى انجلترا فقام احدهم دالبينى D' Albiney على رأس جيش وحاصر قلعة الملك ناروشستر ثم بعد أخذ نورد رفع الحصار عنها .

وفى هـذا الوقت اعلن البابا غضبه على البارونات الذين قاموا فى وجه للملك « الذى حمل الصليب » !

واتفق ملك اسكوتلندا اسكندر alexander مع البارونات وتخطى الحدود وعندئذ قام جون على رأس جيش من نوتنجهام وسار الى يوركشير يحطم كل مايلقاه فى طريقه. ويحرق المنازل والبلاد ويذبح هو وجنوده الاجانب افراد الشعب الانجليزي . حتى تملك ناصية الحال وأخذ يستولى على قلاع الاشراف ويعطيها للاجانب. وقد رجع ملك اسكتلندا عندما تحقق له عجزه عن مصادمة جون وقد فكر أيضا البارونات فى استدعاء البرنس لويس ابن فيلب الاكبر ملك فرنسا للتخلص من خطر ملكهم ثم استدعوه فعلا وجاء وساعده البارونات حتى هزم جون ولكنه بعد ذلك بدأ يسىء الى الانجليز ويقطع الارض ويعطى القلاع للفرنسيين. فشعر البارونات بخطأهم فى الاستعانة بهذا الاجنبى وانضم اكثرهم بعد ذلك الى جون . وحملوا على لويس حتى ساء مركزه وفى هذه الاثناء مات جون وخلفه ابنه هنرى الثالث وفى عهدة اندجر لويس فيليب

هنرى الثالث ١٢١٦ — ١٢٧٢

فى ابتداء عصر هنرى الثالث انقصت مواد العهد الاعظم الى ٤٣ بندا وحذفت المواد التى كانت تتعلق بشئون عصر الملك السالف كما حدثت فيه تعديلات اخرى بين زيادة لحقوق الملك بين وميزات كسبها الأشراف

واجتمع البرلمان فى سنة ١٢٤٤ فنال الاشراف حق تعيين القاضى الاعظم والخازن الاكبر ولما طلب منهم الملك اعانات مالية سمحوا له بمبلغ ضئيل

اكبر شحاذ فى انجلترا!

وأخذ هنرى بعد ذلك يعتبر اجتماع البرلمان كاجتماع لعصبة من اعدائه فكان اذا احتاج الى المال لا يلجأ الى عقد البرلمان وانما يقوم بنفسه بشحاذته حتى لقب بانه اكبر شحاذ فى انجلترا!

وضج الاشراف من هذا المسالك ونصحوه مرارا ان يقلع عن ذلك وهو يأبى

اجتماع أعضاء البرلمان مسلحين

وفى ٢ مايو سنة ١٢٥٨ اجتمع البارونات فى وستمنستر ودخل عليهم الملك وهم مدججون بالسلاح شاهرو السيوف فقال لهم « أترانى

أسيرا ؟ » فاجابوه « كلا ولكن تبذيرك الفظايع ورعايتك للاجانب جعلا حالة البلاد بائسة . شقية وكل ما نريده ان توضع مصالح الحكومة فى يد مجلس من الاشراف والاساقفة لكى يقتلعوا جزور الفساد ويصدرون قوانين صالحة »

فوعدهم بالنزول على ارادتهم

البرلمان المجنون

وفى ١١ يونيه اجتمع البرلمان الذى سماه انصار الملك بالبرلمان المجنون The mad Parliameut فى أوكسفورد ومع كل واحد منهم أتباعه مدججون بالسلاح لان الملك كان قد نكث وعده ولكنه ازاء هذا المظهر المسلح جبن واجاب مطالبهم وتألف المجلس من ٢٤ عضوا .

أدوار الاول ١٢٣٩ — ١٣٠٧

تأكيد العهد الاعظم

امتلأ عهد هذا الملك بالحروب مع البلاد الاجنبية والثورات فى اسكوتلندا

وكان ادوارد قليل التمايم مع الاشراف حتى اجتمعوا به وطلبوا منه تأكيد العهد الاعظم فراوغهم أول الامر وكان يهرب منهم فتبعوه وأرغموه على تأكيده

وفى هذا العهد عظم عدد أفراد الجماعة الذين كانوا يعملون مع الاشراف وليسوا منهم وانما من الشعب

ابتداء البرلمان

وبدأ يتكون مجلس العموم The house of common كما تكون مجلس اللوردات من البارونات والاساقفة . على أنهم لم يكونوا منفصلين وانما كانوا يجتمعون قسمين فى المجلس الاعظم

وفى عام ١٢٦٥ اجتمع البرلمان على هيئة مثلى تامة ولكن لم يتم له الشكل الذى لايزال عليه الى الآن فى عام ١٢٩٥

حقوق الشعب

وقد خلا عهد ادوارد الثانى والثالث من ثورات دستورية أو مصادمات بين الملك والبرلمان سوى أنه فى عهد ادوارد الثانى أصبح لنواب الشعب حق للمشاركة فى اصدار القوانين الخاصة بالمصلحة العامة بواسطة الالتماسات التى يقدمونها

وسوى أن عناصر البرلمان المختلفة تكونت تماما واتصلت بعضها ببعض اتصالا دستوريا وأخذ كل عنصر منها يتفهم ويحفظ حقوقه وامتيازاته

وتكون فريق الشعب Commons تماما وأصبح عنصرا مهاجدا

فى البرلمان وبانعقاد برلمان سنة ١٣٧٦ أصبح له كل حق فى اصدار القوانين كلها.

وقد خلت عهود الملوك هنرى الرابع والخامس والسادس وادوارد الرابع والخامس من أحداث دستورية.

العصر الثانى

الاسرة التيودورية ١٤٨٥ — ١٦٠٣

عصر الحكم المطلق

عقب انتهاء حرب الوردتين تولى الملك «رتشرد الثالث» سنة ١٤٧١ وكان قاسيا يستهين بالدماء والارواح حتى أنه قتل ولدى أخيه «ادوارد الرابع» فضج الشعب من حكمه. ومن ظلم هذا الحكم فلما قام «هنرى السابع» ينازعه الملك انضم الشعب اليه فانتزع الملك ورقى العرش وألف الاسرة المالكة وسماها الاسرة التيودورية نسبة الى جده «اون تيودور».

وعند ابتداء حكم الاسرة المالكة الجديدة كان للشعب الحقوق الآتية تحد من حق الملك

(١) لم يكن للملك أي حق فى فرض ضريبة ما إلا باقرار البرلمان

(٢) ولم يكن له أيضا أى حق فى اصدار أى قانون خاص أو عام إلا باقرار البرلمان .

(٣) كان من المحرم قطعا سجن أى شخص إلا بناء على محاكمة عادلة واجراءات صحيحة

على أن عدم القضاء قضاء تام على النظام الدستورى يرجع الى الاسباب الآتية :—

(١) لما كانت البلاد الانجليزية مفصولة عن الممالك الاخرى بالبحار لم تكن ثمة حاجة الى وجود جيش للدفاع عنها وبذلك فقد الملك سلاحا قويا كان يمكنه شهره فى سبيل مد سلطانه وتضخيم قوته

(٢) كان هنرى السابع وخلفه هنرى الثامن يحرصان على التمسك بقوانين البلاد ظاهرا فلم يعبثا بأنظمة البرلمان أو يمحوا شيئا منها . بل سعيا الى جمع السلطة فى ايديهما من طريق الاستبداد بالاعضاء ورشوتهم فانحطت حالة البرلمان مؤقتا ولكنه بقى حيا

(٣) كان مجلس اللوردات (وهو أكبر مناهض لسلطان الملك فى القرون الوسطى) قد ضعفت شوكته ونقص عدده الى ٢٩ عضوا عام ١٤٨٥ لفناء معظم الاشراف فى حروب الوردتين . فلم يكن فى استطاعة مجلس الامة أن يقوم وحده بمناوءة الملك فخضع لنفوذه . إذ لو كان ناصبه العداء لكان فى ذلك الضربة القاضية عليه

وكان البرلمان فى هذا العصر يتكون من :

(١) جماعة اللوردات اصحاب الثروة الواسعة

(٢) الاساقفة

(٤) كانت المحاكمات علنية . وكان يجلس فى كل محكمة اثنى عشر محلفا

(٥) كان ضباط الملك وحاشيتــه يخضعون للقضاء معرضين للمحاكمة الجنائيه ودفع قيمة ما يسببون من الضرر وما كان لهم أن يدافعوا عن أنفسهم فى مثل هــذه الحالات بأنهم كانوا ينفذون أوامر الملك

وسنرى ما كان من أمر كل ملك من ملوك هذه الاسرة على انفراد مع البرلمان انما نقول اجمالا عن عصر هذه الاسرة أنه كان عصر الحــكم المطلق فى انجلترا .

لم يقض ملوك التيودور على البرلمان قضاء المحو والاعدام . ولــكنهم قووا نفوذهم وأضعفوا نفوذ البرلمان الذى ظل قائما ضعيفا مشلول الحركة. وكان الملوك يقاومون الاعضاء بالقوة حينا و بالرشوة فى حين آخر

وقد ساعد على وجود هذه الروح فى الملوك التيودور ما كان سائداً فى هذا العصر فى العالم كله من الحــكم المطلق واندثار الحياة الدستورية ففى فرنسا كان البرلمان عليلا يردد آخر أنفاس الحياة حتى كانت سنة ١٦١٤ فودع الحياة وداع الموت . الى أن نشر من قبره بعد مايقرب من مائتى عام . وفى اسبانيا قضى شارل الخامس ومن بعده فيليب الثانى على حقوق الشعب الدستورية

(٣) طبقة الكونتات وهم الاشراف الاقل ثروة وجاها من اللوردات

(٤) تمثل الطبقة المتوسطة التى أثرت واشترت كثيرا من الاراضى فاصبحت صاحبة معظم الثروة الحقيقية

وكان الفريقان الاولان يمثلان مجلس اللوردات والفريقان الثانيان يمثلان مجلس العموم

عصر هنرى السابع ١٤٨٥ — ١٥٠٩

هو أول ملوك التيودور

وقد اجتمع بالبرلمان لأول مرة فى يوم ٧ نوفمبر سنة ١٤٨٥ فلما خطبه احدهم رد عليه الملك قائلا:

« لقد نلت عرشى إرثا حلالا صحيحا . وبارادة الله العادل الذى نصرنى ومنحنى الفوز على اعدائى فى ميدان الوغى » ثم اردف ذلك قائلا :

« ولكل شخص ان يتابع تمتعه بحقوقه . إلا أن يسىء الى الملكية — ولو كان عضوا بالبرلمان — فلا شك أنه ملاق جزاءه »

ثم انعقد البرلمان فاذا كثير من اعضائه كانوا قد ماتوا فى الحرب الاهلية كما أن بعضهم كان قد سلبه الملك السابق حقوقه المدنية فلم يعد لهم الحق فى الجلوس فى المجلس التشريعى .

فاستشير الملك فى ذلك فاشار بتعيين كثير من الاعضاء الجدد وأمر باعادة الحقوق المدنية لكل من حرمه اياها الملك السابق . فرجع الاعضاء الى مجالسهم وكان منهم دوق بيدرفورد وبو كنجهام سمرست وبومنت وويلز وكليفورد ومار كيز دورست وإيرل أوكسفورد وغيرهم .

ثم أخذ بعد ذلك يجمع السلطة كلها فى يديه من ناحية ومن ناحية أخرى أخذ يعمل على اضعاف نفوذ الاشراف

ولكى يجمع السلطة فى يده عمل على حسم كل نزاع بين أسرته (لنكستر) واسرة (يورك) وبدأ يفكر فى أن يتزوج اليزابيث من اسرة (يورك) . ولكى يضعف نفوذ الاشراف اتخذ طرقا شتى منها منعهم من وضع شارات الشرف باسمهم على ملابس خدمهم واتباعهم وغير ذلك .

ولكنه منح العفو التام لاتباع ريشارد الثالث — ورفض الدورة البرلمانية على ان يدعوهم حين يريد هو .

وفى سنة ١٤٩٥ دعا هنرى برلمان انجلترا وايرلندا للانعقاد تماما فى البرلمان الايرلندى فقد طلب الاعضاء بعض حقوق للشعب كما طلبوا تطبيق بعض القوانين التى صدرت فى انجلترا فمنحوها كما منحوا أيضا حق العفو عن ايرل كيلدار kuldar وفى البرلمان الانجليزى صدر قرار بارجاع الحقوق المدنية لاكثر من واحد وعشرين شخصا كانوا قد ناصروا احد منازعى العرش واسمه ايرل ورك كما جعلهم الملك فى مقابل ذلك يوافقون على قانون يقضى بمعاقبة كل شخص يمتنع عن دفع الرسوم أو الضرائب او يمتنع عما يطلب الملك من المنح !

ولم ينتهى حكم هنرى السابع حتى كان البرلمان قد فقد كل نفوذه وأصبح طوع ارادة الملك . وحتى فقد الاشراف كل قوة لانهم من الاصل كانوا قليلين وضعفاء لفناء اكثرهم فى الحروب التى سبقت هنري السابع .

ويقول دافيد هيوم — وهو من اعظم مؤرخى العالم وأصدقهم — إن الملك قد تغلب فى هذا العصر على البارونات ولم يكن اعضاء مجلس العموم قد فكروا فى ان يرتفعوا من مراكزهم الوضيعة ليناهضوا الملك .

وقد امتدح لورد باكون القوانين التى اصدرها هنرى

السابع ووصفها بانها كانت فى صالح الشعب وانها تمتاز كثيرا عما كان يصدره المشرعون الأقدمون . ولكن يلاحظ أنه من الصعب على الملوك المستبدين أن يصدروا قوانين يمكن أن يطبق عليها وصف اللورد باكون لذلك فليس من الصعب ان ننكر مثل هذا المديح لقوانين هنرى السابع خصوصا اذا لاحظنا أن كل ما كان يصدره من قوانين انما كان الغرض منها خدمة مصلحته على انقاض الارستقراطية المحطمه . وليكن مثل ذلك قانون الغرامات The Statue of Fines فان هذا القانون كان الغرض الوحيد منه هو ملء الخزائن الملكية بالمال »

هنرى الثامن ١٥٠٩ — ١٥٤٧

كان عهد هنرى الثامن عهد حروب مع فرنسا واسكتلندا ومصادمات مع البابا والكنيسة .

وكان الملك يدعو البرلمان احيانا ليأخذ منه إقرارا بالضرائب التى كان يفرضها ويجبيها بشراهه وقسوه . متعللا بالحروب التى كان يثيرها باستمرار.

ثم قضى البرلمان زمنا طويلا فلم يدعى منذ ١٥٢٣ حتى ١٥٣٩ حيث انعقد حوالى سبع سنوات

وكان سبب دعوته أنه لما قام النزاع جديا بين هنرى والكنيسة وأعان انفصاله عنها بسبب مسألة زواجه من آن برلين احتاج لاقرار البرلمان هذا المسلك فدعاه فأقره على ما فعل .

وقد كان توماس مور الشاعر العظيم أحد أعضاء المجلس وكان معارضا لسياسة الملك الاقتصادية والدينية فكان جزاؤه القتل.

ولم يكن لأعضاء البرلمان فى أيام انعقاده من عمل غير الموافقة على ما يطالب الملك فأصدروا مراسيم بمعاقبة مزيفى النقود وبوجوب بيع الأطعمة بأثمان معقولة ! وبأن التجار يجب أن يربحوا فى تجارتهم ربحا مناسبا !!

وعلى ذلك فقد كان البرلمان فى عهد هنرى الرابع هو الآلة التى يطحن بها هذا الملك الظالم الشعب الانكليزى ويقول هالام Hallam « إن ضعف البرلمان بل مظهر العبودية منه فى ذلك الحين جعل الملك يوسع نفوذه بشكل لايتصور »

ادوارد السادس ١٥٤٧ — ١٥٥٣

وكان هذا الملك صغيرا فكان الوصى عليه خاله إرل هر تفرد « دوق سمرست » ثم تعين بعده دون (نرثمبرلند)

ويمتاز هذا العصر بدخول الاصلاح الدينى فى انجلترا وبدأ انتشار المذهب البروتستنتى .

وكل ما عرف للبرلمان من أثر فى حكم هذا الملك الفتى أنه اصدر عند اجتماعه سنة ١٥٥٣ منشورين يحرم فيهما استعمال أى كتاب دينى غير الكتابين الذين صدرا على المذهب البروتستنتى فى ذلك الحين ثم قانونا بمعاقبة من يقصر فى أيام الصوم fast days of lent بدفع غرامة قدرها ١٩ شلن وبالحبس ١٠ ايام وعدة قوانين اخرى تتعلق بالمسائل الدينية

مارى ١٥٥٣ — ١٥٥٨

وقبلها تولت الملك جان عشرة أيام ثم تركته لمارى

وتقضى عهد هذه الملكة فى خصام مع الشعب حول قرانها من فليب الثانى ملك اسبانيا . ورغم أن عهدها ملىء بالمظالم و المذابح الدموية فان البرلمان كان يغط فى النوم العميق !

اليزابيث ١٥٥٨ ١٦٠٣

كانت اليزابيث محبوبة من الشعب. وقد عملت كثيرا على توطيد الحالة الدينية . وشايعت حركة الاصلاح .

وقد انعقد البرلمان فى عهدها الأول مرة فى عام ١٥٥٩ ليقرر اعطاءها لقب حاكمة الكنيسة العليا Supreme Governess of the Church وقد عارض الاساقفة فى مجلس اللوردات فى منح هذا اللقب ولكن اعضاء مجلس العموم اكتسحوهم باصواتهم

ولم ينفض البرلمان هذه المرة إلا بعد أن منح للملكة الحق فى أخذ ضريبة معينة على أثمان العقارات والمنقولات ولما قام خطيبهم يدعو الملكة الى الزواج فى جلسة من جلسات البرلمان ردت عليه رافضة هذا العرض زاعمة أنها « مشغولة بمهام ملكها الواسع وأن ملكة مثلها يعوقها الزواج عن النظر فى أمر المملكة ومع ذلك فهى قد اتخذت انجلترا زوجا لها تعنى به كما تعنى بالزوج » ثم أرتهم خاتم الملك على اعتبار أنه خاتم الزواج

وفى ٢٤ اكتوبر سنة ١٥٩٧ لما اضعفت مالية المملكة حروبها مع اسبانيا دعت البرلمان حيث وقف المحامى يلفرتون Yelverton مقرر البرلمان فقال لهم

« لقد كانت تقوم الحروب فى أوروبا من أجل الاستيلاء على بضعة مدن صغيرة ولكن الحرب الحالية تقوم لان اسبانيا والبابا يحاربان ديانتنا وحريتنا واستقلالنا .

و لقد جاهدت المالكة كثيرا حتى اضطرت الى بيع أملاك التاج وهى بعد ذلك فى حاجة الى المال »

فقرر لها البرلمان فورا ثلاثة اعانات مالية

وفى هذه الدورة شكا اعضاء مجلس العموم أن مجلس اللوردات يتلقى رسائلهم واعضاءه جلوس وعلى رؤوسهم قبعاتهم . فرد عليهم مجلس اللوردات بانه لا العادة ولا العرف البرلمانى قضيا بمثل الاحترام الذى يطلبونه . وحدث أن ارسلت بعض مشروعات القوانين من مجلس اللوردات على مجلس العموم مكتوبة على ورق parchment فقال أعضاء مجلس العموم بوجوب أن يكون ذلك على الورق العادى وشكوا من هذا التصرف .

وأرسل أعضاء مجلس العموم الى الملكة يشكون من مساوىء الاحتكارات ويعرضون عليها أمر اصلاحها . فردت عليهم بأنها تقدر شعورهم ولكنها لا تظن أنهم يعملون على سلب أنفس جوهرة فى تاجها وأنضر زهرة فى حدائقها بسلب هذه الاحتكارات . وأن الأولى بهم أن يتركوا التصرف فى هذا الشأن لها فلم يرد المجلس جوابا على ذلك .

وفى ٢٧ اكتوبر سنة ١٦٠١ دعت البرلمان لتطلب منه

لامـداد بالمال للحرب الايرلنـدية فقرر البرلمان لها أربعة اعانات امالية

على أنه رغم هذه الموافقة فقـد ارتفعت أصوات الاحتجاج من كل نواحى البرلمان ضد نظام الاحتكار

وكان بمقضى الاحتكارات التى تراها المملكة من حقوقها أن تعطى ورقة منها لاحد أتباعها يكون له الحق بمقتضاها فى بيع أى قطعة من أملاك الاهالى. فلما ارتفع الصوت فى البرلمان بالغاء هذا النوع من الاحتكارات التى اثقلت كاهل الاهالى، رد الوزير أنه من امتيازات الملكة وأنه قد سبق أن ترك لهـا الحق فى النظر فيـه وانها انما تستعمله للصالح العام .

وبموت اليزابيث انتهت الاسرة التيودوريه وانتهى معها ذلك الحـكم المطلق الممقوت . وانقضى عهد ضعف البرلمان بل موته . فلقد كانت أشبه بالآلة التى تطحن ارادة وجهود الشعب يحركها الملك بيديه !

اسرة ستيوارت

جيمس الاول

يعتبر عهد اسرة استيوارت من أهم — أن لم يكن أهم — العصور التاريخية التى مرت بها حياة انجلترا .

فلقد بدأ وطال النزاع بين الشعب والملوك . وقامت الثورات المسلحة وتكونت اخيرا حقوق الشعب الذى تعلق بالديمقراطية وبالحياة الدستورية واستمات فى المطالبة والتعلق بهما حتى فازفوزا لم يعتوره شىء من الانتقاص بعد ذلك . وأصبحت الآن بعد الجهاد العنيف أرقى الأمثلة للمملكة الدستورية الديمقراطية وأصبح عرشها أحب العرش الى الشعب وأقربها الى القلوب وأدناها اتصالا بها

ولقد كان هذا العهد فى ممالك اوروبا عهدا مظلما . تسلط فيه الملوك تسلطا مطلقا خاليا من كل تقدير أو رحمة وكان الرأى السائد عندئذ أن الملوك هم ظل الله فى الارض وانهم يحكمون بمشيئته هو . و بكلمته لا بمشيئة الشعب ولا أحد آخر وعلى الشعب على ذلك ان يخضع مهما لاقى من عسف أو جور .

وقد تولت اسرة التيودور بعهدها الانكد المشؤوم الذى ضربت فيه على الشعب حكما مطلقا جائرا وأفنت ارادة البرلمانات المختلفة فى ارادة الملوك من أفرادها

وجاء عصر استيوارت فبدأ الحال يتغير غير الحال . والشأن يتبدل شأ نا آخر فانه لم يكن طبيعيا أن يظل البرلمان ممثل الشعب ميتا الى الأبد بجانب الملوك الطغاة . وعلى ذلك فقد تجدد فيه — كما يتجدد فى كل شعب تعتوره فترة خمول — شعور بالحاجة الى الحياة الحرة .

ولما كان جيمس الأول أول ملوك اسرة استيوا. ت غير محبوب من الشعب وكان يميل الى الحكم الاستبدادى ويكتب فى تمجيده وكان الى ذلك سىء الخلق ضعيف التفكير فقد بدأ اعضاء البرلمان يظهرون الكراهية له بأن أعلنوا له لأول عهدهم به بأنهم يريدو نه على أن لا يستمع الى تقارير خاصته وانما يجب أن يتلقى الاخبار عن البرلمان فقط — اعنى عنهم هم — وأعلنوه أيضا أنهم سيصرحون بارائهم دائما بكل حرية وصراحة بدار البرلمان . وقد أقرهم على ذلك ولو أنه أعقب اقراره بالاحتجاج عليهم على بعض تصرفاتهم فى المجلس بصدد بعض القوانين العدائية التى كان يصدرها وقد عدوا ذلك منه تعديا على حريتهم فعقدوا مجلسا للنظر فى هذا الشأن وفى تداخله فيما يقدم اليهم

من ملتمسات غير أنه اقرهم أيضا على ماقرروه بهذا الشأن متراجعا عن مخاصمتهم .

على أن هـذا الملك لم يلبث أن هدم ركنا عظيما من أركان الدستور الانكليزى بفرض ضرائب على بعض الصادرات والواردات دون موافقة البرلمان مع أن المقرر من زمن بعيد أنه لا يمكن فرض ضرائب جديدة على الشعب إلا بموافقة البرلمان وقد احتج على ذلك ولكن الملك تعلل بأن هذه الضرائب انما فرضت للصالح العام على أن ذلك لم يمنع أعضاء البرلمان من أن يقفوا فى وجهه وقفة قوية بشأن هـذا الموضوع الدستورى الهام .

وفى عام ١٦١٠ قاموا أيضا فى وجهه لا بخصوص هذه المسألة فقط وانما ليفهمونه أيضا أن هناك قوة أعلا من قوته لها الشأن والامر وتلك هى قوتهم . ولما كان هو قد دأب على اصدار قرارات فى قوة القانون فقد اعلنوه « بأن الشعب الانكليزى فى حل من أن يخضع لقوانين تمس حياته أو أمواله دون أن يكون البرلمان هو صاحب الشأن فيها » .

وكان بعد ذلك كلما طلب منهم بعض الاعانات طلبوا منه تخفيض المقررات فعيل صبره وحل البرلمان فى عام ١٦١١ بعد أن أمضى سبع سنوات منعقدا .

وظل يحكم وحده حتى سنة ١٦٢١ فدعا مجلسا انعقد فى ٣٠ يناير سنة ١٦٢١ حيث صرح لهم بانه حكم حوالى الثمانية عشر عاما فكان أقل ملوك انجلترا طلبا للمال . وأنه فى المدة التى لم يكن البرلمان يشاركه العمل فيها انقص مقرراته شخصيا وانه يود لو أنهم على ذلك لا يقفون فى وجهه . وطلب منهم بعد ذلك اعانة فاجابوه بتقرير اعانة ضئيلة

ولكن هذا البرلمان الجديد أحيا ال impeachement وهى محاكمة الوزراء بطريق اتهام مجلس العموم وهى كلمة كان الناس قد نسوها مدى قرنين فهرب بعض الوزراء وارتجف أكثرهم وأراد البرلمان أن يقضى على مساوىء هذا العصر وما قام فيه من رشاوى ومظالم لمحاكميه فيكونت سنت البانز وحكم عليه بغرامة أربعين ألف جنيه وحبسه فى قلعة من القلاع وحرمانه من حق اداء خدمة للمصالح العامة أو الجلوس فى البرلمان أو الاتصال بالبلاط . فدفع الملك عنه الغرامة وأفرج عنه بعد سجنه بضعة أيام .

وحدث أن أظهر البرلمان رغبته فى أن لا يتزوج البرنس شارل ابن الملك أميرة كاثوليكية وذلك دفعا لنفوذ البابوية فانكر عليهم الملك ذلك ودعاهم الى عدم التدخل فى شؤنه . ففى ١٨ ديسمبر

سنة ١٦٢١ رفعوا اليه احتجاجا عظيما ضمنوه تأكيدهم بأن حرية البرلمان واحكامه انما هى ميراث عظيم تلقاه الشعب الانكليزى عن أجداده وأن من حق البرلمان التداخل فى شؤن الملك والحكومة والدفاع عن الدولة وشئون الكنيسة واصدار القوانين. وفرض أو الغاء الضرائب .وأن عضو البرلمان لايعاقب ولايحاسب إلا بواسطة البرلمان نفسه .

فحل الملك البرلمان وحبس ايرل اوكسفورد وبعض زعماء مجلس العموم

وفى سنة ١٦٢٤ عندما رجع البرنس شارل من اسبانيا مع بوكنجهام وقد قطعا العلاقات معها فرح الشعب وأصبح من الضرورى على ذلك دعوة برلمان انعقد فعلا فى ١٩ فبراير

وقد أصدر هذا البرلمان قرارا بأن كل الاعانات والهبات والاحتكارات انما هى قانونا ضد قوانين الدولة ويجب عقاب من يقوم بجمعها

وقد كان الجفاء مستحكما بين النواب وبين التاج حيث شعر النواب بقوتهم تماما وأخذوا يحاكمون وزراء الملك وهو لا يستطيع مقاومتهم وقد ساعد على ظهوره بمظهر الضعف انكساره فى الحروب التى اثارها وما حل به بسببها من الفقر ثم مات فى سنة ١٦٢٥ وخلفه ابنه شارل الأول

شارل الاول ١٦٢٥ — ١٦٢٩

كان شارل الأول امتن خلقا من ابيه . واقوى نفسا . وأشد حفظا لكرامته ولكنه كان أشد منه نزوعا الى الاستبداد وأكثر كراهية للديمقراطيه . وكان الشعب يكرهه وهو لا يستطيع محو هذه الكراهية

ولقد كان أول صدام بين شارل والبرلمان قد وقع على أثر طلب شارل بعض المال لينفقه فى حروبه مع اسبانيا ورفض البرلمان تقرير أكثر من ١٤٠ الف جنيه فقط. وكان ذلك عند انعقاد البرلمان الاول فى ١٨ يونيه سنة ١٦٢٥

وكان السبب فى كراهية البرلمان للملك يرجع (أولا) الى الحظوة التى نالها بوكنجهام عند الملك وهو مكروه منهم

(ثانيا) لزواج الملك من أميرة رومانيه كاثوليكية بينما معظم البرلمان من البيورتان (ثالثا) ظلم البيورتان . . .

وفى ٤ أغسطس اجتمع البرلمان ثانيا وكتب رد طلب منهم الملك تمطاء مخاطبا اياهم «بأنه يود لو أنهم يقدرون حرجه ومركزه واعتبروا كلمته نظر اليه وهو يحاول أولى محاولاته لو فشل فيها لنالت الاهانة شرفه وكرامته . وإنه على الاقل يود لو أنهم عملوا على ان يحافظوا على سمعتهم هم »

بعد ذلك أخذ النواب يتناقشون ويقولون بأنه يجب اعطاءه ما هو ضرورى فقط . وفى اثناء المناقشة قال (ادوارد كلارك) ان بعض اقوال النواب قد تجاوزت المعقول فسرعان ما هاج النواب واجبروه على الركوع والاستماع الى الحكم عليه بالحبس.

وحل البرلمان بعد ذلك فى ١٢ اغسطس. وفرض الملك من نفسه الضرائب واحيا اسوء عهود الطغيان وبث جنده فى الدور يسلبون أهلها المال والعقار

وفى ٦ فبراير سنة ١٩٢٦ انعقد برلمان آخر اخذ يعقد لجانا منه للنظر فى مسائل الضرائب ؛ الاحتكارات والادارة والحرب والديانة.
ولما طلب منهم الملك مالا طلبوا منه بعض اصلاحات فى الحكومة وكذلك طلبوا السماح لهم باتهام بوكنجهام فعد شارل ذلك اهانة موجهة اليه . وخاطب النواب « بأنه لا يسمح لهم بمحاكمة واهانة كبار موظفيه خاصة وأنه لا يرى من المناسب ان يجعلوا شرط قبولهم تقرير المال هو الاصلاح فى الحكومة الذى يعلم هو ان المقصود به بعض أنصاره »
على ان الملك لم يتمكن من حماية بوكنجهام فحوكم بطريق الاتهام الى مجلس اللوردات . غير أن الملك حل البرلمان قبل انتهاء المحاكمة خوفا على صاحبه

وأخذ بعد ذلك يجمع كثيرا من المال بطريق الاقتراض من الاهالى وبطرق أخرى ظالمة ثم وجه عنايته الى خوض غمار الحرب للاستيلاء على قادس والسفن الاسبانية لانها كانت ترد من امريكا فى مواعيد معينة كل سنة تحمل الذهب و فضة . ولكنه فشل فى هذه الحرب كما فشل فى مساعدة الهوجونوت فى فرنسا . وإن كان قد نجح فى ايقاع النفرة والمصادمة بينه و بين ريشليو وزير فرنسا العظيم الذى حرم على (الدوق) دخول أى ارض فرنسية وقد كان يعتبر فى فرنسا أحد الدوقات ثم زادت كراهية الشعب لشارل . بل احتقره لما كان يأتيه من الشين فى جمع المال ولما لحقه من الفشل فى الحروب . وكان عندئذ فى حاجة الى المال والى محبة الشعب . وقد قال لورد برجلى لاليصابات « استدبلى الشعب وتملكى قلبه تملكين يده وخزائنه » . ولكن شارل لم يتبع مثل هذه النصيحة الغالية

ودعا برلمانا انعقد فى ٢٩ يناير سنة ١٦٢٨ واطلق بهذه المناسبة سراح بضعة عشر رجلا كان سجنهم لعدم امدادهم اياه بالمال . وقد كانت هذه طريقته فقد كان يلقى فى السجن من يمتنع عن اقراضه .

ولما اجتمع البرلمان قال لهم ان الوقت لا يحتاج الى الكلام

ولكن الى فساد و ...وا يدعوهم الى العمل على مافيه مصلحة البلاد والا فهو مضطر لاستعمال الطرق التى هيئها الله له لخدمة هذه البلاد ورجاهم أن لا يظنوا كلامه هذا تهديد . وأكد لهم أنه نسى الماضى وما وقع فيه

وما أن اتم الملك كلامه حتى وقف نائب الملك فى البرلمان وقال « ان الملك يطلب مالا فان لم تدفعوا اضطرته الحاجة سيوف الاعداء الى ايان أعمال أخرى »

واندهش النواب بان هذا الكلام التهديدى لايحتمل وتساءلوا عن قيمة الدستور الانكليزى اذن اذا كان فى امكان الملك توجيه مثل هذا الكلام اليهم

ثم أخذوا فى المناقشة حتى أدت بهم المناقشة الى ... دت فى أمر سوء الاداره وجباية الجنود المال والقروض الاجبارية والقبض والحبس للامتناع عن الاقراض غير انهم خوفا من أن يحل الملك البرلمان كانوا يتناقشون بلهجة أخف مما يجب

صرخة النواب

وفى أثناء ذلك قال السير روبرفيليبس « لقد كان للعبيد فى عهد ساتورنليا القديم يوم يتكلمون فيه بحرية - واما فى انجلترا اليوم فليس لنا ما كان للعبيد .. وما فائدة البرلمان اذن اذا كان

الملك كلما أغضبه كلامنا حله والناس مهددون فى أنفسهم وأموالهم؟»

فرد بنجامن رديارد «لا . . يجب أن يفصل حالا فى هل يجب أن تعيش البرلمانات أو تموت» وتكلم بعدهما ايرل ستراتفورد الذى أصبح فيما بعد زعيما وطنيا عظيما فقال «إنه ليس الملك وانما هى الحاشية التى دفعته الى هذا الافلاس الذى يطلب المال لكى ينقذ منه — إنهم يسرقون أموالنا ويحبسوننا اذا امتنعنا عن الرضاء عن هذه السرقات — يجب ان لا نمنحه مالا حتى تقرر لنا حرياتنا»

وقدم النواب قانونا فى ١٤ ابريل بخصوص ما يجبيه الجنود من المال

وفى ٢٨ ابريل اجتمع بهم الملك وقال «إنه يحافظ تمام المحافظة على نصوص الماجنا كارتا وكذلك يحافظ على حقوق الشعب ويحكم بمقتضى القوانين»

ولما قال بعد ذلك بعض النواب انهم يكتفون بهذا التصريح كأقوى من القانون صاح سير ادوارد كرك «ان الوعود العامة

ليست كافية لمحو مثل هـــذه الفظائع القائمة وإن إعلانا رسميا مكتوبا بهذه الحقوق هو الذى يقنعنا .

ملتمس الحقوق

وسرعان ما وافق النواب على ذلك وارســـلوا الى مجلس اللوردات نصوص ملتمس الحقوق The Petition of Fights

وكان يتضمن هذه المبادىء الاربعة :

(١) لا يجوز طلب ضرائب . أو قروض أو عطايا من أى فرد من الامة بدون رضاه وموافقة البرلمان

(٢) لا يجوز القبض على أى شخص أو اعدامه أو تجريده من املاكه بدون شرعية السبب وموافقة نص القوانين وبدون محاكمة .

(٣) لا يجوز اجبار أفراد الشعب على ايواء الجنـــود وضيافتهم وتموينهم بغير مقتضى القوانين ولا يجوز محاكمة أفراد الشعب بمقتضى قوانين حربية

(٤) لا يجوز لاى انسان أن يغير أو يؤثر فى ســـير القضايا الشخصية أو يخلق محاكم استثنائية

وقد حاول الملك كثيرا ان لا تصل اليه ورقة هـذا القانون غير أنه اضطر الى امضاءها فى ٧ يونيه سنة ١٦٢٨

وعلى أثر ذلك قرر البرلمان اعطاء الملك فى ١٢ يونيه خمسة انواع من الضرائب تعادل تقريبا ٤٠٠ الف جنية

وبعد ذلك ظن الملك كما ظن أعضاء البرلمان أن كل خلاف بينهم قد تسوى ولكن النواب كتبوا خطابا رقيقا وديا يطالبون فيه بعزل بوكنجهام لانه آلة الفساد فى الحكومة فغضب الملك غضبا شديدا وحل المجلس

قتل بوكنجهام

وفى ٢٣ اغسطس بينما كان بوكنجهام جالسا فى منزله يتناول طعام افطاره وعربته تنتظره على الباب لتحمله الى مليكه وعرف منزله مملوءة باتباعه وضباطه قفل رجل قصير القامة وطعن الدوق تاركا السكين فى جسده فصاح الدوق.

« لقد قتلنى الشقى . . . انزعوا السكين » ثم دار حول نفسه وارتمى ميتا

وقد كان القاتل من عائلة طيبة واشتغل ضابطا فى الجيش كضابط . .

وبعد قتل بكنجهام شعرت البلاد بالراحة وأصبح من الملائم دعوة برلمان انعقد فى ٢٠ يناير سنة ١٦٢٩

واتخذ عندئذ الخلاف بين الملك والنواب شكلا احسـر وصيغة أخرى

فقد كان الملك شارل يميل الى الكاثوليكية لان زوجته كانت على هذا المذهب وقد ساعد فرنسا واسبانيا اللتين كانتا تحاربان البروتستنت

وقد كان بوكنجهام والملكه (هنريت) هما مستشاراه وقد كانت هنريبت باعتبارها كاثوليكيه تكره البيورتان وقد ورثت فى طبيعتها حب الاستبداد عن ابيها ولم تنى طول حياة زوجها عن الزج به فى المواقف الحرجة النكده التى ساعد على تفاقم خطورتها اندفاعه فيها بتأثير اخلاقه .

فلما مات بوكنجهام زاد سخط الملك على النواب وكراهيته لهم . وتنفردت هنريبت بالاستشارة السوء

وقد شعر النواب ان الملك بدأ يتنصل من وعوده ومواثيقه شيئا فشيئا فلغطوا بذلك واجتمعوا ليقرروا امرا ازاء ذلك.

النواب يغلقون الباب

وجاء الملك الى ذلك الاجتماع يريد ان يحضره فاغلقوا الابواب على انفسهم دونه . فاحضر « حدادا » ليكسر الابواب . ولكنه إذ شرع فى ذلك وجد النواب يخرجون وقد أجلوا الاجتماع

القبض على بعضهم

وقبض على تسعة من اعضاء بعد انفضاض الجلسة وزج بهم السجن وبعد أيام توفى احد هؤلاء — سيرجون اليوت — فى سجنه : ثارت ثائرة النواب فحل المجلس وتفرد بالحكم

يجتمعون رغم حل البرلمان

ولكن النواب لم يؤثر فيهم هذا الحل بشيء فكانوا دائما يجتمعون ويقررون قراراتهم ويذيعونها فى الشعب يثيرونه بها ضد الملك المستبد

وشعر شارل بحاجته للانصراف الى الشئون الداخلية . فوقف كل مجهوداته على توطيد سلطته واخماد الثورة الداخلية . وعقد لذلك الصلح مع فرنسا واسبانيا

ولأول مرة فى التاريخ الانجليزى بقى البرلمان منحلا احدى عشر سنة من ١٦٢٩ الى ١٦٤٠ . وكان الملك فى هذه المدة يصرف الشئون باستبداد وروح الطغيان تهيمن على تصرفاته وأهم الوزراء الذين عاونوه ايرل سترافورد Earl Strafford والاسقف وليام لود Archbishop William Laud

والمدهش ان توماس وينتورث Thomas Wentworth وهو ايرل سترافورد كان زعيما من زعماء البرلمان ضد الملك . وكان شخصية بارزة فى الثورة التى انتهت بنيل ملتمس الحقوق ولكنه فى سبيل ان يصبح للملك ما كان ريشليو لملك فرنسا سعى لمصالحة الملك ومصادقته ! ولم يأل جهداً بعد ذلك فى تحطيم اعضاء البرلمان وجمع كل سلطة استبدادية فى يد الملك

وقد كان وليام لود اسقف كانتربرى Canterbury كاثوليكيا فى مذهبه وآراءه ولذلك لم يدخر وسعا فى محاربة البيورتان .

وقاست البلاد المر وتجرعت الصاب والحنظل ولقيت من عنت الطغيان والاستبداد عهدا اسود ومرت عليها أيام كان حديث الناس همسا وسيرهم اضطرابا وتوجسا وحذرا. يلقى من يلقى فى السجن لمجرد أن يشاع عنه مقاومته أو كراهيته لسياسة الملك ولا يستطيع الحرأن يجاهر برأيه وكانت توقع اقسى أنواع العقوبات على من يخالف ويعارض تعليمات « لود » الدينية واراءه أو يمتنع عن قراءة كتاب صلواته والملك وأنصاره ينهبون ويسلبون ولا معقب لطغيانهم !

وإنه ليكفى ان يتصور الانسان ان ثلاثة من الطغاة — الملك ووزيريه — يقومون على شئون شعب يكرههم .وهم يكرهونه ويشعرون بكراهيته لهم . يكفى ذلك لكى يدرك مدى ما لاق الشعب وذاق فى ذلك العهد المشئوم

وولى توماس وينتورث أمور ايرلنده وكون مجلسا من الطغاة انصاره ليتولى تأديب الانحاء الشمالية من انجلترا . . . .

وكانت ضريبة « السفن » اقسى الضرائب وأكثرها شينا

للملك . وهى ضريبة قديمة احياها شارل وكانت قد اندثرت. وأصلها طالب الملك من أهالى الشواطىء المساهمة بمراكب فى حماية تلك الشواطىء على أنها أصبحت بعد ذلك عبارة عن ضريبة حربية تجبى فى وقت السلم . وتفرض على أهالى الشواطىء كما تفرض على أهل البلاد الداخلية فى المملكة ولم يكن ذلك متبعا حتى من قبل ولم تكن قيمة هذه الضرائب للأسف تصرف فى شئون الاسطول ولكنها على شئون الملك والجيش . وكانت تؤخذ نقدا لاعينا

ومرت ثلاثة أعوام والشعب راضخ لدفع هذه الضريبة الثقيلة وأخيرا رفض جون هامبدن John Hampdon وهو رجل محترم من أهالى بوكنجهامشير Buckinghamshire دفع قدر من الضريبة فرض على املاكه ويبلغ ٢٠ شلنا وسرعان ما قبض عليه وقدم للمحكمة وكان القضاة من الضعف بمكان عظيم إذ أنهم كانوا عرضة فى أى وقت للطرد من مناصبهم. ولذلك لم يتمسكوا سوى أن يحكموا على جون هامبدن

وابتدأ البيورتان يهاجرون افواجا الى امريكا ويتركون وطنهم المحبوب الى احراش امريكا وغاباتها المتوحشة حيث يستطيعون أن يؤدوا فروض دينهم دون أن يقبض عليهم ويحاكموا أو يعذبوا ويسجنوا كما كان يفعل بهم لود فى انجلترا ، وقد كان ضمن سفينة

من سفن المهاجرين ثلاثة أصبحوا بعد ذلك زعماء الثورة الكبري وهم كروموبل وهامبدن وبيم وكانوا على وشك السفر لولا أن جاء امر من الحكومة بمنع ابحار تلك السفينة

البرلمان القصير

واضطر شارل بعد ذلك الى عقد برلمانه الرابع تحت ضغط المعارضة وافلاس الشعب وحاجته الى المال . فانعقد هذا البرلمان الرابع فى سنة ١٦٤٠ وابتدأ أول اجتماع له بعرض مطالبه واصلاحاته فما كان من الملك إلا أن حله . بعد عاش ثلاثة اسابيع وهو البرلمان المعروف بالمجلس القصير

نبل اللوردات

واراد أن يسعى بالخديعة فى اضعاف البرلمان فدعا مجلس لوردات فقط للاجتماع دون مجلس النواب . ولكن اللوردات رفضوا تلك الدعوة لانهم كانوا متشبعين بروح الدستور ومواده ولم يشأوا أن ينفردوا بالحكم

وبعد ذلك وفى نفس العام دعا شارل برلمانه الخامس للاجتماع وهو اخر برلمان فى عهده ويطلق عليه اسم البرلمان الطويل لأنه بقى اكثر من ١٩ سنة .

محاكمة ستراففورد

وكان أول عمل عمله هو محاكمة ستراففورد وزج لود فى السجن .

وقد تولى اتهام استراففورد الزعيم العظيم بيم Pym وكانت تهمته الخيانة العظمى لحريات الشعب . ومساعدته الملك وتشجيعه إياه على العبث بالقوانين الاساسية للدولة وصدر الحكم بالاعدام وأمضاه مجلس النواب ثم مجلس اللوردات ولم تبق غير امضاء الملك الذى تأخر فى إمضاءها وتردد طويلا . ولكن ستراففورد كتب اليه خطابا يقول فيه « انه يجب ان يترك للقدر وانه يجب أن يواجه نهايته »

وبناء على ذلك امضى الملك حكم الاعدام الذى نفذ فيه فى مايو سنة ١٦٤١

قوة البرلمان

وأما لود فبقى فى السجن اربع سنوات ثم أعدم

والغيت محكمة النجم Star Chamb r وكذلك المحكمة العليا High Commission وكان لهما اليد الطولى فى أيذاء معارضى الملك ومعارضى ديانة لود وقرر البرلمان أيضا عدم شرعية ضريبة السفن كما اصدر قرارا يحتم اجتماع البرلمان فى دورات كل دورة ثلاث سنوات ويمنع حله الا برضاءه

وتفاقم الخلاف الدينى وهاج البر زبتريان والمستقلون على سياسة الملك الدينية

ثم قامت مذبحة فى ١٦٤١ للبروتستانت بواسطة الكاثوليك ذبح فيها اكثر من اربعين الف كما يقال

وكانت الثورات قائمة فى اسكتلندا على الملك وكذلك فى ايرلندا .

وفى هذه الوقت بدأ يظهر الحزبان السياسيان اللذان ظلا يتناوبان حكم البلاد حتى قبل ظهور الاشتراكيين من العمال

ولقد كان الاشراف والاعيان ورجال الكنيسة فى صف الملك

وفى الناحيه الاخرى كان بعض الاشراف وكل المزارعين والتجار

وقد لقب فريق الملك (بالفرسان) Cavliers وسبب هذه التسمية مظهر اولئك الانصار من الملبس وركوب الخيل وكان المعارضون يسمون بذوى الرؤس المستديرة roundheads وذلك لان البيروتان كانوا يقصون شعورهم احتقارا لزى الاشراف ثم تغير اللقبان الى حزب التورى Tory والويج whig ثم تحولا بعد ذلك الى حزب المحافظين Conservative وحزب الاحرار Liberal وقد بقيت مبادىء الفريقين هى بعينها كما كانت . فالنظام هو كلمة (سر الليل) والمبدأ الاساسى للفريق الاول والتقدم هو مبدأ الفريق الثانى .

تدفع الاول الذكريات المجيدة للمحافظة على النظم القديمة التى سببت تقدم الدولة ، والامل يدفع الفريق الثانى للجهاد فى سبيل احلال نظم جديدة ناجحة كلما دعت الحال

وفى يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٦٤١ قامت أول معركة بين الفريقين بعد مخاصمة طويلة وكان المعارضون يقدمون مشروعات لاصلاح فساد الحكومة ولما رأى الملك الروح العدائية التى تكمن له فى البرلمان اعطى وعوداً سخية ولكن سرعان ما فنيت تلك الوعود المعسولة فى مرارة اعماله

الاحتجاج الاعظم

وكان شارل قد ذهب الى اسكتلندا وتودد لاهلها كثيراً فأوجس البرلمان من ذلك خيفة واعتقدوا انه إنما ذهب ليرجع بجيش عظيم يحاربهم به فقدموا له الاحتجاج الاعظم The Grand Remonstrance وفيه يحتجون على سياسة الملك ويعددون مساوءه يطلبون الى الوزراء ان يعتبروا أنفسهم منذ ذلك الحين مسئولين امام المجلس مباشرة

المعركة

وهاج ذلك الملك فشرع فى القبض على خمسة من زعماء البرلمان وهم بيم Pym وهامبدن Hampden هايزلرج Haze lrig هوليس Hollis وستريد Strede . ورفض النواب أن يسلموهم اليه فذهب

فى اليوم الثانى بجنده للقبض عليهم ولكنهم كانوا قد هربوا قبل دخوله المجلس .

انتصار المعارضة

وفى أثناء هذه الليلة ملئت شوارع لندن بالمواطنين المسلحين الذين يناصرون البرلمان . وكان الرأى العام مهتاجا ثائرا ضد الملك لانه أهان الامة . وعندئذ لم يجد الملك بدا من الذهاب الى يورك كما هربت الملكة الى هولندا . ورجع الهاربون على رأس جيش المواطنين ودخلوا المجلس مهللين منتصرين

وتبادلت الرسائل بين الملك والبرلمان ولكن لم يكن من الممكن خضوع أحد الفريقين لرأى آخر. وأخيرا طلب النواب من الملك أن يتخلى عن قيادة الجيش وهو حق من اقدم حقوق العرش .

ولذلك فقد رفض هذا الطلب وكنتيجة وأثر لهذا الرفض بدأت الحرب الاهلية .

وفى ابريل سنة ١٦٤٢ اقفلت أبواب هل Hull فى وجه الملك.

وفى يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٦٤٢ رفع العلم الملكى فوق نوتنجهام Nottingham وتجمع حولها عشرة الاف مقاتل .

ولقد كان جنود الملك من الرجال الماهرين فى ركوب الخيل واستعمال الاسلحة ولكنها كانت تنقصهم قوة المدفعية وتنقصهم الذخيرة . وكان المال نزرا فى يدى شارل وكان كل اعتماده على مساعدات فرسانه

وكانت جيوش البرلمان محشودة من الفلاحين Ploughboys والتجار وهم غير مدربين على القتال ولكنهم بمضى الوقت عرفوا كيف يقاتلون. وقد ساعد البرلمان على الانتصار امتلاكه لندن وطول نهر التيمس.

وكان الملك على رأس جيش الفرسان. كما كان روبرت ابن اخ الملك وعلى رأس فرقة الخيالة.

وقد قاد جيوش البرلمان ايرل اسيكس Earl of Essex وابتدأت المعركة الاولى عند هل Edge Hill في مقاطعة ورويكشير Warwickshire ولكن لم تتم فيها الغلبة لأى الفريقين.

وفى الشتاء جعل شارل مركز القيادة العليا فى اكسفورد

وفى سنة ١٦٤٣ تمكن الملكيون من الاستيلاء على برستول وحاصروا جلوشستر وبينما ظن هؤلاء أن النصر مواتيهم انقض عليهم ايرل اسيكس بسرعة من لندن بجيش مدرب فرفع الحصار عن جلوسشتر وكان رفع هذا الحصار قد ادار رحى الحرب الى الفاتح. فسرعان ما حطم جيش الملك بعد ذلك فى موقعة نيوبرى Newbury فتقوى شأن البرلمانيين ولو أنهم أحسوا احساسا شديدا بالاثر العميق الذى أحدثه سقوط الزعيم امبدن قتيلا فى هذه الحروب

ولكن جنديا اعظم أيدا وأنوى أثرا وشخصية من هامبدن وسياسيا أجل خطرا منه ظهر عندئذ فى جبهة البرلمانيين .

وقدكان فى موقعة Edge Hill يحارب فى صفوف جيش البرلمان ويبلى بلاء حسنا لفت اليه الانظار

اوليفر كرمويل

و كان أوليفر كرمويل Oliver Cromwell فى الاربعين من عمره . وقد قضى هذه السنين الطويلة فى الريف فى هانتنجدون Huntingdon فى عيشة هادئة راضية

وكان عضوا فى البرلمان الطويل مميزا باثوابه البيوريتانيـــة الغريبة تفصيلا ولونا . وبخطاباته القاسيـــة المدهشة المفعمة الاخلاص .

فلما أن رأى انتصار الملك أولا فى برستول عزم أكيدا على تحطيم جيش الملك تحطيما نهائيا فأخذ يدرب فرقته — وقد أصبح قائدا لها — وحشد فيها الجنود الصالحين العقلاء الذين تملأ قلوبهم خشية الله والايمان به ويأخذهم برياضة جسمية وروحية . ونظام صارم حتى أصبحوا فى وقت قصير مميزين فى الجيش وأطلق عليهم اسم (الجوانب الحديدية للكولونيل كرمويل)

وجاءت فى أوائل سنة ١٦٤٤ نجدات من اسكتلندا للبرلمان كما جمع الملك بعض الاعوان الايرلنديين

وقامت الحرب بين الفريقين فلقى فريق البرلمان بعض الهزيمة

فى ايسيكس ولكنهم فى الشمال عند مرستون مور Marston moor انتصروا على اعـــدائهم انتصارات باهرة . واكتسح كرومويل ورجاله الحديديون جيش روبرت الذى لم يستطيع الثبات امام هجمات جند البيوريتان وانتهى هذا الانتصار بامتلاك البرلمانيين يورك ونيوكاسل كما انتهت موقعة نيوبري بهزيمة شارل شر هزيمة .

وبعد ذلك انتخب كرومويل قائدا للفرسان برتبة ليفتننت جنرال Lieutenant General وان كان فى الواقع قد ملك قيادة الجيش عامة

وكان كرومويل ينتمى الى فريق المستقلين Independents الذين كانوا يريدون أن يهدموا الملكية ليؤسسوا جمهورية والذين كانوا لا ينتمون الى كنيسة معينة ويرون ان كل جماعة من المسيحيين يمكن أن تكون لهم كنيسة مستقلة وكانوا يسمون Root — and — branch men وقد أصدروا منشورا بشريعتهم المسماة « شريعة انكار الذات Self denying ordinance فى ابريل سنة ١٦٤٥

ولم يكن كرومويل قائدا ممتازا فحسب حتى يحوز الانتصارات التى احرزها أو يجد لديه جيشا اخضع له من ارادته ولكنه كان

تنظيما روحيا . فذ الشخصية . خطير الاثر له ، وقد كون جيشه على أساس بث الفكرة الروحية فى نفوس جنوده فكان الاخلاص فى الجهاد على ايمان بالله والوطن هما اللذان يسيطران على الجنود ويدلوم على ينهم القائد قبلهم

ولقد كان على الضباط والجنود أن يتعبدوا فى الخيام وقاعات المعسكرات فى أوقات معينة لتأدية الصلاة وكان محرما عليهم تناول المسكرات والمقامرة وان يقسموا باى قسم كان

وكانوا اذا ساروا للقتال أنشدوا الاناشيد الدينية ورتلوا الادعية الروحية التى تبعث الحماس فى النفوس وتثير فكرة انكار الذات عند الفرد . وتلهب الجيش بدافع الايمان والاخلاص للقتال فى سبيل تحقيق الغاية المقدسة . وبهذه الروح العظيمة الجديدة تقابل هذا الجيش المملوء تقوى وايمان بجيش الملك عند نازبى Naseby فى نورثمبتونشير Northamptonshire فى ١٤ يونيه سنة ١٦٤٥ حيث دارت الحرب فهزم جيش الملك هزيمة تركته حطاما

فرار الملك

وفر شارل التعس الى أوكسفورد ثم منها الى نيوارك Newark وفى هذه الاثناء عثر البرلمانيون على رسائل كان شارل يستجدى بها المعونة والغوث من الايرلنديين والفرنسيين فاثار ظهور

هذه الخطابات سخط الرأي العام بل ازدياد هـذا السخط في الواقع

انتهى الأمر كما نرى بفوز البرلمان ولكن سرعان ما دب الخلاف بين اعضاءه إذ انقسم قسمين البرسبيتريان Presipterian وهؤلاء يرغبون في الحد من سلطة الملك حداً يكفل لهم السلطة ولا يضيع العرش : والآخرين المستقلين يريدون تحطيم العرش. وكانت القوة في جانب المستقلين ولما يئس شارل من انقاذ البرسبتريان له قدم نفسه للجيش الاسكتلندي في نيوارك وضع مصيره تحت رحمة هذا الجيش وشرفه فقبلوه مخلصين النية على انقاذه اذا أمضى عهد الـ solemnleage فرفض ورضى باختياره ان يسلموه على ذلك الى رعاياه الانجليز وبسرعة هائلة

القبض على الملك

دبر له الأمر وقام كورنيت جويس cornet goyce على رأس ثلة من الفرسان بأمر خفي من كرومويل وقبضوا على الملك في هولمبي Holmby house واودعوه في احدى القلاع ثم اخذوا ينقلونه من قلعة الى أخرى وحدث مرة أن هرب ولجأ الى جزيره ويت Isle of Wight على أمل أن يجتاز البحر الى أوربا ولكنهم قبضوا عليه ووضعوه في قلعة كاريسبروك Carisbrook castle وضيقوا عليه الخناق في امره حتى ثار بعض انصاره في ايسيكس

وكنت Kent فترك كرومويل امر تاديبهم واخماد ثورتهم غيروفا كس Far fax واسرع الى الشمال لاخماد ثورة الجيش الاسكتلندى بقيادة هاميلتون، فتلاقى به فى لانكشير وهزمه هزيمة منكره واقام فى ادنبرج حكومة عدائية لشارل

وفى أثناء غياب كرومويل ثارت ضجات عدائية من البريزبيتريان خاصة بشان الملك فرجع كرومويل حالا الى لندن واخرس هذه الضجات بقوة وعزيمة صادقتين. ولكنهم ظلوا يعملون ويجاهرون بضرورة الاتفاق مع الملك الاسير.

تطهير برايد

وفى الساعة السابعة صباحا من يوم ٦ ديسمبر سنة ١٦٤٨ حاصر الكولونيل برايد Pride بقوة كبيرة من الجند دار البرلمان فى وستمنستر هول Westminister Hall ووقف ببابه وفى يده قائمة باسماء الاعضاء الذين يعارضون سياسة الجيش ووقف بجانبه اللورد جراى اوف جروبى Lord Gry of Groby وقد كان عضوا بالمجلس ويعرف الاعضاء واحدا واحدا معرفة تامة فكان كلما جاء احد الاعضاء من المغضوب عليهم ارجع ثانية فاذا ابى قبض عليه. وبذلك تم طرد حوالى ١٤٣ عضوا وبقى حوالى المائة وفى رواية ٤٠ عضوا ينقضون ويبرمون بمشيئة الجيش وقد ارسلوا عقب هذه الحادثة الى كرومويل قرار شكر حار اللهجة على جليل خدماته

وهذه الحادثة معروفة فى التاريخ بتطهير برايد Pride 's Purge

وفى يوم ٤ يناير أصدر البرلمان القرارات الآتية :

« إن الشعب — بعد الله — هو مصدر كل قوة عادلة .

وللنواب الانجليز فى البرلمان المجتمع وحدهم — باعتبارهم قد انتخبوا واختيروا ممثلين للشعب — السلطة العليا فى المملكة

فأى أمر أو قرار يصدر من النواب فى المجلس المجتمع له قوة القانون ويلزم الشعب به وباحترامه وبالعمل به وان خلا من موافقة الملك أو مجلس اللوردات »

وفى ٦ يناير أصدر البرلمان قرارا يقول فيه (ان هذا الشارل ستيوارت الملك الحالى لانجلترا يضمر نيات لها سيئة قد عمل بدافعها على هدم القوانين الاساسية القديمة كما هدم حريات الشعب وعمل على أن يشيد على انقاضها حكومة طغيان فى يدها السلطة المطلقة. وتحكم بلا حد شرعى لسطتها الباغية) .

وبعد صدور هذا القرار قرر البرلمان ايضا محاكمة للملك شارل ووجه الدعوة الى بعض الاشخاص لحضور محاكمة (هذا الشارل ستيوارت المذكور)

وفى ٨ يناير اجتمعت المحكمة فى الغرفة المنقوشة The Painted Chamber فى وستمنستر . وقد كان القرار السابق قد عين

مائة وخمسة وثلاثين شخصا قضاة ولكن لم يحضر منهم غير اثنين وخمسين.

محاكمة الملك

وقد حضر المحاكمة القائد العام للجيش لورد فيرفكس Lord Fairfax وأوليفر كروموبل الذى كان القوة الفعالة فى سير المحاكمة وقد حدث فى أول انعقاد المحاكمة ان صاح رحل (إن الملك لا يمكن أن يحاكم بواسطة هذه المحكمة — ولا أى فرد يرضى ان يحاكم بواسطتها) فرد عليه كروموبل قائلا:

« اسمع. إننا سنقطع رأسه وعليها التاج! »

وبعد عدة تأجيلات حدد يوم ٢٠ يناير لابتداء المحاكمة فعلا وفى الليله السابقة على هذا اليوم احضر الملك سرا من وندسور الى قصر سان جمس وجىء به فى الصباح الى هويتهول Whithall

وقد كانت القاعة مليئة بالمتفرجين. ولا ريب إن ما حل بالملك العزيز من البؤس والشقاء قد بعث شيئا من الشفقة عليه فى قلوب الحاضرين ولذلك لم يسمعوه كثيرا من الالفاظ الجارحة

ووقف نائب الاتهام — جون كوك John Coke واتهم شارل بانه اثار الحرب ضد البرلمان الحالى الذى يمثل الشعب فهو يقدم للمحكمة كمتهم طاغى ظالم. خائن. قاتل. وعدو لدود للصالح العام الانجليزى.

وحدث فى هذه الأثناء ان أراد الملك أن يلفت اليه انتباهه بعصاة ذات رأس فضية ولكن تلك الرأس الفضية كسرت وتبعثرت قطعها فعلت صيحة تشاءم !

وقد أجاب شارل بأنه يرفض أن يحاكم أمام هيئة مكونة تكوينا يخالف القانون ففى الدستور مادة قديمة تقول بأن النبيل لا يحاكمه الا النبلاء وهو كنبيل يرفض أن يحاكم أمام هيئة لا يشترك فيها النبلاء .

وعندما سأل الرئيس برادشو — الملك ان يدافع عن نفسه صاحت سيدة معترضة وهاتفة ضد اوليفر كرومويل فاخرجت وظهر أنها زوج اللورد فرفاكس القائد العام وهذا يدل على أن النبلاء حتى الذين كانوا فى صفوف الشعب كانوا يألمون للملك ويرثون له

وعندما سكتت الضجة سأل الملك قضاته: « بأى سلطة أحاكم ؟ » فأجيب: بسلطة الشعب الانكليزى الذى جعله ملكا . فرد بانه ولد ملكا بالوراثة ولم ينتخب وان رضائه بالمحاكمة بواسطة هذه المحكمة يعد خيانة منه للقوانين والدستور الذى ينص على أن النبيل لا يحاكم إلا أمام محكمة من النبلاء . ولكن لم الله متى تفهم

الثورة القانون وهل خاطب أبدا عاقل الثوار بالقانون ومواد القانون ؟ !

وسرعان ما حمل الى Culton House ولم يجيئوا به الى المحكمة بعد ذلك بقية ايام المحاكمة .

وقد كان بعض الاعضاء مترددين فى الحكم عليه بالاعدام وبعضهم كان يرتأى الحكم عليه بالحبس ولكن ارادة كرومويل الحديدية جرفت التردد والضعف وفى يوم ٢٣ يناير جاءت النهاية

وفى حماس الخصومة والعداء لشارل قرر البرلمان والجند اعدام شارل ويقول بعض المؤرخين أن دم شارل يقع على رأس كرومويل ويظهر أن الواقع خلاف ذلك كما يقول بعض المؤرخين الانجليز العظام إذ أن كرومويل مع شخصيته العظيمة ونفوذه الهائل ما كان يمكن أن يكبح جماح جيش ثائر . ويظهر أن القاعدة سائرة دائما على أن زعماء الثورة يشعلونها ويقودونها ثم لا يستطيعون بعد ذلك الوقوف فى وجهها أو محاولة كبح جماحها أو ثنى عنانها .

وفى الايام التالية للحكم . قبل يوم التنفيذ المحدد وهو ٣٠ يناير بذل كرومويل جهود الجبابرة إذ أن رعدة من الخوف كانت قد استولت على كثير من القضاة فكانوا يتهربون من امضاء الحكم

خشية المسئولية ولكنه أجبرهم أخيرا على إمضاءه جميعا . كما انه قاوم كثيرا من التيارات التى كانت تندفع من جهات مختلفة لانقاذ الملك فقد كان كثير من الانجليز يعملون على انقاذه كما ان كثيرا من ممثلى الدول الاجنبية احتج على الحكم . وارسل البرنس أوف ويلس خطابا الى البرلمان يعرض أى شىء لانقاذ رأس ابيه ولكن كل ذلك ذهب هباء امام الجبار كرومويل الذى ارسل جيشا يحوط منزل فرفاكس القائد العام خشية ان يغير اللورد رأيه فى آخر لحظة فيبرز الى الميدان ليستعمل شخصيته ونفوذه فى انقاذ الملك

وقضى شارل الساعات الأخيرة فى وداع ولديه اللذين كانا فى لندن. وفى صلاة مع جوكسون اسقف لندن

وفى الساعة الواحدة بعد الظهر أخذ الى مكان الاعدام بين صفوف من الشعب وكان يبدو عليه الثبات والتجلد وكانت آخر احاديثه « ان البرلمان هو المسئول الاول عن الحرب لانه بدأ بمهاجمة حقوق العرش . ولذلك فانى استسلم كمسيحى لقضاء الله وعدله »

ثم قال أيضا « إنى اريد الحق للشعب والحرية كاكثر ما يرغب انسان فى ذلك ولكنى يجب أن أقول لكم ان حرية الشعب انما فى أن تكون له حكومة ذات قوانين. وليست فى أن يكون للشعب

حق المساهمة فى الحكومة ،

ثم استسلم للجلاد وقضى عليه بعد لحظات وفصلت رأسه عن جسده فرفعها الجلاد للشعب فصرخ الناس « هذه رأس الخائن! »

فاسدل الستار على قطعة هائلة من تاريخ الحكم المطلق فى العالم كما هدم الحجر الضخم من بناء الاستبداد بالشعب الانجليزى . وكان سقوطه ابتداء عصر جديد لانجلترا التى كان دستورها وليد ذلك العصر قدوة ومثالا لدساتير العالم بل مثلا اعلا للدساتير فى تقدير حرية الشعب وفى قوته وثباته وعظمته وعدم تأثره باى قدر بالغة خطورته ما بلغت .

الحرب الاهلية بقلم المؤرخ الانجليزى المعاصر ديرمونت

موراه Morrah

ابتدأت الثورة باعدام سترافورد وكانت ،كونه من البرلمان والجيش ورعاع لندن

وقد أصدر البرلمان قانونا يمنع حله الا بارادته

ولما قامت الثورة فى ايرلندا كان من الحتم أن يجند الملك جيشا

لاخمادها . فرأى زعماء الثورة ان هذا الجيش قد يستعمل أيضا فى اطفاء ثورتهم

وهنا قام جون بيم John Pym وكان فى ذاك الوقت زعيم البلاد والثورة وقدم فى البرلمان الاحتجاج الاعظم The grand Remonstrance

وكان يحتوى على مائتى مادة مبين فيها ما فعله الملك منذ تولى الملك من السيئات ضد البلاد والبرلمان وما فعل البرلمان لاصلاح هذه السيئات

ومبين فيها أيضا الاصلاحات التى ينوى البرلمان عملها فى المستقبل

وكان الاحتجاج يحتوى أيضا ضمن تلك الاصلاحات على اصلاحات دينية

وبدىء بالمناقشة فى هذه الوثيقة الخطيرة يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٦٤١ وامتلأت دار البرلمان بالأعضاء والناس منذ ساعة مبكرة

وبدأت الجلسة بالاعمال العاديه التى استمرت نحو الى الساعتين. ثم عند الساعة الثانية عشر بدأ بعض الاعضاء يتسللون لتناول الغداء فعلت الاصوات تطالب عرض الاحتجاج على البرلمان

وارسل فى طلب الاعضاء ثم وقف مستر ادوارد هايد Edward Hyde وهو احد المعارضين للاحتجاج وخطب طويلا وكان اهم ماقاله ان مثل هذا الاحتجاج كان يجب ان يقدم للملك لا أن يذاع على الشعب كشرارة لايقاد نار الثورة . ونداء للشعب للقيام بها .

وخطب ايضا لورد فالكلاند Lord Falkland وسيرادوار ديرنج Edward Dering وكذلك سير بينجمان رديارد Sir Benjamin Rudyard مناشدا الاعتدال . وتكلم بعد ذلك بعض الاعضاء

وعند درجة من غليان المجلس وقف بيم Pym والقى خطابا وان لم يصل لنا منه إلا بعض فقرات إلا انه بلا شك من أهم الخطب التاريخية .

وقد أيد « الاحتجاج » ولم يقبل اى تغيير او تحوير فيه

وقبل ان يجلس بيم كان ضوء نهار ٢٢ نوفمبر القصير يتلاشى ويشيع الظلام وتنار مصابيح المجلس .

وقام على اثره كثيرون يؤيدون ويعارضون . ثم وقف دينزل هوليس Dnezi Holles وفى لهجه حماسية قاسية حارة صمم على أن

يوجه الاحتجاج الى الشعب لا الى الملك . ومن هنا كانت الدعوة الى الثورة صريحة لا تتوارى .

وقام كثيرون بعده يخطبون ولكن كلماته كانت قد طبعت أثرها فى النفوس .

وعند منتصف الليل أخذت الاصوات فصودق على الاحتجاج بأغلبية ١٥٩ ضد ١٤٨ صوتا

ولكن الأمر لم ينتهى الى هذا الحد فقد طلب بعض الاعضاء طبع الاحتجاج وعارض بعضهم فى ذلك . كما ان بعض خصوم الاحتجاج طلب ان يثبت فيه اعتراض الاقلية عليه . أضف الى ذلك ان الاعصاب كانت قد توترت بعد مناقشة دامت ثلاثة عشر ساعة. ولذلك سرعان ماهاجت ثائرة الاعضاء فحرك بعضهم القبعات وسل بعضهم سيوفهم من اغمادها . ولولا لطف الله لوقعت مذبحة فظيعة تلطخ بدمها تاريخ انجلترا .وقد قال مستر فيليب واروك أحد اعضاء هـذا المجلس «لقد كنا جلوسا ووقوفا فى ظل للموت»

وعندئذ وقف مستر جون هامبدن وقد كان أكثر الاعضاء ضبطا لنفسه واهدأهم ثائرة يناقش بكل هدوء مستر بالمر Palmer صاحب الاقتراح القائل بذكر اعتراض الاقلية فى نفس الاحتجاج

وقد أنقذت الموقف كلماته الهادئة الرصينة . ثم اعلن بيم ان الاحتجاج لن يطبع حتى يأذن المجلس

وانفرط عقد الجلسة عند الثانية صباحا

ومما يذكر ان كرومويل صرخ في وجه فلاكلاند في أثناء المناقشة قائلا « إنه ان لم يعلن الاحتجاج الى الشعب ، فانه سيبيع كل مايملك وينزح عن انجلترا .

وهو موقن ايضا ان كثيرين من الرجال المخلصين الامناء سيحذون حذوه »

وسرعان مارجع شارل بعد يومين فوقف من البرلمان واحتجاجه موقفا عدائيا هجوميا وهذا ماجعل كثيرين من انصاره في البرلمان ينفضون من حوله . مع أنه كان في امكانه ان يساير رغبات شعبه ويحسن العلاقات معهم .

وتفاقمت ثورة البرلمان وقويت شوكتهم حتى حدث أن منعوا الاساقفة من دخول مجلس اللوردات فاحتج هؤلاء الاساقفة فكانت إجابة البرلمان على الاحتجاج الحكم على بعضهم بالحبس

واشيع ان بيم Pim وجماعة يعملون على اتهام الملكة وتقديمها للمحاكمة بتهمة التآمر مع انصارها الكاثوليك في ارلندا .

وكان من اثر ذلك ان سارع شارل لاتهام زعماء الثوار في البرلمان

وفى الصباح الباكر من يوم ٣ يناير سنة ١٦٤٢ ذهب سير ادوارد هيربرت Sir Edward Herbert الى مجلس اللوردات يقدم اتهام خمسة من اعضاء مجلس العموم وأحد اللوردات بتهمة الخيانة العظمى وهم بيم وهامبدن وهوليس وسترود واللورد مانديفيل. وكانت التهم سبعة .منها محاولة قلب نظام الحكم وتحطيم القوانين الاساسية للدولة وكذلك التحرش باخلاص الجيش ومحاولتهم — بواسطة الاحتجاج الاعظم — تحويل اخلاص الشعب عن الملك. ودعوة قوة أجنبية (الاسكتلنديين) لغزو المملكة . ومنع البرلمان من مباشرة حقوقه بطريق منع أعضاءه من اثبات اعتراضهم على الاحتجاج وإثارة الحرب ضد الملك بالتسليح

وارسل شارل بعض الضباط للقبض على المتهمين الخمسة فهاجموا دار النواب وحاصروا غرف هؤلاء الزعماء الخمسة .

واعتبر مجلس اللوردات — الذى يرى نفسه مختصا بهذه الاجراءات القضائية فى مثل هذه الأحوال — ان ماعمله الملك اهانة موجهة إليهم وصدر قرار برفع الحصار .

وفى الوقت نفسه رفض مجلس النواب تسليم اعضاءه الخمسة.

للمتهمين وقبضوا على الضباط الذين ارسلهم شارل للقبض على المتهمين .

وفي تلك الليلة اجتمع في مقاصير الملكة الملك والملكة والحاشية وكبار انصار للملك وكانت فكرة الملكة التي حاولت اكراه شارل على تنفيذها ان يذهب بنفسه للقبض على الزعماء وكان يعاونها في ذلك لورد ديجبي lord Degby

ولكن شارل رغب عن هذا الرأي . وفي الصباح طارت اشاعة بأن اعضاء مجلس العموم يجمعون الجموع . وبعد قليل امتلأ فناء القصر الملكي بكثير من الفرسان .

وجلس الملك يتناول طعام الافطار مع الملكة التي اشارت له الى الاشاعات والى جموع الفرسان وقالت له « اذهب ايها الجبان Goyou coward وامسك هؤلاء الانذال من آذانهم واطردهم وإلا فلن ترى وجهي بعد الآن .

and pull these rogues out by the ears, or never see my face more

وقبل الملك مشورتها ، لكنه أجل التنفيذ الى ما بعد الظهر .

وقد اخبرت الملكة بهذا لادي كارليزل Lady Caryisle وقد

كانت كشعلبة لها أثر فى كل مجتمع فذكرت ذلك الى لورد ايسيكس الذى نقله الى بيم

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر ذهب الملك الى هناك وقد احيط بحوالى از بمائة رجل مسلح والجمهور مزدحم حول موكبه وعلى جانبى الشوارع. وامرع رجل فرنسى اسمه لانجرس Tangres فنبه رئيس المجلس الذى طلب من الاعضاء الخمسة ان ينسحبوا ففعلوا وساروا الى شاطىء النهر حيث عبروه آمنين الى المدينة قبل أن يصل الملك .

ودخل شارل الى قاعة الجلسة وقد أمر رجاله بالوقوف خارجا ولكن بضعة منهم دخلوا معه. وعندما كان فى القاعة أدار نظره يبحث عن الخمسة ثم قال للرئيس :

« ارجو ان تسمح لى بمقعدك بضعة لحظات ياحضرة الرئيس »

وجلس ثم ظل ينقل نظره بين الاعضاء مدة وأخيراً قال:

« أيها السادة . انى آسف لاقتحامى عليكم الدار بهذا الشكل بالأمس ارسلت بعض ضباطى ليقبضوا على بعض منكم مقدمين بناء على أمرى للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى

إنه لايوجد ملك فى تاريخ انجلترا هو اكثر محافظة على

حقوقكم منى ولكن فى حالات الخيانة العظمى لاحقوق للخائنين ولذلك جئت لأرى اذا كان أحد من المتهمين هنا » وبعد سكوت قصير اضاف قائلا « انى لاأرى أحداً منهم هنا»

وبعد ان تكلم عن الخيانة بضعة كلمات قال « هل مستر بيم هنا ؟ » فلم يرد أحد جوابا فقال ثانية «هل مستر هولِيس هنا ؟» فلم يجاوبه غير الصمت العميق .

التفت شارل الى الرئيس وسأله أن يعرفه اين يوجد هؤلاء الاعضاء .

فأجابه الرئيس لينتال — وكان رجلا مستضعفا خجولا :

« لست املك فى حضرة جلالتكم عينا انظر بها ولا لسانا اتحدث به ولكن حيث ان للمجلس ان يوجهنى أنى شاء وانا خادمه المطيع فانى لاأستطيع ان أجيب على سؤال جلالتكم واطلب العفو من مولاى »

ثم ساد صمت كصمت القبور والموت . وقال الملك بعد ذلك وقد ظهرت عليه امارات الفشل: « انى أرى ان الطيور التى جئت انشدها قد طارت . وانى انتظر منكم ان ترسلوهم الى عندما يرجعون وانى اؤكد لكم — وهذه كلمة ملك — أنى لن استعمل معهم قوة ولكن اسلمهم الى يد العدالة .

وأظن انى لست فى حاجة الى تكرار ما قلته سابقا ان ما فعلته لمصلحة شعبى سأحافظ عليه دائما . لن أزعجكم بعد ولكنى انتظر منكم أن ترسلوهم عندما يرجعون وإلا فسأتخذ اجراءات القبض عليهم

ثم خرج غاضبا وسرعان ما علت الصيحات «حقوقنا . حقوقنا» وفى اليوم التالى نزل الملك الى المدينة للبحث عن الاعضاء فتجمعت حواليه الجموع تنادى (حقوق البرلمان — حقوقنا البرلمانية)

وفى يوم ٦ يناير اجتمع البرلمان فى ال Guildhall يحميه ١٤٠ الف جندى وعندئذ بان تماما انهم بدأوا يعملون على أن يحكموا السيف بينهم و بين الملك

وكذلك وجد الملك أنه باحتياج للحذر والمقاومة فترك قصره الذى لم تره عيناه بعد ذلك حتى الموت وبات هو وزوجته فى Hampton Cours وأخذ يجهز جيشا هو الاخر . وكان هذا ابتداء الحرب الأهلية .

وفى اليوم التالى اجتمع أعضاء مجلس النواب وبينهم الخمسة المتهمون فى موكب حافل وعبروا النهر ثم وصلوا الى دار البرلمان فى ذلك الموكب الظافر

عهد الجمهورية ١٦٤٩ — ١٦٦٣

أوليفر كرومويل (ولد ١٥٩٩ عين محافظا عاما Lord Protector ١٦٥٣ — ومات ١٦٥٨)

ابتدأت انجلترا بعد ذلك عصرا جديدا. ظلت حكومتها مدى أحد عشرة عاما جمهورية . وكان البرلمان عبارة عن جزء من البرلمان الطويل وقد محى مجلس اللوردات محوا كما محيت الملكية . وكان يشرف على ادارة حكومة الجمهورية مجلس من و حدو أربعين عضوا يرأسه مستر برادشو Bradshaw أحد زعماء الثوره سكرتيره جون ملتون John milton وكان قائد الجيش كرومويل وفيرفاكس وقائد الاسطول سيرها ى فان Sir Harry vane

ولكن الواقع أن كرومويل بجنوده كان الحاكم الاصيل الحقيقى للبلاد .

ولاقى كرومويل فى أول عهده صعوبات جمه . فقد كان عدد نوابه قليلا وكان الاكثرون يحنون للملكية . وكان عدد الجنود الذين يناصرونه أيضا بجرأة ويقيز وحماس قليلا بالنسبة لمن يميلون للملكية حتى أن فيلقا من الجيش كان جنوده يسمون أنفسهم Levellers

ثاروا فى وجه كرومويل . ولكنه بقوته وعظمته وعزيمته الفولاذية أطفأ ثورتهم كما جعل الأمة تدين له بالطاعة غير متناسيه أنه بطل الحرية الذى هدم الظلم وهد الطغيان وزلزل الاستبداد وحطم التاج المستبد .

وكان أول ما لاقى ثورة ايرلنده التى أبت أن تذعن له وكانت ثائرة باستمرار منذ مذبحة سنة ١٦٤١. وكان زعيم الملكيين فيها للمركيز أرموند يضع يده على معظم حصونها وقد نادى فيها اللوردات بشارل الثانى ملكا وحشدوا جيشا كبيرا لمناصرته ولم يكن يناصر البرلمان والجمهورية فيها سوى دبلن وبلفاست فسار اليها كرومويل وعسكر بقرب دبلن فى ٩ آلاف مقاتل . وكانت تلك القوة فى الواقع ضئيلة بالنسبة لجيش العدو ولكن الجنود المملوءة صدورهم ايمانا بعدالة ما يحاربون فى سبيله وعلى رأسهم كرومويل نبى الحرية والمثل الاعلا لصدق العزيمة وقوة الشكيمة ما كانوا ليعرفوا معنى للصعوبة فى تحطيم جيش مهما كان لجبا محشودا .

وفى ستة أشهر تمكن كرومويل من هزم الجيش الملكى بايرلندة ثم أذاق الايرلنديين ألوانا من الإيلام والعذاب والتنكيل

ولم يترك سبيلا للرحمة والشفقة عليهم . فقد كان يضرب أعناق فرق من الجيش بأكملها. وكانت تخلى من سكانها مدن بأجمعها . وكان الكاثوليك يفرون جماعات من وجه عدوهم الألد يعتصمون بقنن الجبال ولا عاصم من فتكه !

ولقد كانت ضرباته فيهم بحيث لا تنسى فهى لا تزال ترن فى عظام وأعصاب كل ايرلندى الى الآن حتى أنك لتسمع فى ايرلندا من شتائمهم وتمنياتهم السيئة قولهم « عليك لعنة كرمويل The curse of Cromwell on you

وبعد أن نفض كرومويل يده من ثورة ايرلنده رجع الى لندن حيث قوبل بالاحتفال والتعظيم والاجلال وأنتخب القائد الأعظم لجيوش الجمهورية .

وثار الاسكتلنديون على الجمهورية ونادوا بشارل الثانى ملكا ودعوه للذهاب اليهم . فرفض أولا ولكنه رجع فذهب اليهم فى ٢٣ يونيه سنة ١٦٥٠ وقوبل فى أدنبرة مقابلة فخمة .

فلم يضيع أوليفر كرومويل كعادته يوما من وقته بل أسرع اليه .

وحطم جيوشهم تحطيما فظيعا وفتح أدنبره وجلاسجو بسهولة وفى سبتمبر سنة ١٦٥١ تلاقى جيش كرومويل بجيش شارل الثانى فهزم شارل هزيمة منكرة وتبعثر جيشه وفر هو هائما على وجهه يختبئ بين أغصان الاشجار والغابات من رجال كرومويل الذين كانوا يبحثون عنه ثم انحدر الى الشاطئ وفر فى مركب فحم الى فرنسا . ودانت اسكوتلندا لحكم الجمهورية وعين القائد مونك Monk حاكما عليها

ثم قامت حرب بين انجلترا وهولندا وتغلب الاسطول الانجليزى على الهولندى وطلب الهولنديون السلام وايقاف الحرب ولكن البرلمان رفض انهاء الحرب — لانه كان يريد أن يجعل من الاسطول قوة تتوازن مع الجيش الذى يحركه كرومويل . وفهم كرومويل المسألة فحرض ضباطه على أن يطالبوا بمال لهم . فرفض البرلمان وقال إن اعطاء هذا المال يعتبر خيانة

ففى يوم ٢٠ ابريل سنة ١٦٥٣ قصد كرومويل البرلمان فى ٣٠٠ فارس تركهم خارج الدار ودخل فاتخذ مكانه بين الاعضاء .

وابتدأت المناقشة فرمى البرلمان بالظلم والدناءة Profanity . وعندما قام بعض الاعضاء ليردوا عليه . وقف وامسك قبعته يطوح بها

فى الهواء بيده ونادى « اذهبوا ودعوا مقاعدكم لمن هم أكثر أمانة منكم » ثم ضرب الارض بقدمه فتدفق الفرسان الى الداخل فأمرهم بأن « يطردوا هذه الالاعيب الخشبية ! »

وسرعان ما خلت القاعة واغلق كرومويل بابها ووضع المفتاح فى جيبه . وكان هذا أول تسريح للبرلمان الطويل وبعد قليل اجتمع بالبرلمان ١٤٠ عضوا اجددا انتقاهم كرومويل من أنصاره الملتهبين تحمسا له وبذلك تكون البرلمان المعروف باسم ' Barebones Parliament سخرية به ثم حل هذا البرلمان نفسه بعد تفويض كل سلطة لكرومويل فتجمعت السلطة بعد ذلك فى يد كرومويل . وقد أهدى له فى كنيسة وستمنستر سيف وانجيل . وأصبح فى الواقع حاكم انجلترا ثم استدعى باسمه برلمانا جديدا حرا وأعلن حرية الاديان .

ويظهر أنه كان يريد الحكم بالدستور القديم ولكن سرعان ما اصطدم بالبرلمان الجديد بخصوص الاعانات فحله قبل أن يصدر قرارا واحدا

وسعدت أحوال انجلترا بعد ذلك فأوقفت الحرب بينها وبين هولندا

بشروط فى صالح انجلترا منها أن يطرد شارل الثانى من هولندا وقد قطع دابر القرصان الذين كانوا يعاكسون الملاحين الانجليز وأعطت لهم اسبانيا جزيرة جمايكا وعاش البروتستنت فى كل مكان فى ظلال حماية كروميل وسعى مازاران لصداقة كروميل

وقد دعا مجلس العموم بعد سنة ونصف فى سبتمبر سنة ١٦٥٦ وقد أراد أن يكون مجلس لوردات جديد ولكن اللوردات كانوا من خصومه فلم يمكن التوفيق بينه وبينهم فملأ مجلس اللوردات من جماعة لا نسب لهم من «تجار البراميل والجزمجية» الذين تركوا حرفهم وساروا تحت رايته

وقد اقترح مجلس العموم أن يعطى كروميل لقب ملك ولكنه رفض مفضلا أن يعطى الحق فى أن يتوج ابنه بعده

ولما اراد أن يجعل مجلس العموم يوافق على تكوين مجلس اللوردات «صنع يده» رفض لحله وظل الى عام ١٦٥٨ يحكم منفردا وكانت اياما سوداء وتتالت المؤامرات عليه . وقد اقترح بعضهم قتله فتحرز وكان يملأ ثيابه بالمسدسات والبنادق وقد أثر فى نفسه وفاة

احدى بناته . ثم مات فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٥٦

وقد تولى الامر بعده ابنه ريتشارد Richard وكان شابا هادئا معتدلا . ولكن الجند الذين كانوا يقدرون عظمة وقوة كرومويل ثاروا على ابنه فخلع بعد خمسة اشهر .

وأرجع الجيش أعضاء البرلمان الذين طردهم كرومويل . ولكن سرعان ما قام الخصام بين الجيش والبرلمان فطرد البرلمان وأصبح الموقف دقيقا . وانه لموقف من أدق المواقف فى تاريخ انجلترا فقد طغت سلطة الجيش كأيام روما الاخيرة .

وقد انحدر مونك من اسكتلندا بجيش بلغ ٧ آلاف مقاتل ودخل لندن وأعلن انتخاب برلمان حر . وقد بانت بعد اجتماع البرلمان الحاجة الى الملك . وبان اتجاه عواطف الشعب والبرلمان الى استقدام مليكهم المنفى وحالما أعلن مونك فى يوم من الايام فى البرلمان أن الملك شارل ينتظر الاذن بالقدوم علت أصوات الفرح وارسلت اليه دعوة حارة فرجع بعد ان كان يائسا .

شارل الثانى

(ولد ١٦٣٠ . بدأ يحكم ١٦٤٩ واسترجع الى العرش ١٦٦٠

ومات ١٦٨٥

توج شارل الثانى ملكا فى مايو ١٦٩٠ وكان فى ذاته مشربا بالروح الاستبدادية التى كانت لأبيه. ولكنه كان يمتاز عنه بتكالبه على تاجه وزهده فى فقده . ولذلك وضع نصب عينيه ان لا يعمل على اغضاب الشعب واثارة فتنة ضد عرشه

ولكن الذى كان واضحا تمام الوضوح هو تسيطر الكنيسة على السياسة الداخلية . ورجوع سلطة رجال الكنيسة الى ماكانت عليه وقد اصدر البرلمان الثانى مجموعة من القوانين تبين تماما روح العداء التى كانت ضد البيوريتان منها تحريم وظائف البلديات على كل من يخالف مبادىء الكنيسه الانجليزية . ومنها القانون الذى قضى بحرمان كل قس رزقه اذا لم يكن مؤمنا بكل ماجاء فى كتاب الصلوات بحذافيره . وامام هذا تكونت جماعة من البروتسنت واسمت نفسها المخالفين Dissenters . وقد حرم بمقتضى ذلك القانون حوالى الف واربعمائة قس

وتجمعت السلطة فى يد شارل ومنحه برلمانه الأول وكان معتدلا مبلغ مليون ومائتى ألف جنيه

وقد كان شارل الثانى متلافا . مستهترا . عابثا باللذات والحياة ولذلك كان دائما فى حاجة ملحة للمال حتى أنه تزوج كاترين البرتغاليه طمعا فى مالها إذ أصاب دوطة قدرها نصف مليون جنيه وقلعتان وأملاك فى بومباى ومراكش

ودخل شارل فى حروب كثيره . وكان عام ١٦٦٥ عام طاعون ومجاعة وفيضان خرب منازل لندن وأنبت العشب فى شوارعها كما شبت فى العام الثانى نار هائلة فى لندن أيضا .

وقد حطمت التماثيل التى أقيمت ايام كروموبل واغلقت محلات اللهو وطغت موجه طائشة سخيفة من الكاثوليكية المتعصبة على الحياة الانكليزية فاغرقت جمالها ومحاسنها وحرياتها . .

وكان الملك اثناء ذلك يعيش فى وسط شهوانى فظيع بين نسوة من طبقات غير عاليه . كان لتدخلهن أثر فى سياسة الدولة إذ ذاك .

وكان اعضاء البرلمان فى هذه الفوضى الاخلاقية والاجتماعية

يبدون أصواتهم . وامتدت الفوضى الى السياسة الخارجية

وكان الملك يتسلف النقود من افراد الشعب بربا

وقد فكر رئيس وزارته السير وليام تيمبل Sir william Temple ان يخترع مجلسا من ثلاثين عضوا يكون وسطا بين الملك والبرلمان ولكن الفكرة فشلت

وقد ظل البرلمان الاول منعقدا تسع سنوات ثم حل فى سنه ١٦٧٩

وعند انعقاد البرلمان الثانى وافق على الهابيس كوربيس Habeas Corpus وبعد ذلك اطلقت الحرية للصحافة الانكليزيه امدا قصيرا

وحكم شارل بعد ذلك كملك مطلق لان برلمانه الثانى كان أطوع له من بنانه ثم مات سنة ١٦٨٥ بعد ان اعلن كاثوليكيته

جيمس الثانى وانقلاب سنة ١٦٨٨

ولد (١٦٢٣ وبدأ حكمه ١٦٨٥ وخلع ١٦٨٨ ومات ١٦٠١)

اعلن جيمس عند اول اجتماعه بالبرلمان انه سيحكم البلاد بمقتضى القوانين . وانه سيحافظ على الكنيسه الانجليزية وقد قرر البرلمان منحه مبلغ مليون وتسعمائة الف جنيه

ولكنه ثار ثورة باطشة على مخالفى مذهبه الدينى

وبلغت ثورته على مخالفيه فى المذهب اقصاها فلم يتحرج عن المحاكمة والمعاقبة باى شكل . واصدار القرارات والقوانين القاسية وقد كانت تغريه على ذلك وتساعده زوجته ماري مودنيا الكاثوليكية

وقد كان لجيمس ابنة تسمى (مارى) رزقها من زوجته الاولى وكانت بروتستنتيه وكانت رغبة الشعب أن تكون هذه الابنة البروتستنتية ملكة بعد ابيها ولكن جيمس رزق ولدا من زوجته الكاثوليكية فقطع الامل فى اعتلاء مارى العرش بعد ابيها

فاذا أضفت القسوة والفظاعة اللتين استعملهما جيمس مع مخالفيه فى المذهب وانقطاع هذا الأمل السالف الذكر الى رغبة جيمس فى سحق روح الامة الدينية بالجيش وحمله على تنفيذ ذلك باحضار وحدات من الجيش الايرلندى الكاثوليكى . امكنك ان تتصور تجمع وتكون كراهية الامة لجيمس . يشترك فى ذلك الجيش والشعب.

وأتلف حزبا التورى والهويج (المحافظين والاحرار) امام جيمس وكتب الشعب والبرلمان الى البرنس وليم أوف أورنج ناساو William of Orange Nassau ابن أخ جيمس يطلبون منه القدوم فى جيش لكى يساعدهم على حماية حرياتهم ومعتقداتهم. وشرع وليم فى غزو انجلترا والشعب الحانق المغيظ من ملكه

المستبد يترصد لذلك الملك لمستبد وعلى الاستعداد للترحيب بالمنقذ
وحامي المذهب البرتستنتي The Champion of the Protestant Faith

وقد أخذ جيمس يستعد لهذا الغزو ولكن بدون جدوى فقد فقد مناصرة شعبه واذا فقد الملك مناصرة شعبه فقد خلت يداه من الغزو والنصر والبقاء!

على أن سياسة اورنج كانت ترمي الى العمل على حقن الدماء، فلم يعمل على المهاجمة بل تريث في الامر

وقد رأى الملك أن لا قبل له على الوقوف أمام الجيش الغازي، والشعب الكاره فعمل على الهرب وأرسل زوجته وابنه الى فرنسا ثم حاول الهرب ليلا في مركب في نهر التاميز وسرعان ما قبض عليه بعض الصيادين وبقرار من مجلس اللوردات ارسل الى لندن، ثم ارسل الى روشستر. ولكنه هرب الى سان جرمان حيث رحب به لويس. وفي هذه الاثناء دخل وليم اورنج لندن بين التهليل والهتاف والاحتفال العظيم وقد لبس كل فرد من الشعب شريطا برتقاليا اشارة الى كلمة Orange

ودعى وليم البرلمان الى الاجتماع وسمى المجلس عندئذ Gonvetion،

لأن وليم لم يكن ملكا حين دعاه . وقد اراد أن يحافظ على التقاليد الدستوريه فلم يشأ أن يسمى المجلس « برلمانا »

واعلن البرلمان خلو العرش ثم قامت مناقشات حول من يولى العرش فاقترح ان يعلن تتويج مارى ملكة وزوجها وليم ملكا لمدة حياته فقط ولكن وليم رفض ذلك مفضلا ان يرجع هولندا عن ان يعيش ملكا على حساب زوجته !

فاصدر البرلمان وثيقة سماها اعلان الحقوق The Declaration of Rights أبان فيها كيف نال جيمس من حقوق الشعب وتقرر فيها تتويج وليم اورنج ملكا ومارى ملكة على انجلترا على ان يكون الأمر بيده وعلى ان يقبل الملكان التكفل بمراعاة حقوق الشعب فى نظير توليتهما العرش وقبل الملكان هذا الشرط

وانتهت بذلك الثورة الانجليزية العظمى وانتهت اسرة ستيوارت المستبدة وانتهى النزاع بين الملكية والشعب على تكوين جزء كبير من الديموقراطيه التى تمتع بها انجلترا الآن من تقسيم الدولة الى ثلاث سلطات الملك ومجلس اللوردات ومجلس

العموم وعلى أساس هذا التقسيم وعلى أساس المواثيق والعهود التى نالها الشعب يقوم الدستور الانجليزى الحالى . الذى يعطى الشعب كل السلطة والملك لا يحكم

وظل الشعب الانجليزى بعد ذلك ينال فى فترات بعض الحقوق التكميلية كما نال بعد ذلك حق وضع حد لسلطة الملك لا يمكن ان يتجاوزه

وفى عهد وليم نال البرلمان ثلاث خطوات نحو توسيع اختصاصه من سلطة العرش

وبمقتضى هـذا القانون لا يمكث أى برلمان أكثر من ٣ سنوات Triennial Bill

وبذلك لا يمكن أن يكون الملك سلطانا عليه ليغريه بالبقاء

وحـدد به مصاريف الملك بمبلغ سبعمائة الف جنيه The civil List

على أن يترك أمر الجيش والاسطول والحكومة ليقرر مجلس العموم له الميزانية اللازمة

وبهذا القانون ايضا — الذى يشبه أعلان الحقوق — أصبح من المقرر أن يبقى القاضى فى منصبه طول عمره بأجر ثابت.

وان ملوك انجلترا يكونون على المذهب البروتستانتى وأنهم لا يمكن أن يتركوا أملاكهم إلا برضاء البرلمان.

مراجع الفصل الفائت

Hallam

Hume

The Cambridge modern history

The Historian s' history of he wld

Adams. The constitutional histor of England

Maureau, precis

Dicy

مبادىء الدستور ـ دكتور وايت

كتاب عبد اللطيف بك غربال

الفصل الرابع

الدستور الامريكى

يعد الدستور الامريكى أول الدساتير الديمقراطيه المسطوره écrit التى صدرت من جمعيات وطنيه أو من هيئة ذات سلطان على شكل قانون . ولا يسبقه فى الوجود غير الدستور الانكليزى غير ان الدستور لانكليزى دستور غير مسطر non ecrit لم يصدر فى صورة قانون من هيئة ذات سلطه شرعية

ويعد الدستور الامريكى ثمرة من ثمرات التفكير الحر الديمقراطى الذى قاد حملاته مفكرو فرنسا وانجلترا فى النصف الاخير من القرن الثامن عشر

كما يعد هو والثورة التى أتت به سببا من اهم اسباب الثوره الفرنسية التى جاءت الى العالم بدستور الحريات . وسنلم المامة قصيره باهم مبادىء هذا الدستور ونعقب ذلك بتفصيل جهاد الامريكيين فى سبيل الحصول عليه .

وقد صدر الدستور الاول فى ١٧ سبتمبر سنة ١٧٨٧ ثم عدل بعد ذلك مرات عديدة لمناسبات خاصه فى سنة ١٧٩١ وسنة ١٧٩٨

وسنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٦٨ وسنة ١٨٧٠ وسنة ١٩١٣ وسنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٠

الولايات المتحدة الامريكية عبارة عن اتحاد عدة ولايات تبلغ الثمانية والاربعين ولاية اتحادا هو أقرب الى الاتحاد المركزى وإن كان يختلف عنه بعض الاختلاف الضئيل .

والاتحاد المركزى هو عبارة عن اتحاد بضع دول أو ولايات على تركيز السياسة الخارجية فى قبضة حكومة مركزية وتركيز السياسة الداخلية إلى حد محدود فى قبضة الحكومة المركزية أيضاً إلا شيئا من السلطة قليل تملكه حكومة كل ولاية أو دولة يكفل لها القدرة والقوة لتنفيذ عهد الاتحاد

على أن الولايات المتحدة لها حكومة مركزية رئيسية يمتد سلطانها فى الخارج والداخل فهى تمثل مصالح الاتحاد المشتركة فى الخارج وتملك وحدها حق اعلان الحرب وعقد الصلح ؛ قراراتها نافذة فى حكومات الدول المتحدة وعلى الولايات المتحدة مباشرة غير أن دول الاتحاد ليست مجرد تقسيم ادارى كمديريات أو مقاطعات وانما لها اختصاص مستقل على رعاياها فى بعض الشئون .

ولقد فرق الدستور الامريكى بين الشئون التى تهم الاتحاد ككتلة The Commonwealth وبين الشئون التى تهم كل دولة من دول الاتحاد على حدة

والولايات المتحدة حكومة جمهورية

وتنقسم فيها السلطة الى ثلاثة أقسام . السلطة التنفيذية . والسلطة التشريعة . والسلطة قضائية

السلطة التنفيذية

يتولاها رئيس الجمهورية مع مجلس وزراء مكون من وزراء عشرة يدير كل منهم شئون وزارته ويكون مسئولا مباشرة أمام رئيس الجمهورية لا أمام البرلمان والذى لا يجوز له اسقاطهم

وهذا ميزة من ميزات الدستور الامريكى ينفرد بها دون دساتير العالم الديموقراطية .

وليست مسئولية الوزراء امام رئيس الجمهورية دون البرلمان استلابا لحق من حقوق البرلمان أو الامة أو انتقاصا لتلك الحقوق ولكنه تقليد محاط بضمانات قوية أهمها رقابة البرلمان - ومجلس الشيوخ خاصة . على رئيس الجمهورية واشتراكه معه فى كل شئونه تقريبا .

والوزراء فى الولايات المتحدة فى الواقع عبارة عن رؤساء مصالح يديرونها وليس بينهم رابطة وليسوا أعضاء فى مجلس التشريع .

رئيس الجمهورية

ينتخب رئيس الجمهورية مندوبون من كل ولاية ينتخبون طبقا لقانون الانتخاب البرلمانى وعددهم يساوى أعضاء مجلس النواب والشيوخ ومهمتهم فقط انتخاب رئيس الجمهورية .

وقد اشترط فى هؤلاء النواب أن لا يكونوا من أعضاء البرلمان ولا موظفى الحكومة لضمان البعد عن الأهواء الحزبية

ومدة الرئاسة اربع سنوات يكون الرئيس فيها غير قابل للعزل إلا بطريق الاتهام البرلمانى impeachment وذلك فى حالات ارتكابه جريمة الخيانة العظمى أو الرشوة أو جريمة من الجرائم التى تعتبر هامة وماسة بالشرف بما فى ذلك الجنايات والجنح الكبرى العادية ولو كانت — على الرأى الراجح — غير معاقب عليها بمقتضى قانون العقوبات ولكنها ماسة بالمصلحة العامة

واتهام الرئيس يكون من مجلس النواب امام مجلس الشيوخ الذى ينعقد بهيئة محكمة عليا يرأسها قاضى قضاة الدولة ويشترط أن يكون قرار الادانة صادرا من ثلثى الاعضاء

وينتخب مع الرئيس وكيل بواسطة نفس الناخبين وبالشروط والاجراءات نفسها. هو فى الوقت نفسه رئيس مجلس الشيوخ ويحل محل الرئيس الى آخر مدة الاربعة سنين اذا توفى الرئيس أو عزل .

والرئيس هو القائد الاعلى للقوات البرية والبحرية وفرق المتطوعين (الميليشيا)

وللرئيس حق عقد المعاهدات بعد اتفاق مجلس الشيوخ عليها وتصديقه

وله أيضا حق تعيين السفراء والقناصل وقضاة المحكمة العليا وجميع كبار الموظفين بشرط الحصول على رضاء وتصديق مجلس الشيوخ وحق العفو عن الجرائم إلا التى تستدعى اتهاما برلمانيا. وحق دعوة مجلس التشريع لجلسات فوق العادة وحق الفيتو Veto وهو المعارضة فى اصدار قانون وافق عليه البرلمان فى ظرف عشرة ايام فاذا وافق المجلسان من جديد على القانون باغلبية ثلثى الاعضاء نفذ القانون رغم معارضة رئيس الجمهورية

السلطة التشريعية

يتولاها رئيس الجمهورية مع مؤتمر congress مكون من مجلس الشيوخ Senate والنواب House of representatives

وينتخب اعضاء مجلس النواب بطريق الاقتراع العام لمدة سنتين. وينتخب الرئيس Speaker لمدة السنتين ولا يقترع المجلس على عدم

الثقة بالوزارة ويجب أن تقترح فيه المسائل التى تمس المالية أولا ثم يجوز لمجلس الشيوخ تعديله

ويشترط فى النائب أن يكون عمره ٢٥ سنة وأن يكون مقيما فى الولايات المتحدة مدة سبع سنوات . ولا ينتخب إلا فى دائرة موطنه . ويشترط فى الناخب أن يكون عمره ٢١ سنة — وللنساء حق الانتخاب ويشترط بعض الولايات معرفة القراءة والكتابة وينتخب أعضاء مجلس الشيوخ اثنين عن كل ولاية كبرت أم صغرت دون اعتبار لعدد سكانها وهذا تقليد معقول وعادل حتى يمكن أن تحفظ حقوق الولايات الصغيرة أمام الولايات الكبيرة

وينتخب بالاقتراع العام لمدة ست سنوات ويتجدد ثلث هذا المجلس كل سنتين . ويشترط أن يكون العضو قد أقام بالولايات المتحدة تسع سنوات وأن يكون بالغا الثلاثين على الاقل

وقد رأينا أن لمجلس الشيوخ سلطة واسعة ويكاد يشترك مع رئيس الجمهورية فى كل اختصاصاته

وينعقد المجلس بهيئة محكمة عليا للفصل فى احوال الخيانة العظمى وغيرها التى تنسب الى الموظفين

ولا يجوز لعضو أى المجلسين أن يتولى أى وظيفة مدنية مدة

عضويته ولا الوزارة ولذلك كثيرا ما تجد وزراء ليسوا من أعضاء الاحزاب الغالبة فى المجلس

السلطة القضائية

يمتاز الدستور الامريكى دون دساتير العالم بنصه على رقابة المحاكم على القوانين التى يصدرها البرلمان بحيث أنه لو رأى القاضى أن قانونا قد صدر باطلا فمن اختصاصه أن يقضى ببطلانه اذا عرضت عليه خصومة يدور النزاع فيها على الفصل فى هذه النقطة وهكذا يكون للمحاكم فى الولايات المتحدة حق بحث مشروعية القوانين التى تصدرها السلطة التشريعية

ويوجد بالولايات المتحدة خمسة أنواع من المحاكم هى

(١) المحكمة العليا Supreme court

(٢) محاكم الاستئناف The circuit of appeals

(٣) المحاكم المتنقلة The Circuit Courts

(٤) محاكم الاقاليم The District courts

(٥) محكمة الحقوق The court of claims

ويعين رئيس الجمهورية القضاة بعد تصديق مجلس الشيوخ وهم غير قابلين للعزل الا بطريق الاتهام البرلمانى .

تاريخ الدستور الامريكى

تاريخ الدستور الامريكى من أهم تواريخ الدساتير فى العالم لانه أول دستور مكتوب صدر . فكان أساسا للدستور الفرنسى كما اقتبس منه الانجليز كثيرا من قواعدهم الدستورية

والدستور الامريكى فى الواقع ثمرة لتفكير المفكرين وقادة الرأى اجيالا بأكملها .

وإن جهاد الامريكيين فى سبيل الحصول على الدستور جهاد عنيف يفوق جهاد أية أمة من الامم لأنه سجل لاول وآخر مرة الى الآن انهزام بريطانيا هزيمة حربية منكرة تحطمت فيها جيوشها تحطما يخزى منه الانجليز كلما اطلت عليهم ذكراه من صفحات التاريخ واعماق السنين الغابرة .

والدستور الامريكى واستقلال امريكا هما توأمان ولدتهما الثورة الامريكية .

فهو ابن جهاد الشعب ضد أمة مستعمرة . استلبه ذلكم الشعب الكريم بالسيف والمدفع ودفع ثمنه دما غاليا وأرواحا كريمة

ولم يكن جهاد الشعب الامريكى فى سبيل الدستور موجها ضد جيوش انكلترا المستعمرة فحسب ولكنه كان موجها ضد المستعمرين فى امريكا واصحاب المبادىء الرجعية والاستعمارية فى انجلترا .

ولقد كان ينصر الامريكيين كثيرون من احرار انجلترا وأصحاب الاراء المشبعة بالحرية والعدالة . وقد كان ممن يقاومون فكرة الحرب مع امريكا وليم بت وزير انكلترا الاكبر — لورد اوف شاتام — وقد كان — وقد كبرت به السن - يقوم بنصيبه من الخدمة العامة فى مجلس اللوردات

ولقد قال فى هذا الصدد ميللين شامبرلن « ان الثورة الامريكية ليست حادثا يقص ولكنها جزء متمم لتاريخ انجلترا فى كلا القارتين وكان لها تأثير عظيم على تاريخ الجنس البشرى اطلاقا .

أما عنها كجزء من التاريخ الانجليزى فقد اثرت تأثيرا عظيما فى دستور انجلترا بما مهدت لنقل حقوق التاج للبرلمان

ولم تكن الثورة الامريكية حربا بين امتين ولكنها كغيرها من الحوادث التى قدمت النزاع الانجليزى . كانت حربا بين حزبين : المحافظين فى كلا المملكتين والاحرار ايضا فى كليهما

وإن بعض مواقعها الماثلة قد اتخذ ميدانه فى البرلمان الانجليزى وكل الكتاب الانجليز تقريبا ينحون هذا المنحى ولعلهم يريدون أن يخففوا كثيرا من ثقل الهزيمة على تاريخهم !

المعروف أن انجلترا قد استعمرت اكثر اجزاء امريكا ومن هذه الاجزاء الولايات التى انضمت فى حركة استقلالها واسمت نفسها الولايات المتحدة الامريكية

وكان أهل هذه الولايات من الانجليز الممتازين بتشرب نفوسهم لمبادىء الحرية . ولعل أهم أسباب هجرتهم من انجلترا كانت ترجع الى اضطهادهم سواء فى عهد اسرة ستيوارت أو فى عهد كرومويل

وكان هم انجلترا من مستعمراتها فى امريكا استغلالها الى أقصى حد د الاستغلال . ولذلك كانت تصدر لهم منشورات الملاحة . وكلها قيود ثقيلة على التجارة الامريكية .

فلقد كانت تلك المنشورات تقضى على المستعمرات بان لا تعامل غير انجلترا ولا تستورد كل حاجياتها إلا منها . ولا تصدر من بضائعها إلا اليها . ولئن خضعت المستعمرات عهدا لذلك إلا انها كانت دائمة التألم وابداء السخط على هذه القيود حتى انتهى بها الامر الى استعمال طرق التهريب بكثرة ومجازفة

ولقد كانت هذه المستعمرات تستمتع بنصيب قليل من الحكم

الذاتى . ولكنها كانت دائما تطمع فى الاستقلال وكان اكبر خوفها من الفرنسيين فى كندا ولذلك كانت تقبل حكم انجترا على اعتبار ان انجلترا كفيلة بحمايتها من فرنسا .

فلما هزمت فرنسا فى حرب السبع سنين وخرجت من كندا لم يعد هناك خوف منها ولا رجاء فى حماية انجلترا .

وكان أول ما عملته انجلترا بعد الحرب أن ارسلت اسطولا الى سواحل امريكا لمنع التهريب . ولم تقتصر على ذلك . إذ أنه كان من نتائج تلك الحرب التى استمرت سبع سنوات بين الجيش الامريكى والانجليزى والجيش الفرنسى والتى انتهت بتوكيد ملكية امريكا الشمالية للتاج البريطانى ان خسرت انجلترا خسائر جمة اثقلت كاهلها كما خسر أهل المستعمرات كثيرا من المال والرجال — ثلاثين الفا من المقاتلين .وستين مليون دولارا - لذلك فقد أخذ البرلمان الانجليزى فى فرض ضرائب جديدة على أهل المستعمرات الانجليزية فى امريكا وكانت هذه المستعمرات عبارة عـ ثلاثة عشر ولاية تقع بين حدود كندا والمكسيك .

فرض الضرائب

ولما كانت انجلترا فى ذلك الوقت قد مرت باربعة حروب فى مدى سبعين عاما .

وما كلفت هذه الحروب من ديون . كما كلفها الاستعمار كثيرا أيضا لذلك فقد رؤى أن تعوض هذه الخسائر والديون من المستعمرات مباشرة بواسطة فرض الضرائب

ولم يكن فرض الضرائب على أهل المستعمرات جديدا عليهم فلقد أثقل كاهلهم من زمن بعيد بمختلف الضرائب التى كانت تفرض على انواع التجارة ولكن الوزارة الانجليزية لم تقنع بالضرائب القديمة ففكرت فى فرض ضرائب أخرى على الدخل أو الايراد .

ولكن أهل المستعمرات كان قد انقض ظهرهم حمل هذه الضرائب ولذلك عندما صوت البرلمان (فى سنة ١٧٦٤) على فرض الضرائب تملك الأسى هؤلاء البؤوسين المستعمرين

الاحتجاج

وانبعثت الاصوات محتجة . معارضة صارخة وكتب فى ذلك الحين جيمس أوتس JamesOtis يقول (إن الدستور البريطانى ينص على أن كل فرد من أهل الممتلكات حر وأنه لا يمكن أن تفرض اية ضريبة على جزء من املاك صاحب الجلالة بدون رضاء أهله)

وقد وصف هذا الكتاب اللورد مانسفيلد بقوله (أن هذا الكتاب ملىء بالوحشية) ولكن الوحشية هذه شاعت فى افراد المستعمرات حتى بذرت فيهم البذور لطلب الحق فى الاستقلال وسرعان ما كان

للاحتجاج و الاعتراض صدى فى كل مستعمره على حدة.

ولكن هذه المعارضة السلمية الضعيفة لم تؤثر شيئا فى عزم الوزارة الانجليزية

ضريبة الدمغة

واقترح فى البرلمان قانون بفرض ضريبة دمغة Stamp سنة ١٧٦٥ يقضى على أهل المستعمرات بكتابة كل عقودهم و وثائقهم على اوراق عليها علامة الدمغة وهذه الاوراق ترسل من انجلترا وتباع فى امريكا بثمن معين محدد وقد عارضه فى لندن التجار الذين يتعاملون فى التجارة الامريكية والتمسوا عدم اقراره ولكن رفض هذا الالتماس كما رفضت احتجاجات جمعيات المستعمرات على اعتبار ان القوانين الخاصة بالمالية لا تقبل فيها التماسات.

فى البرلمان الانجليزى

وقد وقف فى البرلمان الانجليزى مستر بار Barre وهو عضو خدم فى امريكا طويلا يعارض القانون معارضة شديدة فرد عليه الوزير تونشيند Townshend. قائلا (إن أهل المستعمرات اطفال زرعتهم عنايتنا وغذتهم رحمتنا ورحمتهم جيوشنا وسيوفنا)

فرد عليه مستر بار قائلا (زرعتهم عنايتنا؟! كلا لقد زرعهم ظلمكم وطغيانكم... غذتهم رحمتكم ؟ لقد ترعرعوا فى برودة من

املاكم . . وحماة جيوشنا ؛ ان ابناء الحرية هؤلاء قد حملوا السلاح دفاعا عنكم)

ولكن القانون صودق عليه فى ٢٧ فبراير من ذلك العام ولم تجد اية معارضة فى مجلس اللوردات شيئا

الصدى فى أمريكا

وصلت انباء التصديق على القانون الى فيرجنيا وكانت جمعيتها منعقدة فوقف باتريك هنرى Patrick Henry وانكر أى حق فى ضرب الضرائب على الولاية من اية جهة كانت غير جمعيتها

لكل قيصر بروتس

ثم حمى وطيس المناقشة وفى اثناءها صرخ هنرى :

« لكل قيصر بروتس وقد كان لشارل الاول كروموبل أما جورج الثالث فيجب أن يتعظ به ! »

وصرخ صوت قائلا « هذه خيانة »

فرد عليه هنرى صائحا « اذا كانت هذه خيانة فلنبلغ أقصاها الى الخيانة ايها الاخوان »

ووافق المجلس على الاحتجاج واقرار عزمهم باغلبية ساحقة ضد صوت واحد!

* * *

الهياج

وقبل ان تصل أوراق الدمغة الى امريكا ثار الهياج فى بوسطن وهاجم الجمهور — او الرعاع — مركز سكرتير المقاطعة الذى كان تدعين وزعا للاوراق وحطموا بناء كان قد أعد كمكاتب لها

الحرس الاهلى

وتفاقم الهياج حتى فر الحاكم وعائلته وأحرقت داره ومحتوياته وسرعان ما تجمع اهالى بوسطن وشكلوا حرسا أهليا للقيام باعمال الادارة والبوليس وتألفت من المستعمرات الشمالية جمعيات على أساس مقاومة قانون ضريبة الدمغة واطلقوا على أنفسهم اسم « أبناء الحرية Sons of liberty »

وأخذوا يهاجمون مكاتب الدمغة ويستولون على محتوياتها ويمزقونها وقد قررت جمعية بنسلفانيا فى ٢١ سبتمبر ضمن عدة قرارات أن قانون الدمغة عمل غير دستورى واعتداء على أعز حقوق الامريكيين

وبدأت تنعقد اجتماعات شعبية للاحتجاج على هذا القانون

عصر جديد

وبدأ بهذه الاجتماعات عصر جديد للمستعمرات وظهرت روحهم الوطنية لاول مرة فى تاريخهم

وفى ٧ ا كتوبر سنة ١٧٦٥ اجتمع مؤتمر مندوبى من تسع مستعمرات فى نيويورك

اعلان الحقوق

وفى أثناء هذا الاجتماع تقرر إصدار «اعلان حقوق» المستعمرات

وفى هـذا الاعلان تقرر أن يكون لكل واحد من أهل المستعمرات كل الحقوق التى للرجل الانجليزى

على ان لا تفرض ضريبة الا بموافقتهم

وتقرر ان يكون هـذا المؤتمر هو الجمعية التشريعية للمستعمرات حيث أنه لم يكن لهم ممثلون فى البرلمان الانجليزى

وقد كانت انجلترا قد حددت يوم أول نوفمبر لظهور اوراق الدمغة ولكن اليوم أتى وانقضى دون ان تظهر ورقة واحدة

وطالب الشعب كولدين Colden وهو الذى كان معينا لرئاسة التوزيع فى نيويورك بتسليم الاوراق اليهم فلما امتنع شنقوه وأحرقوا عربته .

مقاطعة التجارة الانجليزية

وامتنع تجار نيويورك عن استيراد أى بضاعة انجليزية حتى يلغى قانون الدمغة .

وبدلا من ان يلبسوا الثياب الانجليزية التى كانت علامة الاناقة والمودة لبس اهالى اغنى المستعمرات ملابسهم المنزلية وخرجوا بها لأعمالهم والقوا الملابس الانجليزية .

موقف المحامين والقضاة

وفى فيلادليفيا قرر المحامون أن لا يترافعوا فى قضية انجليزى ضد امريكى . وان لا يمهل دائن امريكى مدينه الانجليزى وقدمت الى بعض المحاكم اوراق عليها الدمغة فلم يعرها القضاة اى التفات

تشجيع المصنوعات الوطنية

جدت ظاهرة جديد بعد هذه الحركة . وكانت ثمرة طيبة لها. تلك أن الامريكيين عقدوا نيتهم . وحزموا أمرهم على ان يحاربوا الواردات الانجليزية ويقاطعوها ويشجعوا التجارة الوطنية . حتى أنهم حرموا ذبح الاغنام وأكل لحومها لكى يتوفر لهم الصوف لنسيج الملابس

واستمرت حركة مقاطعة ضريبة الدمغة حتى زادت مصروفات المشروع فى الميزانية الانكليزية عن دخله . فكانت تكاليفه حوالى ١٢ الف جنيه وكان دخله حوالى الألف !

الغاء الدمغة

وكان للحركة الاقتصادية التى قام بها الامريكيون فعل عظيم إذ قام التجار والسياسيون ورجال الفكر فى انجلترا يطالبون الوزارة — وكانت من حزب الاحرار — بالغاء هذا القانون . فأذعنت أخيراً والغته فى ١٨ مارس سنة ١٧٦٦

الثورة

وعقب ذلك بعام أقر البرلمان الانجليزى فرض ضريبة على الشاى وأخرى على الزجاج وثالثة على الورق .

فشبت ثورة سنة ١٧٦٨ كان مركزها بوستن

قانون

وفى سنة ١٧٦٩ صدر قانون يقرر ان كل جريمة خيانة يجب ان يحاكم مرتكبها فى انجلترا . فكان لصدور هذا القانون من الأثر السيء اضعاف ما كان لفرض ضريبة جديدة . وكتب أحد زعماء الثورة آنئذ يقول « إن انجلترا لن يهدأ لها بال حتى تسلب كل حرية للامريكيين . وفى رأيي أنه لم يعد أمام كل أمريكى إلا ان يحمل السلاح فى سبيل الدفاع عن حريته . أجل . لم يبق إلا أن نلجأ الى آخر وسيلة . وتلك هى الحرب ! »

وهنا احتجت جمعية فرجنيا (التى كان من اعضاءها واشنجتن) فتبعتها جمعية الولايات الاخرى .

مذبحة بوستن سنة ١٧٧٠

كانت فى بوستن فرقة انجليزية منذ ان شبت فيها الثورة فى سنة ١٧٦٨ وبالرغم من أن القائد العام كان قد أصدر امره الى الفرقة أن لا تأتى أى عمل فقد كان يتجمع أفراد الشعب من الفتيان والطلبة باستمرار لاهانة وإيذاء جنود الفرقة . وقد أدى هذا الى كثير من التلاحم حتى أصبح اشتباك الفريقين قد بلغ حدا جديا خطيرا .

وفى ليلة حدث تلاحم من هذا القبيل فاخذ بعض الجند الحماس فاطلق النار وقتل ثلاثة وسرعان مادقت النواقيس وصاحت الاصوات — وكان الوقت فى الليل المتأخر — « لقد تحركت الجنود » فتجمعت الجموع ووقعت الواقعة . ولكن سرعان ماشعر قائد الفرقة بحرج مركزه فستوى الأمر ورضى ان يحاكم الجند الآثمون . وفصلاحوكموا وأعدم اثنان منهم . وكان تغييرا عظيما قد حدث فى هذا الوقت فى الوزارة الانجليزية ورأس الوزارة لورد نورث North . فالغى كل الضرائب فى امريكا عدا ضريبة الشاى والسكر . وكان بقاء هاتين الضريبتين كافيا لابقاء الروح

العدائية فى الامريكيين وخاصة لأن روحهم القومية كانت تيقظت وامتدت آمالهم الى مدى بعيد .

احراق السفينة جاسبى Gaspce

كانت هذه السفينة الانجليزية كثيرا ماتضايق السفن الامريكية بشكل قاسى . فعزم جماعة من الامريكيين على تدميرها وفعلا نفذوا فكرتهم فى ليلة ١٠ يونيه سنة ١٧٧٠ وأحرقوها

اعقب ذلك صدور قانون بان كل من يتهم بالاشتراك فى تدمير أوحرق سفن صاحب الجلالة البريطانية يجب أن يرسل لمحاكمته فى انجلترا وتمنح مكافأة قدرها ٦٠٠ ج لكل من اشترك فى حرق السفينه جاسبى مع العفو التام عنه إذا ارشد عن الذين احرقوها

ومع ذلك ورغم الابحاث العظيمة التى قام بها الحكام البريطان فان أحدا لم يقبض عليه . واحدا لم يتقدم للارشاد

وهنا ظهر أن هياج المستعمرات لم يعد باعثه فقط وجود الضرائب ولكن الرغبه فى التخلص من الاستعمار البريطانى

خطة انجلترا

ضج الشعب الانجليزى من نقص التجارة نقصا فاحشا ورأت الحكومة الانجليزيه أن ظل سلطتها يتقلص من المستعمرات.

وان خزائنها ستحرم من موارد المستعمرات. كما رأت أيضا أن اخذ تلك المستعمرات بالقوة أمر لن يجدى ففكرت فى أخذهم بسياسة المكر والدهاء. وذلك شأنها دائما

فبدأت تنفذ ضريبة الشاي واباحت لشركة الهند الشرقية تصدير الشاي الى أى مكان تريد بدون تحميلها أي عبء. وارسلت منه سفنا الى امريكا. فقامت المستعمرات بعزيمة رجل واحد اذ إعتبر الاهالى أن هذه ضريبة موجهة الى حرياتهم.

مهاجمة السفن

واضطر أهالى نيويورك وفيلادلفيا لى ارجاع سفن الشاى إلى لندن وأفرغ اهالى شارلستون حمولة السفن من الشاى عنوة والقوا بها فى مخازن رطبة سرعان ما تلف فيها الشاى. وفى بوستن وقف حرس أهلى قوى حول الميناء يلاحظون السفن المحملة بالشاى وقد أصدروا أوامرهم الى ضباط السفن بعدم تفريغها واخيرا سطا على السفن جماعة ملثمون يلبسون ملابس الهنود والقوا بحمولتها الى البحر. وفى مدة لا تزد عن الساعتين كانت قد اتلفت محتويات ثلاثمائة واثنين واربعين صندوقا كبيرا يما يقدر ثمنها بثمانية عشر الف جنيه!

هياج الانجليز

روع الانجليز لهذه الكارثة .وسرعان ما اصدرت الحكومة أمرا بغلق الميناء ونقل مركز الحكومة من بوستن الى سالم Salem

وصدرت قرارات أخرى من البرلمان غير ذلك وتعرف هذه القرارات بالقوانين الخمسة . منها ما أعطى حق تعيين المستشارين وقضاة المحكمة العليا للتاج وتعيين الضباط ورجال الجيش وموظفى الادارة والقضاة الآخرين للحاكم العام . ومنعت كل الاجتماعات مهما كانت اسبابها وصفاتها

كما صدر قانون ثالث (بمناسبة ما حدث من محاكمة الجند الانجليز فى مذبحة بوستن) بان كل من يتهم بتهمة القتل فى أثناء قيامه بعمل فى سبيل حكومة جلالة الملك يحاكم فى انجلترا

وكان القانون الرابع يقضى بارسال جيوش الى امريكا والخامس بمنع اتصال ولاية كويبك بالولايات الاخرى مع منحها ما تهواه من الصبغة الفرنسية وتبعيتها للكنيسة الكاثوليكية

مؤتمر فيلادلفيا

كان الرد على ذلك اتفاق الولايات على عقد مؤتمر يمثل كل كل ولاية فيه نواب عنها على أن يكون لهم صوت واحد . وفعلا

انعقد هذا المؤتمر فى فيلادلفيا فى ٤ سبتمبر سنة ١٧٧٤ فى صالة كارنتر بشارع شيسنت وقرروا اعلان حقوقهم They made a Declation of Right واعلان التجنيد ورفعوا نداء الى جلالة الملك وآخر الى الشعب البريطانى. وكان لهذين النداءين أثرهما فى نفوس الناس سواء فى انجلترا أو فى امريكا كما كان لنفس الجمعية من الاحترام والقوة ما جعل لورد شاتام يشيد بحكمتها فى مجلس العموم ويحاول ان يرد الملك عن عزمه بالنسبة للمستعمرات فلم يفلح وقام نزاع فى ساشيست بين القائد جاج Gage وبين ممثلى الشعب مما أدى الى تكوين الشعب جيشا (ميليشيا أهلية) وبعث نداء للشعب للتطوع فى الجيش وانتظرت القوات الثائرة أى حركة شعر باستعمال القوة لكى تعمل !

الاشتباك

وفعلا تلاحمت القوات عند كونكورد Concord وفى هذه المعركة يقول امرسن الاديب الانجليزى الكبير فى Concord Ode (وتقدم الثائرون واطلقوا الرصاصة التى رنت فى اذن العالم اجمع .)

وتغلبت القوات الاهلية على الفرقة الانجليزية وردتها بعد

ان خسرت خسائر فادحة كما اشتبكت القوتان ايضا فى لكسنجتن Lexington فى ١٩ ابريل سنة ١٧٧٥ فكان هذا الاشتباك هو بداية الحرب الاهلية التى تغلب فيها الامريكيون على الاغلبية وطردوهم من امريكا واعلنوا بعدها الاستقلال و الدستور

الحرية أو الموت !

بعد ذلك انتشر خبر الحرب من بلد الى بلد ومن قرية الى أخرى . وابلغ نبأها سكان الشواطىء الى سكان السهول وتواصوا جميعا بالتضامن وبالعزيمة القوية على طرد الانجليز ومحاربتهم شر حرب ولم يعد هناك امريكى فى قرية منعزلة الا وعنده انباء الحرب وفى نفسه العزيمة على الاشتراك فيها وباعصاب واحدة هرعوا الى حمل السلاح . وبروح واحدة قوية اهاب كل منهم بالآخر « لتكن مستعدا للحادث الجلل » وبقلب واحد صاح الامريكيون بصوت واحد « الحرية أو الموت »

وأخذ الرجال والشبان يستعدون للحرب ويساعدهم النساء والفتيات وسرعان ما هرع الفلاحون الى معسكرات الحرية The Camps of Liberty حتى بملابسهم العادية واسلحتهم فوق ظهورهم ودون ان يكون مع الواحد منهم قوت يومه أو فى جيبه أى مبلغ من النقود ولكنها الروح الوطنية والايمان الراسخ يفعلان مالا يفعل القوت أو تفعل النقود !

وفى ٢٢ ابريل قررت جمعية ماساشيست تجهيز ثلاثين الف جندى دون ان يكون لديهم اسلحة أو مدافع أو ذخيرة أو نقود ولكن العزائم تخلق كل شىء اذا هى وجدت .

واجتمع حول بوستن آلاف من الجنود الغير نظاميين كل واحد منهم مجهز بسلاحه وعدته وذخيرته سواء التى حملها من بلده او ارسلت اليه بعد سفره المفاجىء او ساعده بها مواطن لقيه فى الطريق أو مر بمنزله .

عندما بانت مظاهر هذا الروح القومى الباهر . وغلبت القوة على عقولهم . ضعف الضباط الانجليز وخارت عزائم جندهم فوقفوا لايتحركون اوكانوا دائما يفضلون التقهقر

واستولى الذهول على لندن عندما سمعت بهذه الانباء

وكانت الجمعيات الوطنية قد ارسلت الى لندن اخبارا عن المذابح التى بدأ بها الجند الانجليز ووجهوا نداء الى الشعب الانجليزى ختموه بهذه العبارة :

« إننا لم نخضع مطلقا لظلم الوزارة البريطانية وقسوتها . وإننا للثقة فى عدالة قضيتنا واعتمادنا على معونة السماء قد قررنا جميعا

« اما الحرية واما الموت »

وقدكان لورد شاتام بلغ سنا كبيرة فلم يستطع أن يفعل شيئا كما أن كثيرين من القوادكالاد ميرال كيبيل Admiral Keppel اعتذروا عن السفر الى أمريكا . ولكن ذلك لم يمنع أن ارسلت الذخائر والقواد العظام كالقائد كارلتون الذى أخذ معه كأركان حرب الابن الاكبر لوليم بت (لورد شاتام)

الشعب الانجليزى

وفى ٢٤ يونيه صرخ الشعب البريطانى ووجه ملتمسا لوضع حد للحالة الدامية فى أمريكا التى يتلقون عنها كل يوم صحفا طافحة باخبار دم أبنائهم المسفوك وجثث أولادهم الممزقة . وطلبوا ابناء على ذلك حل البرلمان واقالة الوزراء . ولكن الملك لم يصغ الى ذلك .

وفى ٧ يونيه قررت جمعية الاصلاح الدستورى فى انجلترا توزيع اعانات « على اولئك الاطفال اليتامى والارامل البائسات والامهات الحزينات لاخواننا الامريكيين الذين فضلوا — كالخلق الانجليزى الحر — الموت على العبودية والذين لهذا قتلتهم فيالق الملك بوحشية فى ليكسنجتن وكونكورد »

واخذت الحكومة البريطانية تصادر مثل هذه الاجتماعات

كما تصادر النشرات التى تحمل مثل هذه الروح. وقد كانت عواطف الشعب الانجليزى حزينة لمحاربة اخوانهم الامريكيين وكان كثيرون يعطفون على مطالبهم كما كانوا فى الواقع مندهشين لان شيئا من الحركة الامريكية لم يكن يخطر على بال • وكانت كبرياؤهم رغم ذلك قد طعنت فجرحت جرحا داميا. لان هزيمتهم تلك كانت الهزيمة الاولى فى تاريخ الامة الانجليزية.

انتصار الامريكيين

واشعلت موقعة لكسنجتن نار الوطنية والحماس فى أهالى نيويورك وما حولها فسرعان ما جندت الجنود وأخذت تزحف فاستولت برياسة الكولونيل ألن على قلعة تيكوند يروجا بعد أن قضت على حاميتها واستمرت تزحف على مراكز الجنود الانجليزية المهمة

وفى أواخر مايو ارسلت لندن الى أمريكا نجدات جديدة على رأسها قواد كبار واحتدمت المواقع بين الفريقين فى أمكنة عدة وخاصة حول بوستن إذ أصلى الامريكيون الجنود الانجليزية نارا حامية مما أدهش القواد إذ ما كانوا يظنون أن الجيش الغير نظامى يكون على هذا الاستعداد وسرعان مادب الفشل والذعر فى صفوف الجند حتى تفرقوا

ظهور واشنجتن

كان واشنجتن من القواد الذين ابلوا بلاءحسنا فى الحرب مع الفرنسيين وطارله صيت فى ذلك . ثم كان من زعمـــاء الحركة الاستقلالية ومن أعضاء مجلس فرجنياذوى الكلمة العليلولذلك سرعان ما توحدت قيادة جيوش الامريكيين فى يده .

وبعدالحوادث السالفة الذكر كان من الضرورى عقد مؤتمر للنظر فيما وصلت اليه الحالة وما يجب عمله . وفعلاانعقدالمؤتمر الثانى فى فيلا دلفيا فى ١٠ مايو سنة ١٧٧٥ وفى هذا المؤتمر قرر اتحاد الولايات الدفاع عنها والسعى لاخذحقوقها وتجهيز عشرين الف جندى كما تقرر انتخاب أحدأعضاءه جورج واشنجتن (١٧٣٢ — ١٧٩٩) قائدا عاما . وقدظل هـــذا المؤتمر منظما للحركة الى أن أعلن استقلال أمريكا .

أخذواشنجتن يحارب الانجليز فى أمكنةمتعددةويكبدهم خسائر فادحـــة . ويردهم عن مواطنهم ومراكزهم القوية . وتوالت انتصاراته وقد حاول الامريكيون أثناءذلك غزو كندا ولكنهم لم يستطيعوا وحاصر واشنجتن فى سنة ١٧٧٥ بوستن حصارا طويلا واستولى عليها وطرد الانجليز منها شر طردة .

أعلان الاستقلال

وفى ٤ يونيه سنة ١٧٧٦ اجتمع مؤتمر فيلادفيا على أثر الانتصارات العظيمة التى أحرزها الجيش الوطنى. وفى هذا المؤتمر اقترح ريشارد هنرى لى Rich rd Henry Lee أحد نواب فيرجنيا اعلان استقلال الولايات واتحادها. وخطب مؤيدا هذا الاقتراح جون ادامس John Adams من مسا شسست ووافقت هيئة المؤتمر بحماس على هذا الاقتراح.

وقد عهد الى لجنة من جون ادامس وتوماس جفرسون وبنجامان فرانكلين وروجن شيرمان وروبرت ليفنجستن بتحضير قرارات اعلان الاستقلال وأتمت اللجنة مأموريتها باعداد وثيقة الاستقلال التى أمضاها جميع الاعضاء بعد مناقشة دامت ثلاثة أيام.

وانتهت المناقشة واعلن فى يوم ٤ يوليه سنة ١٧٧٦ استقلال الولايات المتحده وتم بذلك ظهور دولة عظيمة الشأن جليلة الخطر والاثر كان لها أعظم يد على الانسانية وأكبر التأثير فى تاريخ العالم اجتماعيا وسياسيا.

وقد كان نص قرار الاستقلال كالآتى: —

نحن نواب الولايات الامريكية المتحدة المجتمعين على هيئة مؤتمر مشهدين الله على شريف مقاصدنا وعدالة مطالبنا نعلن للعالم

باسم الشعب الامريكى الذى يسكن الولايات المتحدة ان هذه الولايات المتحدة قد أصبحت حرة مستقلة وانها قد تحررت من كل تبعة للتاج البريطانى وانها تعتبر أن كل علاقة سياسية بينها وبين انجلترا قد أصبحت مقطوعة . وانها — وهى دولة حرة مستقلة — لها حق اعلان الحرب وتنظيم علاقاتها التجارية والتمتع بكل الحقوق التى تتمتع بها الدولة المستقلة .

ولقد صح عزمنا على التعهد بأن نصون هذا الاستقلال بحياتنا وأموالنا وشرفنا واثقين من معونة الله»

ولم يمنع ذلك استمرار الحروب بل ازادها اشتعالا وقد ارسلت انجلترا عددا ورجالا الى امريكا لمساعدة جيشها هنالك ولكن كان كل ذلك عبثا

مساعدة فرنسا

كان جرح فرنسا من انجلترا لا يزال ناغرا وكان صدرها منها ما زال موغرا فما ان رأت استبسال الامريكيين حتى وجدت منفذا الى الثار فأخذت تمدهم بالمال والرجال والذخائر

وقد سافر الى امريكا كثيرون من قواد فرنسا النابهين وعلى رأسهم ماركيز دى لا فايت . ولما ارسل المؤتمر الوطنى فى مارس

سنة ١٧٧٦ رسوله (سيلاس دين) الى فرنسا فوبل من انصار الحرية هناك بالترحيب العظيم

موقعة ساراتوجا ١٧٧٧

وبينما كان القائد الانجليزى بيرجوين Burgoyne يسير على رأس جيشه من كندا الى الولايات حاصره واشنجتن بجنوده عند ساراتوجا وشدد عليه الحصار حتى يئس فى ١٧ اكتوبر سنة ١٧٧٧ فسلم نفسه وجيشا يبلغ ٣٫٥٠٠ جنديا باسلحته ومدافعه ورصاصه وذخيرته .

فت هذا فى عضد انجلترا . سواء فى ذلك جيشها وقوادها فى امريكا أو فى انجلترا نفسها وقامت المناقشة حامية الوطيس بين أهل الرأيين : الرأى القائل باستمرار الحرب والرأي الاخر القائل بالاتفاق والصلح

وكان من اهم انصار الرأى الاخير اللورد شاتام رجل انجلترا العظيم . وكان ضد الحرب الامريكية وبالرغم من ضعف صحته وتقدم سنه فلطالما وقف يخطب فى مجلس اللوردات يطلب وقفها حتى كان آخر موقف له فى المجلس يخطب بوجوب وضع حد لتلك الحرب فسقط على ارض المجلس فحمل الى منزله حيث فاضت روحه .

وفى هذه السنه تعقدت فرنسا مع امريكا معاهدة ودخلت فرنسا الحرب رسميا وكان جيش واشنجتن فى ذلك الشتاء قد عرى وجاع ولكن ذلك لم ينل منه أى منال فلقد كان وحى قائده واشنجتن دائما يبعث فيه قوة العزيمة والجلد والصبر .

وحاول لورد نورث رئيس الوزراء الاتفاق معهم فلم يفلح لانه رضى أن يسلم لهم بكل شروطهم الا الاستقلال ولكن فاته ان المسألة لم تصبح مسألة تجارة أو ضريبة ولكنها قد اصبحت مسألة حياة حرة قربتها الى النفوس وجعلتها تعشقها تلك الانتصارات العظيمة التى أحرزها الجيش الامريكى وتلك المناصرة التى لها قيمتها التى جاءت من جانب فرنسا كما جاءت للامريكيين مناصرات أخرى من هولنده التى لم تلبث ان دخلت الحرب ضد انجلترا كما فعلت اسبانيا

ولقد أصبح مركز انجلترا حرجا كل الحروجة وأيقنت تماما أن اسطولها لن يستطيع أن ينفعها ولا جيشها كذلك أمام قوات الاعداء المتفرقة المراكز.

وظهرت عوامل جديدة تهدد من قوى انجلترا المحاصرة الاسبان جبل طارق . وظهور حياد الشمال المسلح بزعامة اليصابات ملكة الروسيا .

الفاجعة الاخيرة

وآخر فاجعة نزلت بانجلترا وكانت السبب الأخير فى انهاء الحرب الامريكية ماأتاه واشنجتن من المهارة ومحاصرته جيشا انجليزيا عند يوركتون مما اضطره للتسليم فى ١٩ اكتوبر سنة ١٧٨١ وهو يزيد على ٧ الاف جنديا .

الصلح

وكانت هذه هى الضربة الاخيرة على رأس انجلترا وسرعان ما استقال لورد نورث رئيس الوزراء الانجليزى وخلفه وكنجهام حتى أخذ يسعى للصلح الذى تم بمعاهدة فرساي فى ٢٠ يناير سنة ١٧٨٣ حيث اعترفت انجلترا باستقلال الولايات الامريكية المتحدة وتكونت فى كل ولاية بعد ذلك حكومة بمجلس تشريعى

الدستور

وظل واشنجتن دكتاتيرا حتى عام ١٧٨٧ إذ شعرت الولايات أنه يجب اصدار دستور عام شامل .

فعقد مؤتمر فى مايو سنة ١٧٨٨ حيث انتخب واشنجتن

احيل المشروعان على لجنة أتمت عملها فى أربعة عشر يوما وعند نهايتها تقدم وليام باترس بمشروع جديد أحيل على لجنة أخرى

ودارت مناقشات حامية وقوية بين ممثلى الولايات الكبيرة والولايات الصغيرة على المساواة بينهم وظلت المناقشات دائرة مدى أربعة شهور حتى تم وضع الدستور فى ١٥ سبتمبر سنة ١٧٨٨

اشعة الشمس

وعندما انتهى الاعضاء جميعا من امضاء وثيقة الدستور وقف فرانكلين مشيرا الى أشعة من الشمس تنزل وراء كرسى الرئيس قائلا «طالما راقبت هذه الشمس وراء كرسى الرئيس وسائلت نفس أترى هذه الشمس مشرقة صاعدة أم مغربة هابطة ؟ . . أما الآن فقد استطيع أن أجيب على هـذا السؤال إذ أننى أراها مشرقـة وهى شمس صعود وسمود »

وحمل كل وفد مشروع الدستور الى ولايته لعرضها على أهليها وقد لقى هذا المشروع معارضة كبيرة . وانبرت الاقلام تكتب وتطلب مزيدا من الحرية والديمقراطيـة فيه وكان أهمها قلم حون

ديكينسون الذى كان منذ عشرين عاما يجاهد فى سبيل الحرية
ولكن الولايات جميعا أقرته بعد ذلك

وكانت اسبق الولايات الى اقرار الدستور ولاية نورث كارولينا
ورواىلند

مراجع الفصل الفائت

كتاب الاستاذين مصطفى الصادق ووايت ابراهيم

كتاب الاستاذ عبد اللطيف غربال

Dareste Les constitutions Modernes

Tod Modern Constitutions

1) Bryce The American Commonwealth

Channirg & Hart { Gjude to the study of American history

George Bancroft | History of the Formation of the Constitution of theU. S. A. New york 1882

The Historians' History of the World

الفصل الخامس

الدستور الفرنسى

صدر الدستور الفرنسى فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٧٥ وتعدل مرارا حتى يوليه سنة ١٨٨٩ كما سيبين فى القسم التاريخى لجهاد الشعب الفرنسى فى سبيل دستوره

وهو دستور مبنى على أقوى النظريات الديموقراطية .

وتنقسم السلطات فيه الى ثلاث : السلطة التشريعة والسلطة التنفيذة والسلطة القضائية

أما السلطة التنفيذية . فيقوم على رأسها رئيس الجمهورية يعاونه وزراءه

ورئيس الجمهورية تنتخبه كل سبع سنوات جمية وطنية مجتمعة من أعضاء مجلس النواب والشيوخ . ويجب أن ينال الاغلبية المطلقة من هذه الجمعية حتى يصح انتخابه . و اذا خلا محل رئيس الجمهورية اجتمع المجلسان فورا لانتخاب رئيس جديد

وسلطة رئيس الجمهورية على اتساعها ظاهرا مقيدة فى الواقع بالبرلمان .

وهو الذى يختار رئيس الوزارة ويكلفه بتشكيل الوزارة .

وهو الذى يعين موظفى الحكومة ملكيين كانوا أو عسكريين وله حق العفو وهو الذى يتولى عقد المعاهدات مع الدول الاجنبية ولكن المعاهدات التى يترتب عليها تعديل فى اراضى الدولة أو مستعمراتها يجب التصديق عليها من الهيئة التشريعية .

وله حق حل مجلس النواب بموافقة مجلس الشيوخ . وله تأجيل انعقاد البرلمان ولكن على أن لا يزيد التأجيل عن شهر ولا أن يتكرر اكثر من مرتين فى الدور الواحد

وله حق الفيتو ـ ايقاف التشريع ـ فى خلال شهر من عرض القانون عليه فيعاد القانون للبرلمان لاعادة النظر فيه فاذا صدق عليه البرلمان بعد ذلك ولو باغلبية عادية صار واجب التنفيذ .

و رئيس الجمهورية ليس مسئولا الا فى حالة الخيانة العظمى

وليس له أن يعلن الحرب إلا برضاء المجلسين

أما الوزراء فيختار رئيسهم رئيس الجمهورية وهو عادة زعيم الحزب الغالب فى البرلمان

ورئيس الوزراء هو الذى يشكل الوزارة من أعضاء فى البرلمان أو غير أعضاء فيه

وكل وزير يدير شئون وزارته ويكون مسئولا أمام البرلمان .

والوزارة متضامنة فى مسئوليتها عن السياسة العامة للحكومة أمام البرلمان أيضا . وقد جرى العمل غالبا على اعتبار الوزارة مسئولة أمام مجلس النواب دون الشيوخ

وكل أمر صادر من الرئيس يجب أن يوقع عليه الوزير المختص

السلطة التشريعية

يتولى السلطة التشريعية رئيس الجمهورية مع البرلمان وهو مكون من مجلس النواب Chambres des deputés ومجلس الشيوخ Sénat

مجلس النواب

ينتخب أعضاؤه لمدة اربع سنوات تتجدد تجددا كليا آخر المدة وعدد أعضاءه ٦١٠

ولكل فرنسى من الذكور بالغ من العمر ٢١ سنة حق الانتخاب ورجال الجيش الذين فى الخدمة العاملة يحرمون من حق الانتخاب .

ويشترط فى النائب أن لا يقل سنه عن ٢٥ سنة

والانتخاب يجرى على نظام الانتخاب بالقائمة مع التمثيل النسبى على درجة واحدة

وطريقة الانتخـاب بالقائمة Scr utin de liste هى أن تقسم الدولة الى دوائر انتخابية واسـعة النطاق والنـاخب فى كل دائرة ينتخب قائمة بالنواب أى عددا من النواب لا نائبا واحدا

غير أن هذه الطريقة لو نفذت كان معناها أن حزب الاغلبية ينجح فى كل دائرة وتصبح أغلبيته اجماعا بينما لا ينال حزب الاقلية شـيئا .

ولتلافى ضرر هـذه الطريقة ونتيجتها وجـدت طريقة التمثيل النسبى بإعطاء كل ناخب عددا من الاصوات يساوى عدد المرشحين يوزعها كما يريد فله أن يعطيها لشخص واحد أو لعدة أشخاص

وهذه الطريقـة المتبعة فى فرنسا هى أقوم الطرق فى اخـراج نواب من الشعب يمثلونه حقيقة تمام التمثيل

ومجلس النواب هو الذى يقوم باتهـام رئيس الجـمهورية أو رئيس الوزراء

مجلس الشيوخ

ينتخب أعضاء مجلس الشيوخ وعددهم ٣١٧ عضوا لمدة تسع سنوات ويتجدد ثلث العدد كل ثلاث سنوات على التتابع ولا تقل سن اعضاء هذا المجلس عن اربعين سـنة ويحصل اختيارهم جميعا بطريقة الانتخاب على درجتين بواسـطة لجان مؤلفة من نواب

الاقاليم ومندوبى مجالس المديريات والبلديات والمجالس المحلية وامراء العائلات المالكة السابقة ممنوعون من الجلوس فى البرلمان .

وينعقد البرلمان فى يوم الثلاثاء الثانى من يناير مالم تصدر الدعوة للانعقاد قبل ذلك من رئيس الجمهورية ويستمر دور الانعقاد خمسة شهور سنويا وعلى رئيس الجمهورية أن يدعو البرلمان للانعقاد اذا طلب ذلك نصف أعضاء كل مجلس

وللحكومة ولأعضاء البرلمان اقتراح القوانين وتمكن للحكومة أن تبدأ بعرضها على أى المجلسين ما عدا القوانين المالية فيجب عرضها على مجلس النواب أولا

وينعقد مجلس الشيوخ بهيئة محكمة عليا للنظر فى القضايا الخاصة بأمن الدولة ولمحاكمة رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء

وينتخب فى كل دور انعقاد رئيس لكل من المجلسين وإذا اجتمع المجلسان بهيئة جمعية وطنية فالرآسة لمجلس الشيوخ

وكل من المجلسين مختص بالفصل فى صحة نيابة أعضاءه وبوضع لائحته الداخلية وبانتخاب الرئيس واربعة وكلاء

ويوجد فى فرنسا مجلس دولة Conseil d' Etat أنشأه نابليون الاول ورئيسه وزير الحقانية واعضاؤه بعض

المستشارين Conseillers, Maitres des requêtes et auditeurs
وكلهم معينون بواسطة رئيس الجمهورية ووظيفة هذا المجلس ابداء
الرأى فى المسائل المتعلقة بالادارة وهو المحكمة الادارية العليا
التى تضع القواعد العامة للمصالح الادارية

السلطة القضائية

اهم ما يميز السلطة القضائية فى فرنسا وجود قضاء ادارى ومحاكم اداريه لتفصل فى المنازعات التى عساها تقوم بين الحكومة والافراد . وهذا النظام فيه حصانة قوية ضد تدخل السلطة التنفيذية فى سلطان السلطة القضائية

تاريخ الدستور الفرنسى

فرنسا قبل الثورة

كانت فرنسا قبل ثورتها تعانى أقسى ما عانته امة من حاكم مستبد وارستقراطيه طاغية .

فقد كان شعبها يتكون من طبقات ثلاث : طبقة الاشراف . وطبقة رجال الدين وطبقة عامة

وكانت الثروة جميعها وخاصة الزراعية فى يد الاشراف وقد كان لهم امتيازات وحقوق فى أيام الاقطاع ظلت باقية رغم انمحاء ذلك النظام فكان الشريف يملك المقاطعة وكان الفلاحون عبيدا Serf يعملون ويؤدون اليه ثمار عملهم وهم صاغرون وله عليهم كل حقوق السيد على العبد . وكان الاشراف لا يتورعون عن اساءة استعمال تلك الحقوق الظالمة . فكان الفلاحون يعانون شر ما تعانيه السائمة من مالك لا يعرف قلبه الرحمة والشفقة

وكانت فرنسا مقسمة عندئذ كما قلنا الى ثلاث طبقات : —

(١) طبقة النبلاء (٢) طبقة رجال الدين (٣) طبقة العامة

الحالة الاجتماعية والمالية والسياسية لكل طبقة

(١) طبقة النبلاء

كانت تتمتع بحياة اجتماعية راقية كلها رفاهية . ولذات . يعيش أفرادها فى قصور كأنما هى بما اشتملت عليه من خفض العيش وماحوت من فنون البذخ والسرف قصور أحلام . يقضون حياتهم فى اللهو واللعب والصيد واقامة المآدب والمغازلة او اغتصاب النساء

أما ثرواتهم فيكفى أن يعلم المرؤ أنهم كانوا يملكون جميع الاراضى يستغلها الفلاحون لهم ويشقى أولئك ويؤتون جهدا كى يملأوا خزائن الاشراف بالمال . بحيث لا يستطيع الفلاح أن يكنز درهما واحدا أو يطعم لقمة طيبة . وكان من أسباب تعذيبه ظهور أى دليل بسيط على رخاءه .

لقد كانت ثروة فرنسا جمعا فى يدهم لاشريك لهم فيها

أما من الناحية السياسية فلم يكن لهم يد مباشرة فى شئون الدولة إذ كانت كل سلطة مجتمعة فى يد الملك اللهم الا فى الصورة الضئيلة

البرلمان التى سنتحدث عنها فيما بعد . وهذا عدا ما كان للشريف من حقوق تامة مطلقة فى مقاطعته .

(٢) طبقة رجال الدين

وكان هؤلاء أيضاً يتمتعون بكثير من الامتيازات بقيت لهم من العهود القديمة . وكانوا فى رغد من العيش .

(٣) طبقة الشعب أو العامة

كانت حالتها الاجتماعية بالغة منتهى السوء والحقارة . وكان أهلها يعيشون فى بؤس ويقضون حياتهم بين جحور يؤون اليها وطعام سيء وعبودية غير متصورة ولا متخيلة

ولم يكن من المحرم على الواحد منهم ان يقتنى نقودا او عقارا . ولكن كان يكفى أن تظهر عليه دلائل النعمة أو مظاهر وجود المال عنده حتى يطارده الجباة بانواع منوعة من الضرائب فيمتصون دمه .

وكتب التاريخ الفرنسى طافحة بأمثال وصور عدة لحياة الشقاء والتعس التى كان يحياها الشعب الفرنسى قبل الثورة . وكذلك الروايات والقصص سواء أكان مؤلفوها من الفرنسيين أو الاجانب ملآنة بأمثال هذه الصور والرسوم .

وكان الى عيشهم البائس يقاسون حكما طاغيا جبارا . لا منفذ منه لبصيص من الرحمة . ولا شبهة فيه من معانى الانسانية .

فالعامة عبيد الاشراف يحبسونهم و يقتلونهم ويغتصبون نساءهم ويذيقونهم ألوان العذاب ولا معقب لارادتهم ولا محاسب لهم على أفعالهم وهم عرضة لاستبداد الجباة وهدف للفظائع التى يرتكبونها على اعتبارها قياما بواجبهم . ورجال الحكومة على الشعب أشد وأقسى يدا . وأنكى معاملة وكان هؤلاء البائسين الى ذلك غارقين فى جهل مطبق . فقد روى تين Taine أن مليونا واحدا من ستة وعشرين مليونا كان يعرف القراءة والكتابة

الخطابات المختومة

ولعل افظع ماعرف فى هذا العهد « الخطابات المختومة » Lettres de cachet عبارة عن أمر ادارى عليه ختم الملك يمكن بمقتضاه ان يقبض على أى شخص ولو دون ان توجه اليه تهمة معينة ويلقى به فى السجن من غير محاكمة ويظل فيه الى مايشاء الله . وكان الرجال الذين يحملون هذه الخطابات ينفذونها بدقيقة وسرية لدرجة ان اختفاء الشخص كان لا يشعر به أهلوه واصدقاؤه

سجون فرنسا

وكانت سجون فرنسا فى ذلك العهد أشد سعيرا من جهنم . وانا لنقتطف قطعة من تقرير رفعته احدى محاكم فرنسا للملك لويس الخامس عشر تصف فيه أحد السجون فقالت :

« ولكن هذا السجن يحوى حفرا مظلمة قد أعدت أصلا للمسجونين الذين قد حكم عليهم بالاعدام فاعترفوا على زملائهم فى الجرائم التى ارتكبوها فصدر عنهم عفو . ولعل مايقاسونه فى هذه الحفر كان سببا هاما فى أن اكثرهم كانوا يطلبون تنفيذ الاعدام عليهم . فهم يعيشون فيها فى ظلام مستمر . ورطوبة قتالة . ولكى ينفذ اليها شىء من الهواء يبعث الحياة فى تلك الاجسام المعذبة ركبت فى تلك الحفر أنابيب توصل اليها الشىء النذر اليسير من الهواء على أن لا تحمل أى شعاع من الضوء .

وكان هؤلاء المساجين يوثقون الى جدرانها بسلاسل ثقيلة . وكان طعامهم الوقت بعد الوقت قطعة ضئيلة من الخبز اليابس .

وقد عمم استعمال هذه الحفر لكل المسجونين تقريبا وخاصة ممن حبسوا بمقتضى خطاب مختوم »

ويظهر من هذا ومن كثير من الصور التى قرأناها فى كتب التاريخ الفرنسى والروايات أن حكام ذلك العصر كانوا يفتنون فى تهيئة السجون بافظع آلات التعذيب

قسوة الضرائب وفظاعتها

وكان من اهم ما يعانيه الشعب الفرنسى ثقل الضرائب وكثرتها وتنوعها والقسوة فى جبايتها . فلقد كانت تجبى من طبقة الشعب فقط فى غير اوقات محددة او منتظمة حسب ارادة الجباة ولم يكن لها مقدار محدد فالجباة القساة هم اصحاب الرأى الأول والاخير فى تحديد قيمتها .

وكانت الضريبة مفروضة على كل مايملك الفرد من عقار ومنقول وكان يدفع الواحد من الشعب أيضا ضريبة ملكية وأخرى للشريف التابع له وذلك غير ضريبة الملح Gabelle إذ كانت الحكومة تحتكر بيعه وكان على كل شخص الزاما ان يشترى مقدارا منه سواء أكان فى حاجة اليه أم فى غنى عنه

وان احاديث جباية الضرائب بالقسوة والظلم فى فرنسا لتروى عنها الروايات وتصنف الكتب . وهذا شأن الحكومات

الاستبدادية دائما تفرغ كل همها فى امتصاص دم الشعب بواسطة الضرائب !

البرلمان الفرنسى قبل الثورة

رغم انعدام الروح البرلمانية فى فرنسا قبل الثورة فقد كان لها ماضيا برلمانيا معينا ذا صورة ضئيلة . فمنذ حوالى القرن الرابع عشر كان لفرنسا برلمان Parlement

وكان هذا البرلمان أحد الاقسام الثلاثة للمحاكم الفرنسية وهى Parlements, les courts des baillages et senechausseese les presideaux وكانت المحاكم Parlements هى المحاكم العليا التى لا استئناف لاحكامها . وكان فى فرنسا ثلاث عشرة محكمة من هذا النوع وكان أهمها بلا ريب برلمان باريس . وهو أقدمها وكانت برلمانات تولوز وجرينوبل وبوردو وديجون وروان وايكس ورن وبوميزو دويا ونانسى وبيسانسون تستمد اشكالها واجراءاتها من تقاليد برلمان باريس

عمل البرلمانات

وكانت هذه البرلمانات تنظر الى نفسها باعتبارها اكبر وأعظم

من المحاكم العادية وكان من وظائفها تسجيل القوانين الجديدة التى يصدرها الملك وكان من حقها أن تنتقد قانونا ما قبل تسجيله وكان لها فى بعض الاحيان الحق فى رفض تسجيله بتاتا

وهذه البرلمانات وان كانت لم تنظم حقوقها بل لم تظهرها بشكل واضح إلا أنه قد كان من آمالها أن يكون لها حق ايقاف القوانين التشريعية والمالية الخاصة بالضرائب

وكانت الادارة التنفيذية كثيرا ماتصادم البرلمانات ولا تأبه بها ذلك لان المجلس الملكى طالما ضرب بأحكام ورغبات هذا البرلمان عرض الأفق

وقد كان لهذه البرلمانات دورا هاما فى أثناء الازمات المالية التى مرت بفرنسا قبيل الثورة مباشرة فلطالما عارضت سياسة كالون calonne المالية حتى أنه حوالى عام ١٧٨٦ عندما بدأ ينفذ اصلاحاته التى اقترحها كعلاج للحالة المالية طلب من الملك أن يدعو جمعية من النبلاء يختارهم الملك بنفسه ليقروا هذه الاصلاحات فلا يبقى هناك وجه لمعارضة البرلمانات لها . وظل امر اجتماع هذه الجمعية يتراوح بين الرفض والقبول اذ كان من الاقتراحات أن تمثل

فى هذه الجمعية طبقة الشعب وأخيرا اجتمعت وكانت مكونة من النبلاء ورجال الحكومة ورجال الدين والضباط وكان ممثلو الشعب فيها قليلين جدا .

وكان للبرلمانات وخاصة برلمان باريس شأن فى حركات الاصلاح المالى التى كان يقوم بها أمثال نكر وكالون وبرين وكان كثير من هذه البرلمانات يثبت وجوده وقوته وقتا بعد وقت .

وهذه البرلمانات كما قلنا أولا كانت آلة لتسجيل القوانين التى يصدرها الملك ولكنها شيئا فشيئا شعرت بقوتها فانقلبت عدوا مترصدا للملك الذى حاول أن يصلح من هذه البرلمانات حسب هواه فاصدر تعديلا لنظامها يقضى بأن له أن يحضر اجتماع هذه البرلمانات وكل قانون يعرض فى أثناء حضوره لا بد من اقراره والموافقة عليه ويعرف هذا الاجراء بسرير العدل Lit de Justice

وقد دعى برلمان باريس « على هذا النظام » الى الاجتماع فى ٨ مايو ١٧٨٨ .

ولكن هذا الاجراء لم يفلح أيضا وفى عهد لويس الخامس عشر الغى وزيره (موبو) هذه البرلمانات وكون جماعة من ٧٥

عضوا مكان برلمان باريس وسمى هذا البرلمان سخرية به واحتقارا (برلمان موبو) ولكن فى عهد لويس السادس عشر كان الشعب قد تمثلت له البرلمانات القديمة فى صورة المعارضة للملك . وأحس بأن وجودها كان لا بد منه ولم يكن يدرك عنها الصورة الضئيلة التى كانت عليها فى الحقيقة بل كان اهم مافى ذهنه وخاطره عنها انها كانت قوة معارضة للملك فألح فى ارجاعها حتى اضطر لويس السادس عشر الى ارجاعها الى عهدها الاول ولكن المصادمات مع ذلك ظلت مستمرة بين هذه البرلمانات والملك .

الجمعيه العمومية

وقد كان لفرنسا جمعية عمومية أشبه بالبرلمان تمثل فيها طبقات الامة الثلاث وكانت كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث تجتمع وحدها فاذا عرض قانون أو مشروع على الجمعية كان لكل طبقة قرار يعتبر صوتا فى الجمعية فطبقة الاشراف لها صوت وطبقة رجال الدين كذلك وأيضا طبقة العامة دون مراعاة لعدد ممثلى كل طبقة . ولما كان رجال الطبقتين الأوليين متحدين رأيا ومذهبا ومتفقين فى مصالحهم ومنضمين الى جانب الملك لذلك كانت ترجح دائما كفة الملك وارادته وتشول كفة الشعب

على ان الواقع ان هذه الجمعية الى ماقبل الثورة لم تثبت لها

وجودا ولم يكن لها اختصاص معين ولا مواعيد محددة تجتمع فيها بل كانت تجتمع كلما شاء الملك ذلك وظلت لا تجتمع من ١٦١٤ الى ١٧٨٩ أعنى حوالى ١٧٥ عاما

وقد كانت هذه الجمعية العمومية صورة غريبة للحياة البرلمانية وانه لمن العجب أنه حوالى القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان البرلمان الانجليزى حيا ويجتمع سنويا ويعمل باستمرار على زيادة امتيازاته وكسب حقوقه . حتى فى عهد التيودور وهو عهد الحكم المطلق كان يجتمع كل بضعة سنين مرة بينما الجمعية العمومية فى فرنسا لا تجتمع الا بين فترات طويلة جدا وهى لا تعمل عملا يذكر فهى قد ولدت وعاشت كأى برلمان من برلمانات القرون الوسطى

على أن أعضاء هذه الجمعية كانوا بالنسبة للناخبين عبارة عن وسطاء يصلون بين الملك وبين شكاوى وملتمسات منتخبيهم. فى كل محكمة من المحاكم المسماه bailliage ou sénéchaussée. كان يسجل ممثلو الطبقات الثلاث المظالم فى دفاتر سميت Cahiers des Plaintes et doléances وكانت كل طبقة تحتفظ بدفتر Cahier خاص يجمع مظالم فرنسا كلها لتحاول أن تصنع شيئا — ولو اسما — يخفف من هذه المظالم .

وقد كان أعضاء هذه الجمعية بالنسبة للملك عبارة عن اصحاب التماسات لا مشرعين كما كان أعضاء البرلمان الى عهد اسرة لانكستير فكانوا دائما يلتمسون تخفيف المظالم وللملك ينظر فى أمر تلك المظالم فى مقابل مبلغ من المال أو نوع من المعونة أيا كان . وقد كان سواء قبل هذه الملتمسات أو رفضها أو قبل بعضها أو عمل بما يشبهها يفعل ذلك على اعتباره صاحب السلطان الاعظم يمنح كرما منه . ولم يكن ذلك ولو أدى الى سن قانون مثلا ليس سلطته فى تشريع القوانين فقد بقيت سلطته فى التشريع قوية كاملة . وبقى أثر الجمعية الوطنية فى التشريع معدوما كلية .

هذا فى التشريع . وكذلك فى الشئون المالية لم يكن لهم من أمر فرض الضرائب وتخفيضها أو الغاءها شيئا مطلقا سوى تقديم الالتماسات الخاصة بهذا الشأن وتقديم الاعانات المالية فى مقابل رفع ظلم من المظالم .

وعلى ذلك فقد كانت الملكية فى الواقع مطلقة ولا أثر للجمعية العمومية بجانبها

على أننا سنرى من سير حوادث الثورة كيف دعيت هذه الجمعية وكيف كان أثرها عظيما فى حياة فرنسا بل العالم بعد ذلك

تأثير الفلسفة و الاداب في تكوين الثورة

لقد كان الظلم الذى يقع على رؤوس الفرنسيين فى القرون السابقة لأيام الثورة منقطع النظير فى تعدد ألوانه . وقسوة عذابه. وقد يكون هذا الظلم من الاسباب القوية لقيام الثورة .

وقد يكون من تلك الاسباب أيضا ما أثارته فى نفوس الفرنسيين مبادىء الدستور الانجليزى وقومة الشعب الانجليزى الثائرة ضد ملوكه الطاغين . واستقلال الامريكيين عن انجلترا المستعمرة ومبادىء الحرية الرائعة التى أشرقت بها حركة الامريكيين على العالم أجمع .

على أننى أرى أن هذه الاسباب جميعها على عظمتها ليست من القوة فى شىء بجانب تأثير مبادىء الفلسفة والآداب وهتافات الفلاسفة والادباء فى القرن الثامن عشر قبل الثورة بسنين طويلة نزلت على الشعب المتألم المظلوم كما ينزل المنبه يفيق على تأثيره النائم المخدر من غيبوبته

يقول ماليه دى بان Mallet du Pan فى رسائله Mercure Brittanique أن الفلسفة قد فعل تأثيرها فى نفوس الشعب الفرنسى مالم يفعله أى شىء آخر فقد بعثت الشكوك الى النفوس . . . الشكوك فى كل شىء : فى التقاليد والاخلاق و الاعتبارات الاجتماعية والنظم

السياسية . وعلمت الشعب أن له حقوقا يجب أن ينالها فعصفت على ذلك بأقوى الاسس التي كان يقوم عليها كل نظام فى الماضى

لقد كان روسو يكتب فيقرأه الناس فى الشوارع .ويحبونه ويعتنقون مبادءه وكانت تلك المبادىء تشيع فكرة الثورة على النظم الاجتماعية والسياسية والاخلاقيه فى رأس كل قارىء . وكان الناس يعلمون منه معنى سيادة الشعب والطبيعة الخالدة فى المساواة .

لقد كان روسو نبي الثورة . وكانت اعماله انجيلها »

ينكر بعض الكتاب جلال وخطورة هذا الأثر — كمونيه Mouneir — مثلا الذى يعتقد أنه لو كان روسو وفلتير ومونتيسكيو لم يكتبوا ما كتبوا كانت الثورة آتيه لاريب فيها ففكرة المساواة والحقوق الطبيعية قد أتى بها الدين المسيحى قبل أن يأتى بها هؤلاء الكتاب ! .

ولعل أقوى رد على هذا الكلام ما قاله ويلير « Willert » « من أنه لاحظ ما كانت تكتبه الصحف ويخطب به الخطباء وقبل اجتماع الجمعية العمومية بسنة واحدة فراعه ان يجده كله عبارة عن آراء وأفكار تتحدث وتستشهد بمبادىء روسو وفولتير ومونتسكيو كقوانين دينيه ثابته من قديم الأزل . لاتناقشها وانما تضعها فى مواضع التقديس

فلقد كانوا يتحدثون عن أن الناس سواسية وهذا التساوى طبيعى من أصل الخلقة والشعب مصدر السلطة وكل حكومة لاتقوم برضاء الشعب حكومة زائفة مآلها السقوط . والواجب دائما ان يحكم العقل وهو اذا استشير بحكمة هذا الى القانون الطبيعى الذى يجب ان يسير عليه الناس

لقد وجدت الطبيعة مليئة بالفضيلة والسعادة والانسان بطغيانه وظلمه وشروره هو الذى أفسدها لأنه تنكب تعاليمها ونسى مباديها.

والواجب ان يلغى الانسان كل قانون لايوصى به العقل ويقيم مكانه مايوصى به ذلك العقل .

هذه بعض المبادىء التى كانوا بها يتحدثون قبيل الثورة كمذاهب فرغ منها وأصبحت حقائق ثابتة .

وهذه المبادىء هى ثمار الفلسفة والادب الجديدين وهى نتاج تلك العقول الجبارة التى هزت العالم هزا فنفضت عنه حياة باليه وألبسته لبوسا جديدة حية : فاصبح حياً لا يموت .

ولنتحدث قليلا عن مبادىء كل من هؤلاء الفلاسفة والادباء

بوشير Boucher

وبوشير من اقدم الكتاب الذين غرسوا مبادىء الحرية فى

نفوس الشعب الفرنسي وقد كان من قسس الهيجونوت فهو يقول إن الناس بطبيعة خلقتهم أحرار وهم باختيارهم الذين ينتقون أميرهم ويرضون بسلطانه عليهم ولكنهم مع ذلك يظلون اسمى قوة من قوته . فاذا أحسن سياسته أولوه القوة والمحبة وأن اساء اليهم فهم يخلعونه بحكم القانون الذى يجب ان يكون كدواء لكل حاكم غير عادل وإن مهمة الشعب يجب ان تكون مقاومة الأمير الذى يحاول ان يجرح قوانين الله ومنها قوانين الحرية الطبيعية للانسان.

وقبل هذا القول نادى به القس ماريانا ايضا وهو معاصر لبوشير

فكرة الايمان بالعقل

وابتدأت فى القرن السادس عشر تنبعث فكرة الايمان بالعقل ومهاجمة العقائد الدينية واستمرت كذلك حتى حمل لواءها سنت ايفريموند Saint Evremond (١٦١٣ — ١٧٠٣) فى القرن السابع عشر اذ كان يقول بأن الايمان الدينى معناه الغاء العقل واننا يجب دائما أن نلبى نداء عقولنا وشعورنا الطبيعى واحساسنا الغريزى

إن تحكيم العقل برشاد . وتفهم طبيعتنا بحكمه هما قانون بنفسها

لوك Locke (١٦٣٢ — ١٧٠٤)

لقد أثرت كتابات لوك تأثيرا كبيرا فى آراء الكتاب الفرنسيين

وقد ترجمت كلها الى الفرنسية وفى رأيه(أن كل الناس قد ولدوا خيرين وأحرارا متساويين وعاشوا فى حالة طبيعية هادئة سعيدة حتى لوثت هذه الحياة الطبيعية بظهور الملكية والترف أعقب ذلك ظهور الحكومة وهى فى حد ذاتها شر قائم لانها حدت من حريات الناس الطبيعية .وللانسان حقوق طبيعية وحيث أن الحكومة المدنية شر فيجب الحد كثيرا من وظائفها

وإن عقل الانسان هو القانون الأعلا .وقد كان يحكم هذا القانون فى الحكومة الطبيعية التى كان يعيش فى كنفها الانسان لأول عهده فكل قانون فى الحكومة المدنية لا يكون قائما على العقل هو قانون جائر)

وبعض الكتاب الانجليز يقولون إن كتاب روسو العقد الاجتماعى Le Contrat Sociale انما هو أثر من كتاب لوك المسمى رسائل فى الحكومة Treatises on government وكتاب روسوا اميل Emile أثر من كتاب لوك المسمى آراء فى شئون التربية Thoughts concerning Education

كما تأثر أيضا فوليتر بكتابه رسائل فى التسامح letters on Toleration

فولتير Voltaire (١٦٩٣ — ١٧٧٨)

هو شاعر فرنسا العبقرى وكاتبها الخالد. صاحب السخرية الباقية في اذهان الاجيال . لا تمحى ولا يؤثر فى عظمتها تبدل الحياة بتعاقب السنين والقرون .

قضى فولتير نصف قرن ينتج للعالم الادب الخالد ويثير النقد الساخر للكنيسة والعلوم الدينية والآداب المسيحية التى كان يعتقد أنها أصل بلاء العالم وشقاءه

كما كان يسخر من مبادىء الفلسفه ويعتقد أنها كلها سخافات وسقراط في رأيه كان رجلا مجنونا كما كان ارسطو غبيا وكذلك كان افلاطون.. وكان يصب فلسفته وهجماته ضد العقائد والنظم فى قالب ساخر فكه ملىء بالدعابة الحلوة المظهر . المرة فى حقيقتها . وقد نشأ فولتير فى أواخر عهد لويس الرابع عشر فرأى بذخ وترف الملكية وظلمها بجانب بؤس الشعب وفقره كما رأى استبداد رجال الدين بسلطة واسعة هائلة مما أثار حفيظته وكون الحقد فى نفسه للحكومة ولرجال الكنيسة حتى انه حبس فى صباه لانه نشر رسالة يطعن بها على الكنيسة

على أن الهجوم الحق الذى بدأه قويا فى أيام قوته كان (فى عام ١٧٥٠) ضد الكنيسة إذ طالب بمحوها من فرنسا محوا تاما « وليست إلا كلمة تخرج من فم ملك فرنسا حتى يذعن لها البابا وينتهى أمر الكنيسة من فرنسا كما انتهى من بروسيا »

وقد جاء فى قاموسه Dictionnaire الصغير الذى نشره ١٧٦٤ « يجب أن يرجع فى كل ما هو خاص بالزواج الى السلطة المدنية وما وظيفة القسيس بعد ذلك الا استنزال البركة على الزوجين » كما جاء أيضا « يجب أن يشترك الموظفون والقسس مع العمال فى دفع الضرائب الدولة لأنهم جميعا أفراد فيها »

وجاء أيضا « يجب أن يخضع رجال الكنيسة للحكومة لأنهم أفراد من رعايا الدولة »

ولذلك فقد اضطهد فولتير اضطهادا قاسيا على اعتبار أنه ملحد

وأما اراؤه السياسية التى كان يجهر بها فمنها قوله « إن الحكومة الشعبية قد لا تنجح فى كل مملكة . وقد يكون لها غلطات سياسية ولكن لن يكون فيها على أى حال سيشيليان فيبر ولا مذبحة سانت برتليميو ولا المذابح الايرلندية ولا الاحكام القاضية بالحرق والشنق لمجرد أخذ حفنة من ماء البحر »

وفى موضع آخر يقول« إن الدستور الجمهورى هو خير نظام للحكومه ففى ظله نقترب كثيرا من المساواة الطبيعية ـ مساواة الاشخاص من حيث الحقوق والملكية كما نقترب من كمال المحافظة على القانون » وهو يقول « صرخة الانجليز فى طلب الحرية هى صرخة الطبيعة)

وقد نشر فى سنة ١٧٦٥ كتابه اراء جمهورية حيث عرف الحكومه المدنية الصالحة بأنها (قيام شخص أو أشخاص بارادة الامة ينفذون القوانين المقترحة من الشعب) وهو فى هذا الكتاب يحسد الانجليز لأن كل فرد منهم قد اكتسب حقوقه الطبيعية بينما فقدها الفرد الفرنسى: تلك الحقوق التى تجعله يرعى حرا مستقلا أفعاله واملاكه . ويلقى بآراءة بحرية من على منبر الصحافة . ويحاكم على جرائمه بمقتضى قانون عادل ثابت محصور المواد امام محلفين مستقلين نزيهين ويعتنق أى دين أو ملة تعجبه مجاهرا بذلك كما يريد . وهو يتساءل عن المانع من ان يتمتع الفرنسى بهذه الحقوق . حتى تحت حكم الملكية القائمة»

وقد روع فولتير ما كان يراه من تعذيب المتهمين والقسوه فى معاملتهم فوجه عنايته اليهم وكتب يحمل على طرق المحاكمة والعقاب وتنفيذ العقوبة واقترح تغييرا كبيرا فى قانون العقوبات

وقد سجل هذا الاقتراح فى دفتر المظالم Cahier الخاص بعام ١٧٨٩.

ويمكننا بحق ان نقول مع جميع المؤرخين ان فولتير كان قوة عظيمة من القوات التى انتجت الثورة الفرنسية . وقد هيأ الاذهان بمهاجماته الساحرة للنظم السياسية والعقائد الدينية والقوانين الوضعية .

ولابد قبل أن نتحدث عن النبيين الآخرين — روسو ومنتسيكيو — ان نذكر فوبان Vauban فقد نشر كتابه Dîme Royale تحدث فيه عن بؤس الفرنسيين ونادى فيه بالاصلاح.

وفى ١٧٢٤ تكونت جماعة من المفكرين الاحرار وكانوا يجتمعون فى نادى أسموه Clubde L' Entres sol -نادى تحت الارض- ليقرأوا المقالات والكتب ويخطبوا ويتناقشوا بشأن الاصلاح ولعل كثيرا من الافكار والمبادىء الثورية قد خرجت من حجرات هذا النادى وقد أغلقه فلورى Fleury فى سنة ١٧٣١.

وكان من اميز شخصياته سنت بيير Saint Piere وكذلك

دار جينسون D' argenson الذى اخرج كتابا اسماه آراء فى حكومة فرنسا وقد نشر بعد وفاته فى ١٧٦٤ ومن آرائه :

« إنه لكى تحسن الحكم يجب أن لا تجمع كل السلطة فى يدك » .

« ليس من اللازم ان يصدر دائما قرار من مجلس الوزراء يقضى باصلاح سكة زراعية ضيقة أو ترميم ثقب فى جدار كنيسة » !

« يجب ان تترك الحكومة لغيرها عملا يعمله . . . إن الطبيب يشخص الداء ويصف الدواء ولكنه لا يهضم بمعدته ما فى معدة المريض »

« يجب أن تقسم الدولة الى مديريات أو أقسام وبلديات يقوم بادارتها نواب ينتخبهم الشعب . ويجب ان يكون فى كل اقليم جمعية أعضاؤها ينتخبهم الشعب ويجلس الى جانبهم بعض اصحاب الاملاك ويجب أن يتحرر الفلاحون من الواجبات والالتزامات التى يثقل كاهلهم بها النظام الاقطاعى »

مونتسيكيو Montesquieu (١٦٨٩ — ١٧٥٥)

وهذا أحد أقطاب الفكر لا فى فرنسا وحدها ولا فى فرنسا

فى العهد الذى عاش فيـــه ولكن فى العالم اجمع . وفى كل عصر وزمان .

وليس من رجل مشتغل بالتاريخ او الادب أو علم الاجتماع أو علم القانون إلا وله معرفة وثيقة بمونتسكيو وبكتابه المفرد روح القوانين .

والكتاب أجمعين على أن من تتسكيو مع زميليه روسو وفولتير هم أنبياء الثورة بل هم أقوى اسبابها . وهم مشعلين نارها

ابتدأ مونتسكيو جهاده الفكرى فى سنة ١٧٢١ إذ نشر كتابا هاجم فيه البابا والكنيسة ومن أقواله عن البابا إن البابا قديم عبده الناس بحكم العادة . ولكنه سيظل ساحرا قويا ضخم . مادام يستطيع أن يجعل الناس يؤمنون بأن ال ٣ = ١ وأن الخبز الذى يأكلونه والنبيذ الذى يشربونه ليس خبزا ولا نبيذا !

ومثلما هاجم البابا والكنيسة فى هذا الكتاب هاجم الملك السابق والحكومة .

وعندما ظهر بعد ذلك كتاب روح القوانين L'Esprit des lois ثارت عاصفة بسببه لا فى فرنسا وحدها ولكنها فى اوروبا كلها وكتب بيرك وهوراس والبول وجيبون فى انجلترا عنـــه وقرظوه

وقد اثبت مونتسكيو فى كتابه أن الدستور يجب أن يكون ملائما للطبيعة كما يفهمها رجال القانون . أعنى يكون موافقا ومناسبا لحالة الامة التى وضع من أجلها . وكذلك يجب أن تكون القوانين موافقة لحالة الذين تطبق عليهم ومناسبة لطبيعة الجو والبيئة فى المملكة التى تطبق فيها

ويعتقد مونتسكيو أن بؤس فرنسا وشقاءها منبعثان من السيئات التى ارتكبها ريشليو ولويس الرابع عشر ورجوعهما الى نظام الحكم المطلق الجائر الذى كان قائما فى عهد هنرى الرابع أو لويس الثانى عشر .

وهو يثير فى أبناء فرنسا حبهم للحرية . ويقول إن الملكية تختفى حتما عندما تعتسف حتى تصبح طاعة الشعب عبودية وعندما ينسى الناس الشرف ولا يصبحوا يشعرون بالكرامة الشخصية . وعندما يصبح الأشراف آلة فى يد الأمير . ويصبح الدنىء شريفا . ويعمل الملك على تركيز كل سلطة فى يده واضعا حجابا بينه وبين شعبه . وبالاختصار عندما تصبح المملكة كما كانت فرنسا فى عهد لويس الخامس عشر !

ويعتقد مونتسكيو أن كل سلطة مركزة غير مقسمة فاسدة سواء أكانت مركزة فى يد واحدة أو عدة أيدى فالتركز يفضى

الى Depotism وهذا يفضى الى الاستبداد وأفضل نظام للحكومة عند مونتسكيو هو القائم على دستور كدستور انجلترا

والنظام الذى يلى هذا كمالا وحسنا هو النظام الذى يحكم فيه بمعاونة جماعة من الاشراف ونواب من الشعب يصبحون كهمزة وصل بين الأمير وشعبه

ولعل ما يميز مونتسكيو عن علماء السياسة فى ذلك العهد هو جهاده فى سبيل تحديد سلطة الرئيس الاعلى للحكومة بقوانين ثابتة شاملة . لأنه يعتقد أن الطاغية عادة يعمل على تبسيط القوانين حتى يجد لنفسه دائما مفرا منها ومتسعا بعيدا عن حدودها . وما يراه حسنا مونتسكيو فى الدستور الانجلزى وضمانة قوية هو استقلال السلطات الثلاث : التنفيذيه والتشريعية والقضائية بعضها عن بعض . هذا المبدأ الجميل الذى أخذ به دون تردد واضعو الدستور الامريكى . وهو يرى وجوب وضع دستور لفرنسا على هذا الطراز

ولقد كان لآراء مونتسكيو أثر ظاهر فى تكوين دستور ١٧٩١ فى إبان الثورة

المفكرون الاقتصاديون

ظهر فى هذا الوقت فى فرنسا جماعة من زعماء علم الاقتصاد

السياسى ومن أعظم أصحاب المبادىء فى هذا العلم الذى كان فى مستهل حياته آنئذ. ولقد كان لآراء هؤلاء المفكرين أثر بالغ فى تهيئة الافكار للثورة أيضا .

وكان من اوائلهم رابو سان إتين Rabaut Saint Etienne وديبو دى نيمور الذى يعتقد أن مدرسة الفيزيوكرات كانت نتيجة لمبادىء وأفكار مونتسكيو . وقد اخرج ماركيز ميرابو فى سنة ١٧٥٦ كتابه صديق الشعب L' ami des Hommes وقد كان أثرا جليلا مليئا بالافكار الجديدة والمبادىء الطريفة وهو يكاد ينتمى بارائه الى مدرسة الفيزيوكرات إذ كان يعتقد أن الزراعة هى أساس الثروة

وكان من المعاصرين أيضا زعيم الفيزيوكرات كيزناى Quesnay الذى كان يسميه انصاره كونفوشيوس أوروبا

وقد كان الطبيب الخاص لمدام دى بمبادور وقد دعا اليه ميرابو واجتمع به فى يوليه سنة ١٧٥٧ فى احدى غرف القصر حيث وضعت مبادىء الفيزيوكرات

وغير هؤلاء جورناى وميرسير دى لاريفيير وقد كانوا يسمون انفسهم الاقتصاديين واطلق عليهم ساى بعد ذلك بأمد طويل اسم « الفيزيوكرات ».

وأشهر كتب هؤلاء الجماعة كتاب الجدول الاقتصادى Tableau Economique لمؤلفه كيزناى ويقول ميرابو أن ثلاثة أشياء قد أثرت فى الجماعة السياسية وهى : (الكتابة والنقود . . . والجدول الاقتصادى)

كان لهؤلاء الأثر فى تغيير الآراء الاقتصادية والتمهيد للثورة فلاسفة اخرون

وظهر فى فرنسا أيضا جماعات من الفلاسفة أمثال ديدرو Diderot ودالمبير D' Almert وغيرهما كان لفلسفتهم أثر كبير فى ايقاظ الافكار

جان جاك روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨)

إن خير وأصدق ما وصف به جان جاك روسو بكل اختصار . هو أنه كان نبي الثورة الفرنسية . وكانت كتبه انجيلها كما قال ماليه دى بان .

على أننى أعتقد أن روسو لم يكن نبى الثورة الفرنسية فحسب بل كان نبى العهد الجديد لحرية الشعوب فلقد هزت رسائله وكتبه الاحلام الناعسة فى أرواح الشعب الفرنسى . وهزت قومية هذا الشعب المجيد كل نعاس حالم فى نفوس الشعوب الاخرى التى أخذت

تعتنق دين الثورة الفرنسية الذى أصبح يزاحم فى كثير من النفوس الاديان الآلهية .

ولعل أقل الناس حظا من الثقافة الدراسية والاجتماعية يعرف الكثير عن روسو وعن كتبه وفى طليعتها العقد الاجتماعى واميل . لسنا نترجم لروسو ولسنا نعرض لآراءه لاضنا بصفحات الكتاب عليها ولكنا لأن موضوع روسو وكتبه قد تشربته كل عين مطالعة وكل حافظة واعية . ومن شاء عن روسو معرفة فليرجع الى المطولات فليس يعرف روسو إلا من يقرأه حقا ويتفهمه جدا .
وانما نثبت بعض اراءه كسلسلة متممة للموضوع .

كان الناس فى عهد روسو يعيشون على حديث العقل والقياس المنطقى . وقد اضجرهم هذا الاتجاه الجاف . وكان يجب أن يتلقوا ما يخاطب شعورهم ويتصل باحساسهم رأسا . ولذلك فعندما أخذ روسو ينشر اراءه تلقفها الناس بشره واقبال لانها كانت تحدثهم حديثا عذبا يتصل باحساسهم وشعورهم أكثر مما يتصل العقل والمنطق !

وكان من أهم الاسباب الداعية الى اقبال الشعب على آثار روسو حنوه على الشعب وميله اليه .

وهنا يختلف روسو عن فولتير إذ كان فولتير بحكم غناه ومعاشرته للملوك والامراء وبحكم عيشته فى جوفنى من التصوير والشعر والموسيقى كان يعتقد أنه يجب أن تحافظ على البيئة المهذبة العالية القليلة العدد وتزيدها ثقافة وتهذيبا دون النظر الى المجموعة الكبيرة من الناس فالفئة القليلة بثقافتها تتزعمها وتقودها

أما روسو فقد كان يعتقد أنه يجب صرف النظر عن الفئة المهذبة القليلة والانتباه الى تثقيف المجموعة وتهذيبها لرفعها الى مستوى الطبقة العليا المثقفة . وذلك يرجع الى أن روسو ابن الشعب امتزج بطبقاته وقاسى مع أفراده عذابه وآماله وآلامه. ولقد كان يعتقد روسو أن « النقاوة والطهارة . وحب الحق .. والانسانية انما توجد فى الاكواخ . . . »

وكانت الحكومة المثل الاعلى عند روسو هى التى يحكم فيها الشعب نفسه بنفسه

وكان روسو ينادى بالرجوع الى الطبيعة ويعتقد أن عهد الانسانية الذهبى هو العهد الاول لها حيث كان الانسان يعيش عيشة بسيطة فى أحضان الطبيعة الحانية الكريمة .

ويتساءل روسو لماذا وقد ولد الإنسان حرا نجده مستعبدا!

أينما كان ؟ ثم يجيب على ذلك بأن سبب ذلك ان كل نظم الحكومات القائمة غير قانونية ولا عادلة . ولا توجد الا حكومة واحدة هى العادلة وهى القانونية وتلك هى يحكم التى فيها أغلبية الشعب لأن الطبيعة لا تهب أحدا سلطة ما على رفاقه « ولن تكون القوة مطلقا — كما يقول أيضا هوبز وسبينوزا — مصدر الحق »

وهو يقول أيضا أن الناس عندما وصلوا حدا شعروا عنده بحاجتهم الى التعاون لصالحهم العام كانت المسألة التى سعوا لحلها ايجاد نظام جماعى فى ظله يمكن حماية الفرد وأملاكه بقوة الجماعة وفى الوقت نفسه يبقى متمتعا بحريته كأنه يعيش فى أحضان الطبيعة . فاذا كان النظام لا يحمى الفرد وأملاكه ولا يبقى على حريته فهو فاسد والعقد بين الفرد والجماعة عقد باطل ولاغى .

فاذا قال هيلفيتيوس Helvétius « ان كل شىء صالح اذا كان مبذولا فى سبيل الامن العام » أجاب روسو « إن أمن الجماعة ليس شيئا مطلقا اذا لم يتمتع كل فرد بالامن والسلامة » وفى صدد حكومة الشعب يقول روسو إن الفرد « فى حكومة الشعب رعية

وهو فى الوقت نفسه صاحب السلطان . فاذا وقع عليه ظلم فانما هو ظالم نفسه ،

وحكومة اسبارطه وجمهورية روما كانتا من مثل روسو العليا للحكومة .

لاريب أن روسو بالغ فى المثل الاعلا الذى خلقه للحكومة لأن الصعوبة مادية فى ايجاد شعب بأكمله يجتمع فى برلمان واحد ولـكنها مبالغة لها تعليلها من الثورة الفكرية التى كانت تضطرم فى رأسه مما يراه من عسف وجور حكومة الفرد .

هذه لمحة ضئيلة من مبادىء روسو التى كان لها أكبر الاثر فى الحالة السياسية فى فرنسا والعالم اجمع

* * *

هذه فرنسا قبل الثورة : ملك مستبد مسرف . اشراف طغاة مسرفون مترفون . شعب بائس . جائع . فلاسفة وادباء يهيئون نارا فى الهشيم . ويكونون رأياعاما مستنيرا فى غفلة من الحـكام الذين اعماهم اسرافهم وتـكالبهم على اللذات . وانتهابهم للحياة عن أن ينتبهوا للخطر الذى فاجئهم بمدحين فهز فرنساوقلبها قلبا ولم يأل حكومتها ونظمها هدماوتحطيماورجال الطغيان قتلا وذبحاوتهشيما .

ملكية فرنسا قبل الثورة

لانزاع أن والد وأجداد لويس السادس عشر قد أورثوه ملك فرنسا تركة محملة بالمساوىء والمظالم تحمل فى عناصر وجودها جراثيم فنائها . فلقد طغوا بل شطوا فى طغيانهم الى الحد الغير مألوف ولا معقول وأفنوا حيوية الشعب وقتلوا كبرياءه فى سبيل حياتهم المليئة بالسرف والبذخ والافتنان فى اللهو واللعب .

لقد تسلم لويس الرابع عشر فرنسا بعد ان اذاقها لويس الحادى عشر المر والحنظل وبعد مالاقت فى عهد هنرى الثانى وارملته كاترين دى مديشى أقسى مالاقته أمة. فلقد روى ان الذين ذبحوا من الهيجونوت فى مذبحة سان برتلميو وحدها عشرون الف فرنسى .

وبعد أن لاقت فرنسا أيضا من هنرى الرابع وبعده من ريشيليو ومزاران ماجعلها فى نظر لويس الرابع عشر الذى تسلمها من الأخيرين ضيعة يقيم أهلها على الذل والبؤس قانعين راضين حتى إستباح هذا الملك لنفسه ان يقول « ان الحكومة . . . أنا

L'état c'est moi »

ولعلنا لسنا فى حاجة الى التحدث عن الشقاء الذى كان يعانيه الشعب الفرنسى لـكى يشبع شهوات هذا الملك المنهوم الذى لاحد لأطماعه ولا نهاية لآماله . فـكانت حياة فرنسا تعصر اعتصارا لتتغذى من عصارتها كـبرياء لويس الرابع عشر الذى خلف فرنسا بعد موته — وبعد حروبه الطويلة المنهكة واسرافه الغير موصوف وقد انقطع نظيره ـ أمة عجفاء لاخير فيها ولا رجاء منها. وجاء بعده لويس الخامس عشر فـكان شر ملوكها اذ بينما كان

لويس الرابع عشر يسىء الى فرنسا فقد كان أيضا فى الوقت نفسه يظهر بمظهر الملك القوى العظيم الذى يستطيع ان يؤثر بمظهره الفخم فى نظرة الناس الى دولته . فان لويس الخامس عشر كان ملـكا مستهترا متهالـكا على الفسق والفجور لاعمل له غير معاشرة النساء وتنظيم حفلات الصيد .

وجاء بعــده لويس السادس عشر فتلقى التركة ينز منها الدم ويطوف حولها الدخان . وبالرغم من أنه كان شابا ذكيا مثقفا يحمل اجازة فى التاريخ والجغرافيا — ولم يكن هذا بالمعهود بين الملوك — ومع أنه كان يخالف سلفه مخالفة تامة وكان يكره هذا الفساد القائم فى القصر وكان يميل الى الايمان والتعلق بالديانة .

بالرغم من هذا كله فقد كان شابا صغيرا . ضعيف الهمة عن أن يحتمل اعباء الملكية فى فرنسا . والثورة على الابواب !

لقد كان اضعف من ان يكون الملك الحازم . وكانت زوجته مارى تيريزا النمساوية مستهترة . طائشة . متعصبة لآرائها الفاسدة . فلم تلبث ازاء ضعفه أن طوته وامتلكت زمامه واخذت تتصرف فى شئون فرنسا للتحفزة المتوثبة !

ومن هذا نرى ان لويس السادس عشر لم يكن له من الذنب شيء وأنه انما كان ضحية لآبائه واجداده الذين ورثوا له الثورة فى ما ورثوا من ملك وجاه . وهكذا يعطينا التاريخ دائما مثلا واحدا هو أن الطغاة من الملوك يهيئون الثورة فى حياتهم لكى يصلى سعيرها أولادهم بعد مماتهم . لأن عصر طغيانهم يكون لايزال تحت يدهم الباطشة والثورة بنت زمن فهى تفرخ فى عصور الطغيان ثم تنفجر حينما تنضج وتستكمل حياتها ويكون ذلك عادة فى عصور الابناء الذين لم تتلوث ايديهم بدم الجريمة التى ارتكبها آباؤهم .

ابتداء الثورة

حركة الاصلاح

كان من نتائج الثورة الفكرية التى قام بها الادباء والمفكرون والفلاسفة . ومن أثر ذلك الظلم الذى تركز وتضخمت طبقاته بعضها فوق بعض وكلها فوق كاهل الفرنسى أن سرى شعور قوى بوجوب اصلاح هذه الحال ورأت الحكومة من جانبها ان الاصلاح واجب على الاقل لحفظ كيانها ان لم يكن الدافع له الرحمة بالشعب

وكانت اصوات الشعب والطبقة المتوسطة دائمة الدوى بطلب الاصلاح اما طبقة الاشراف ورجال الدين فقد كان من صالحهم بقاء القديم على قدمه لكى يظلوا متمتعين بامتيازاتهم العظيمة إلا بضعة منهم انطوت اجسادهم على ضمائر حية . وأشربت روحهم مبادىء الفلسفة والأدب التى سبقت الثورة فانضموا الى الشعب فى مطالبه .

وكان يقود حركة المطالبة بالاصلاح زعماء مفكرون متعلمون من رجال السياسة خرجوا من صلب الطبقة المتوسطة

التى كانت تشعر بالالم وهى فى الوقت نفسه قوية بثراءها

موقف الملك

رأى الملك حرج مركزه ولكنه عزم على سلوك سبيل الاصلاح وعقد النية على ذلك وأخذ يتدبر فى ايجاد الوزراء المصلحين وعانى فى ذلك كثيراً . فلقد كان يعين الصالح منهم فسرعان ماتتدخل زوجته أو اقاربه أو حاشيته فيفسد عليه اختياره .

فلقداصطفى حينا دوق داجويون D'aiguillon ثم تيراى Abbé Terray وموبيو maupeou الذى الغى البرلمانات .وبعد ذلك اراد أن ينهج نهجا جديدا فاختار الكونت موريبا m urepas فألف هذا وزارة واسندوزارة المالية فيها الى ترجو Turgo وزير فرنسا العظيم وكان مديراً لاحدى بنوك فرنسا فى ذلك الحين .وكان لترجو أثراً كبيرا إذ أنه فى مدى عام استطاع أن يجعل المتوفر فى خزائن الدولة ١١ مليونا من الجنيهات بعد ان كان العجز قبله يصل الى ٢٢ مليونا .

ولكن الاشراف ورجال البلاط ثاروا على ترجو لأن الوفر اضربهم ضررا عظيما اذ كان ينقص من مصاريفهم وماهياتهم ومظاهر بذخهم وترفهم وكادوا ييئسون له سوء المصير وخاصة لانه كان صديق (فولتير) وكان فولتير آنئذ من المغضوب عليهم. ولكن العاصفة مرت وثبت ترجو إلى أن توالت الدسائس ضده واشترك فيها رئيس الوزارة نفسه حتى لجأ الى تزوير ورقة تثبت قذف ترجو فى حق الملك والملكة فعزله الملك وتولى بعده الوزير العظيم نكر Necker وكان ثقة فى الشئون المالية ونهج نهجا جديدا فى اصلاحاته وكان أول من فكر فى نشر ميزانية الدولة على الجمهور ونفذ ذلك بما سماه Compte Rendu au Roi ودعا الى عدم فرض ضرائب جديدة على الاهالى الا برضائهم . وكادت تنصلح الاحوال على يده لولا ما حدث من تدخل فرنسا فى حرب استقلال أمريكا وما تسبب عن ذلك من ارتباك مالى اراد أن يصلحه بالتوفير من الوظائف والمقررات الممتازة للاشراف ورجال الحاشية وغيرهم ولكن مصيره فى الوزارة عاجله كما عاجل ترجو لنفس السبب فاعتزل عمله

بعد ذلك توالى على الوزارة وزراء جهلة لا يصلحون لها. أفسدوا ما أقامه من سبقهم. وظهرت نساء القصر وعلى رأسهن الملكة

يمين ويعزلن من يشأن فجاء (كالون) وكان جاهلا غرا وكان كل همه منصرفا الى ارضاء الملكة باقامة الحفلات وأراد أن يفرض ضرائب جديدة ورأى أن يكون لهذه الضرائب مع باقى اقتراحاته قوة فعمل على استدعاء جمعية من الاشراف انتقى الملك أعضاءها من الجمعية العمومية ولكنه بعد انعقاد هذه الجمعية فشل لان أعضاءها عارضوه بشدة . ثم ظهر بعد ذلك أنه استدان وعقد قروضا أثقل بها كاهل المالية الفرنسية فرفته الملك وأعقبه لومينى دى برين Lomenie de Brien وحلت جمعية الاشراف ورأى برين أن الازمة مستحكمة الحلقات وأن لا مفرج لها إلا بفرض ضرائب جديدة . فتقدم الى برلمان باريس . وهو الذى تكلمنا عنه سابقا يطلب فرض ضرائب يتساوى فى دفعها جميع أفراد الطبقات الثلاث . فرفض البرلمان اقرار هذا الطلب .

الشرارة الأولى للثورة

وكما قلنا سابقا عند الكلام على البرلمان ان للملك اخترع حقا له أسماه (سرير العدل) بمقتضاه يقر البرلمان القانون الذى يحضر عرضه الملك . وبناء على ذلك أقر البرلمان المشروع ولكنه قدم احتجاجا شديد اللهجة على الملك وتصرفاته وعلى وزرائه وتصرفاتهم

فكانت اجابة الملك على ذلك أن نفى أعضاء هذا البرلمان من باريس .

على أن الحال أضطرت برين الى ارجاع الاعضاء المنفيين ودعوتهم للاجتماع . فاجتمعوا وعرض عليهم مشروع قانون بفرض ضريبة جديدة فرفض الاعضاء بشدة التصديق على هذا القانون وأرادوا أن يتخلصوا من حروجة الموقف وفى الوقت نفسه يكتسبوا رضاء الشعب وقد شعروا بأنه قد تكون فى فرنسا رأى عام مستنير له قوة يطلب ودها ويخشى شرها فاقترحوا أن تستفتى الامة فى ذلك بدعوة (الجمعيه العمومية) للانعقاد وقد تكلمنا عنها آنفا وقلنا أنها مكونة من ممثلى الثلاث طبقات وهم لا يجتمعون سويا وهى لم تكن قد انعقدت منذ عام ١٦٨٤

على أن للملك أفسد هذه الحركة بحضوره جلسة البرلمان واستعماله حقه فى سرير العدل مما أدى الى الموافقة على مشروع القانون . على أن صدر الملك كان قد احرج بهذه للمارضة القوية وليس أضيق من صدر ملك تغذى من دم الاستبداد وغرق فيه الى أذنيه على صيحة من صيحات الشعب فى برلمان أو فى صحيفة ! فانه رغم موافقتهم على القانون رضوخا « لسرير العدل » لم يطلق صبرا

على عدائهم له و تمى زعماء المعارضة وشتت أعضاء البرلمان وقد خرج المنفيون من باريس فى احتفال عظيم . وأخذوا يتابعون معارضتهم فى منفاهم مما كان له صدى فى البرلمانات الاخرى .

وقد زادت ثقة الملك فى برين حتى أعطاه لقب الوزير الاكبر

على أن الرأى العام انفجر ساخطا وظل يلهب الملك والوزارة من هذا السخط ويرميهم بشرر من غضبه . حتى لم يطق برين أن يعمل بين سخط الرأى العام وبين الافلاس الذى تعانيه الخزانة العامة . فعمل على أن يصلح ما بينه و بين البرلمان ورضى أن يسحب قانون ضريبة الدمغة الذى كان يريد اصداره و بعض ضرائب اخرى فرجع أعضاء البرلمان الى باريس فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٨٧ فى وسط احتفال الشعب وتهليله شامخا ملأ عطفيه كبرياء الانتصار على العرش

وكان لهذا الموقف أثره الكبير فى نفوس الشعب إذ شعر هذا الشعب بشىء من قوته بينما غرقت الحكومة فى احتقار عميق المدى وخاصة عندما رأى ما تعانيه من افلاس - حتى اضطر كثير من دافعى الضرائب الى طلب عقد الجمعية العمومية لأنهم تخيلوا أنها قد تكون قادرة على انقاذ الموقف . وفى هذا الوقت رأى برين أن السياسة المنقذة الوحيدة هى فرض ضرائب وعقد قروض وقدر

قيمة هذه القروض ب ١٢٠ مليون جنيه . ورأى فى مقابل ذلك ان يرجع للبروتستانت حقوقهم المدنية ويعمل على عقد الجمعية العمومية .

وعقد لذلك « جمعية ملكية » من البرلمان لتقرهذا القرض وكان ذلك فى ١٩ نوفمبر وسمح الملك للاعضاء ان يتناقشوا بحرية ولكنه لم يطق بعد قليل حرية الاعضاء فى الكلام حتى أنه سرعان ما قطع المناقشة وطلب موافقة سريعة بعد أن خاطبه بشدة أحد الاعضاء لاموانو Lamoignon . ثم عندما تكلم دوق اورليان بنفس اللهجة لم يسع الملك إلا أن خاطبهم بشدة وفارق المجلس . فلم يتفرق الاعضاء وظلوا مجتمعين ورفضوا طلبات الملك . وبعد ذلك صدر أمر الى دوق اورليان بالذهاب الى قصره الريفى والبقاء فيه ثم صدر خطاب مختوم lettre de cachet يقضى بحبس العضوين فريتو Freteau وساباتيه Sabatqler وطلب من بعض الاعضاء الذهاب الى قصر فرساي ليسمعوا تأنيب الملك ولكن البرلمان اعترض على الملك وهنا ظهر اعضاء البرلمان بمظهر قواد الشعب وزعمائه والمدافعين عن حقوقه ضد العرش .

وقد اراد الملك ان يقاوم هذه البرلمانات ويقضى عليها فأخذ يؤلف جمعيات فى كل أقليم من نواب يعينهم هو .

ولكن البرلمانات احتجت على ذلك . وتقس هذه الجمعيات لم تحقق أغراض الملك فكثير منها كان يعارضه

وفى أوائل سنة ١٧٨٨ حاولت الحكومة ان تستصدر اقرارا من البرلمان بمقدقرض ولكنه عارض معارضةشديدة ورفضه .ومما يلفت النظر عندئذ أن لغة البرلمان التى كان يخاطب بها الملك والحكومة أصبحت لغة ثورة . كما أنه يلاحظ أنه فى هذا الوقت انتشرت المنشورات السرية الثورية فى جميع انحاء البلاد حتى قبض .على اثنين من زعماء المعارضة وزج بهما فى السجن وهما ديسبريمينيل D' Espremenil وجوازلار Goislard

وفى ٨ مايو دعا الملك البرلمان الى « سرير العدل» بقصرفرسايل حيث أعلنهم بأنه أنشأ محكمة Cour Plénière لتحل محل البرلمان .ويكون عملها تشريفى . كما أعلن أنه مستعد لعقد الجمعية العمومية عندما تصبح فى حاله تؤهلها لذلك .

وقد احتج رئيس البرلمان على اعلان الملك وأوضح له فى كلام طويل فساد الحالة القضائية والتشريعية والمالية فى البلاد

المحامون

وقد أثار حل برلمان باريس برلمانات الاقاليم مما جعلها تقاوم الحكومة والعرش مقاومة عنيفة . وعندئذ انضم كثير من الاشراف الى الطبقة المتوسطة وتزعم الحركة جماعة من المحامين وأخذوا يثيرون الرأى العام ضد العرش والحكومة

وفى هذه الاثناء أراد برين أن يزيد مقدار ما يأخذه من الكنيسة Don gratuit فثار رجالها وانضموا ضد الحكومة الى جانب المحامين وأعضاء البرلمان

وأصبحت البلاد عندئذ شعلة تتقد . وقد أخذت موقفها فى مناصبة العرش العداء . وفى مقاومة قوانينه ومشروعاته

أول عمل ثورى

وكان أول عمل ثورى عدائى قد قام فى ١٤ يونيه سنة ١٧٨٨ حيث اجتمع اشراف جرنيوبل مع ممثلى الطبقات الاخرى وقرروا أن يعقدوا جمعية دوفينى Dauphiné العمومية من جديد على أن يكون الانتخاب حرا ويكون لطبقة الشعب ممثلون يوازي عددهم عدد ممثلى كل طبقة من الطبقتين الاخيرتين وأن يكون الاقتراع

عاما وكان هذا القرار بناء على اقتراح محام شاب من محامى جرنيوبل وهو جان جوزيف موني Jean — Joseph monier • وقد حدد يوم ٢١ يوليه لانعقاد الجمعية •

وعدت الحكومة هذا العمل ثوريا فارسلت ثلة من الجيش على رأسها المارشال دى فو De Vaux لاعادة النظام ولكن المارشال وجد أن الحالة أشد مما كانوا يتصورون ورأى أن الحل الوحيد أن تترك الجمعية تنعقد ولكن فى غير جرنيوبل وكانت هذه فكرة الجماعة من قبل إذ كان رأيهم أن تعقد فى فيزل vizille على بعد بضعة أميال من جرينوبل

اجتماع خطير

وفى اليوم المحدد انعقدت الجمعية من حوالى خمسمائة عضو وكان من أعضائها موني الشاب المحامى الذى انتخب سكرتيرا وقد قررت الجمعية أن كل القوانين والقروض التى أصدرها وعقدها الملك باطلة ويجب الغاؤها ونادت الجمعية بارجاع الجمعية العمومية وبأن تعقد جمعية عمومية فى كل اقليم • كما قررت الغاء الخطابات المختومة وبأنها لن تقبل أى ضريبة لا تصدر عنها موافقة من الجمعية العمومية

وقد أجلت الجمعية اجتماعها بعد اصدار عدة قرارات الى أول سبتمبر

وقد كان لانعقاد هذه الجمعية أثر فعال خطير فى الرأى العام الفرنسى .

حيرة الملك ورضوخه

وثار الملك ووزراؤه لهذه الثورة على سلطانهم ولكنهم لم يكونوا يملكون القوة للمقاومة . ومضت مدة وهم فى صمت لا يدرون ماذا يفعلون حتى قطعوا هذا الصمت باعلان صدر فى ٢١ يونيه الى رجال الحكومة بالاقاليم يطلبون منهم ارسال ابحاث عن عدد الناخبين وحالتهم وطريقة الانتخاب وتمهيدا لاجراء انتخابات الجمعية العمومية كما طلبت الحكومة من رجال الفكر أن يقدموا اليها اقتراحات بهذا الشأن ترسل الى «حامل الاختام »

وكان لهذا الاعلان رنة فرح وابتهاج فى البلاد .

وقد رؤى الاسراع فى عقد الجمعية العمومية للحالة السيئة التى وجد الوزراء أنفسهم فيها . فكانوا كالغريق يتحسس طرق النجاة دون وعى أو تفكير وقد يخيل اليه أن التعلق بالثعبان ينجيه وقد تكون منيته مترصدة فى أنياب منقذه كما ترصدت منية ذلك العهد الأشأم فى أنياب الجمعيه العمومية

وقد صدر فى ٨ أغسطس ديكريتو باجراء الانتخابات ويحدد انعقاد الجمعية فى يوم أول مايو سنة ١٧٨٩

وهاجت البلاد لصدور هذا الديكريتو وكان يعتبر انتصارا هائلا ضد الملك

انتخابات الجمعية العمومية

لم يكن للشعب الفرنسى تقاليد انتخابية أو دستورية قديمة وكانت كل أفكاره أو تصرفاته فى للمسائل الخاصة بالدستور والانتخاب مكونة على اساس ما قرأه وسمعه من آراء واحاديث وكتابات الفلاسفة والمفكرين.

ولذلك فقد أخذت الانتخابات صورة خاصة. إذ بدأ الكتاب يذيعون الرسائل بآرائهم فى الدستور والانتخابات وكان أول من نهج هذا المنهج المحامى الشاب جان جوزيف مونيى Monier إذ أذاع رسالته ملاحظات جديدة على الجمعيات العمومية Nouvelles Observati-ons sur les Etats generaux «صب فيها عبارات الاحتقار على الدستور القديم ونظام الجمعية العمومية القديم واشار بالنظام الدستورى الانجليزى وطلب فيها من الناخبين أن يجعلوا مطالبهم التى

يعلأوابها الدفاتر cahier تمس المهم فى كل شىء دون أن تتعرض للأمور التافهة .

وذلك لان الناخبين أخذوا يطبعون دفاتر بمطالبهم ويقدمونها الى للمرشحين .

وكتب أيضا فى ذلك الحين إيمانويل — جوزيف سييس Sieyes رسالته« ما هى الطبقة الثالثة .qu ést — ce — que le. Tiers Etat ?

وفى أولها يتقدم بهذه الاسئلة الثلاثة : —

(١) ما هى الطبقة الثالثة ؟ هى كل شىء !

(٢) ماذا كان أثرها فى الحياة السياسية الى الآن ؟ لا شىء

(٣) ماذا تطلب ؟ أن تكون شيئا ما

وطالب سييس وطالب معه الشعب أن يكون عدد ممثلى الطبقة الثالثة — طبقة الشعب — مساويا لعدد ممثلى الطبقتين الاخيرتين مجتمعتين .

وقد كان لهذا أثره إذ سرعان ما اشار نكر Necker — الذى

كان وزيرا فى هـذا الوقت — على الملك أن يعمـل ذلك حتى تم القرار على أن يكون عدد ممثلى طبقة الشعب مساويا لعـدد الممثلين الاخرين .

فتتابعت الرسائل وفيها روح روسو ولهجته وألفاظه من كثيرين من المفكرين والادباء ورجال القانون ومنها :—

Le Gloir in Excelsis du Peuple, le de profundis de la Noblesse et du clergé, la Semaine Sainte ou les lamentations du Tiers Etat

وكانت أمثال هذه الرسائل النارية تثير النار فى الهشيم والحكومة لا تملك أن تعمل عملا

وكانت الانتخابات بالنسبة للاشراف على درجة واحدة

وتختلف قليلا بالنسبة لرجال الكنيسة إذ كان الكبار منهم ينتخبون نوابهم على درجة واحـدة أما القسس والكهنـة ذوى الرتب الصغيرة فينتخبون نوابهم على درجتين

أما الشعب فكان ينتخب على درجتين وكان يشترط فى الناخب أن يكون فرنسيا عمره ٢٥ سنة وأن يكون أسمه مسجلا فى قوائم دافعى الضرائب

وكل أصحاب المهن وأصحاب الاملاك والعمال الاعضاء فى الجمعيات التعاونية ويدفعون ال Taille d'industrie

وكان كل مائة ناخب يجتمعون فينتخبون مندوبا واحدا عنهم . وأصحاب المهن الحرة ينتخبون اثنين من كل مائة وهؤلاء المندوبين ينتخبون النائب

وكان المرشحون يعقدون اجتماعات حيث يشرحون للشعب مبادئهم وآراءهم . وفى هذه الاجتماعات كان يقدم أفراد الشعب للمرشحين مطالبهم . وكانت أهم هذه المطالب هى:

(١) أن لا توافق الجمعية على فرض أى ضريبة و قبل أن يظهر دين الحكومة ويتحدد و قبل أن تضمن حرية الافراد

(٢) أن تضع دستوراً للبلاد يناسب حالتها . ويتقرر فى هذا الدستور المبادىء الآتية :—

(١) مسئولية الوزارة أمام البرلمان

(٢) مبدأ سيادة الامة واعتبارها مصدر السلطات

(٤) المساواة : فى الحقوق والواجبات وأمام القانون . وفى الضرائب و التوظف

(٥) أن يكون الانتخاب أساس كل سلطة

(٣) ان يجعل لانعقاد الجمعية مواعيد ثابته دورية محددة

(٤) الغاء الخطابات المختومة lettres de cachtes

(٥) أنشاء جمعيات للمديريات

وسارت الانتخابات فى جو ثائر . يشتمل فيه الشعب حماسا شاعرا بالقوة مهتزا بالاحساس الوطنى ولعلنى أقول مع أحـد المؤرخين المنصفين أن أيام الانتخاب هذه قد أسرعت بايام الثورة واستعجلت هبوبها

نتيجة الانتخاب

كانت نتيجة الانتخاب دالة حقيقة على أن هذا الشعب المفقود النسب بالروح الدستورية قد نبهته الاراء وأنضجته كتابات المفكرين فقد انتخب ١٢١٤ نائبا من خيرة الرجال منهم ٣٠٨ عضوا من رجال الـكنيسة و ٢٨٥ عضوا من النبلاء و٦٢١ عضوا عن الشعب

وكان من نواب الشعب ٢٥٠ عضوا من رجال المحاماه والقانون و ٤٠ من الزراع و ١٣٠ من التجار واصحاب الاملاك وذوى الثروات و١٥ طبيبا واربعة من رجال الـكنيسة ومنهم سييس Sieyés و١٥ من النبلاء وعلى رأسهم الشريف ميرابو — الزعيم الخطيب الخالد وهؤلاء

الاشراف ورجال الكنيسة قد انضموا الى نواب الشعب وفاء منهم لمبادىء الديمقراطية التى اشربت بها روحهم.

ومما يلاحظ ان نواب الشعب كانوا اكثر الاعضاء علما وثقافة وأشدهم نشاطا واجتهادا . واقدرهم خطابة وتعبيرا عن آراء روسو ومونتسكيو.

اجتماع الجمعية

مكان الاجتماع

كان يحس أنصار الملك بخطورة انعقاد الجمعية العمومية ولذلك فقد اقترح بارينتا Barentin وهو حامل اختام الملك أن لايكون الاجتماع فى باريس واقترح أن يكون و سوسو Soissons أو فى احدى مدن الاقاليم. ولكن نكر رأى أن ذلك يستدعى نقل العرش والحاشية مما يكلف الخزينة مالا طاقة لها به فى مثل حالة افلاسها على أن أكثر الوزراء ومستشارى الملك قرروا أن يكون الاجتماع فى فرساى حيث يوجد للملك والوزراء وحيث يكونوا ن فى مأمن على حياتهم . وهكذا قدروا نساء تقديرهم وجعلوا قصر فرسياى المهد الذى ولدت فيه الديمقراطية الحديثة.

يوم الاجتماع

٤ مايو سنة ١٧٨٩ !

يوم مشهود خالد لا فى تاريخ فرنسا فحسب ولكنما فى تاريخ الانسانية جمعاء.

بكر فيه الناس من باريس ومن الاقاليم يملأون الشوارع المؤدية الى قصر فرساى حتى ملأوا الشوارع والنوافذ بأعالى البيوت وغصون الاشجار

والفرنسى تثير أعصابه الاحتفالات بطبيعته فكان الشعب لذلك كأنما مسته تيارات من الكهرباء مرحا وفرحا وطربا. وقد اجتمع ممثلو طبقة الشعب فى كنيسة نوتردام وساروا فى حفل الى كنيسه سان لوى وكانوا يقابلون فى كل خطوة بالهتاف والتهليل وهناك باركهم اسقف نانسى ورددوا القسم امامه ومن هناك ساروا الى فرساى.

وكانت هتافات الشعب لممثليه دون باقى أعضاء الجمعية حارة تهز الجو هزا حتى تبلغ بعد الافق وذروة السماء وكان الحماس بالغا ما لم يبلغه فى عهد من عهود فرنسا: ولا غرو فهذا تنفيس الصمام عن ضغط الاجيال والقرون!

وقد دخل نواب الكنيسة أولا ثم ممثلو الشعب فاهتز المكان بالهتاف والتصفيق وبعدهم جاء نواب الاشراف فساد الصمت وبالرغم

من ان الاعضاء اكتمل عددهم فى الساعة إلا أن الملك لم يحضر إلا فى الساعة العاشرة. وقد سارت بجانبه الملكة يحف بهما الامراء والاميرات وقد لوحظ ان الشعب ارسل هتافا للملك دون الملكة مما كان له أثر فى نفس الملكة.

وكان أهم مالفت الانظار أن نواب الشعب لبسوا قبعاتهم على رؤوسهم على خلاف التقاليد التى كانت جارية من ان نواب الطبقة الثالثة يكونون عارى الرؤوس وفى هذا معنى التمرد على النظم والتقاليد القديمة.

وبعد قليل وقف الملك والقى خطبة العرش وكان صوته متهدجا منفعلا

وكان ملخص خطبته القصيرة ابداء جميل عاطفته لحلول ذلك اليوم الذى طال حنينه اليه ورؤيته نواب الامة التى يسعده ويجد مجده فى ان يكون ملكا لها.

ثم ذكر كيف مر وقت طويل جدا على آخر مرة انعقدت فيه الجمعية حتى كاد الناس يعتقدون انها لن تلتقى. على أنه لم يتأخر لحظة عن التفكير فى العودة بالبلاد الى نظام تستمد منه قوة جديدة ويتحقق به للشعب عنصر جديد من عناصر السعادة. « وانه مامن غاية نبيلة يرجى منها الخير للمصلحة العامة

وما من واجب يمكن ان يقوم به ملك على اعتباره اول واعظم صديق للشعب إلا وهو يسارع الى ان يؤملوه عنده .

وإن اكبر امل يملأ قلبه وأشد امانيه ان يرى المجلس .وقد خيم عليه الوفاق وسلك سبيل حسن التفاهم وأن يكون هذا الاجتماع الاول بداية عهد من عهود الرخاء والسعادة للبلاد . فاذ تحقق هذا فهو الجزاء الوفاق من الله له على شريف نواياه وصدق محبته لشعبه . »

وقد أثار هـــذا الخطاب الودى انفعال النواب فصفقوا طويلا بشدة .

وفى اليوم التالى عقــدت جلسة أخرى فى الساعة الثامنة فى قصر فرســاى بالردهــة المسماة Salle des menus plaisirs وقد حضر الملك فى الساعة العاشرة وافتتح الجلسة . ووقف بعد ذلك حامل الاختـــام . وزير الحقانيـــة وقتئذ — والقى خطبتـه الطويلة .كانت عبارة عن تعديد لافضال الملك وحذر الشعب فى اسلوب تهديدى من الاستماع الى اراء المنهوسين أنصار التجديد . حتى لا يحدث انقلاب خطير فى نظم البلاد ثم أخذ يعدد للاعضاء الموضوعات التى يستطيعون أن يبحثوا فيها دون سواها وانتهى من خطابته الطويلة دون أن يتحدث بشىء عن النظم

المشروعات الدستورية التي كانت مسائل الساعة وكانت أهم مايفكر فيه الاعضاء والرأى العام

ثم خطب بعده نيكر الوزير المحبوب من الشعب وكان الناس فى شوق متلهف على سماع خطبته ولكنه أطال وأطال فى الشئون المالية واسهب فى سرد الارقام والحسابات حتى أن صوته ضعف دون اتمامه فأسلمه أحد السكرتاريين ليتممه . على أن هذا الخطاب الطويل الذى تصدعت منه رؤوس الاعضاء وملأ نفوسهم سأما وقلوبهم تحرجا وضيقا لم يلمس موضوعا من الموضوعات السياسية أو الدستورية التى كانت تهم الناس فى ذلك الوقت والتى ينتظرون من نيكر الوزير المحبوب المعروف بميوله الاصلاحية أن يتكلم عنها بشجاعة وقوة . ولكنه إذ لم يفعل خيب ظنونهم وضيع امالهم . ومن ذلك اليوم بدأت محبة الشعب لنيكر تتقاص وتفنى.

على أن ما يجب ملاحظتـــه فى هذا الاجتماع أن الوزراء لم يقوموا بتقديم أى مشروع قانون أو اقتراح — كما أن الملك لم يقدم أى لائحة لتسيير المناقشـــات أو نظـام للاجتماع . وكان هذا عملا سخيفا من الملك لانه ترك بذلك مصالح فرنسا وحياتها فى يد جماعة يبلغون أكثر من الف ومائتى شخص غير مدربين ولا مجربين وليس لهم نظام ثابت يسيرون عليه

وكان أول ما واجهه به الجمعية من المشاكل كيفية الاجتماع .

ولقد كان العمل جاريا فى عهود الجمعية قديما على أن يجلس ممثلو كل طبقة وحدهم منفصلين فكانت المشكلة فى دل يجرى النظام على ماكان عليه قديما أم يجتمع كل الاعضاء فى غرفة واحدة

ولقد كان لحل هذه المسألة أهمية كبرى إذ كان عدد نواب الشعب مساويا لعدد نواب الطبقتين الاخرتين فلو أنهم اجتمعوا معا فى مكان واحد لرجحت كفة الشعب فى المناقشات وأخذ الرأى ولو أنهم انفصلوا فاصبح لنواب الشعب صوت واحد ولكل نواب طبقة أخرى صوت لرجحت كفة الطبقتين الثانيتين لانهما صوتان ضد صوت واحد . ولذلك فقد كان من رأى الاشراف ورجال الدين أن ينفصل ممثلو كل طبقة عن الاخرى . وكان من رأى نواب الشعب الاجتماع فى مكان واحد

على أنه نظير أن الاشراف ورجال الدين أرادوا أن ينهوا الامر بشكل عملى ففى يوم ٦ مايو وجد نواب الشعب أنهم فى قاعة الـ Salle des menus Plaisirs وقد انفصل عنهم الآخرون فى غرف أخرى

كان من الصعب على نواب الشعب العمل وهم لا يعرف منهم الواحد الاخر ولم يمر الوقت الكافى لكى تظهر فيهم الزعامة

ولا الشخصيات الممتازة . ولم يكن كثير منهم على علم بالتقاليد البرلمانية وقد فاجأهم موقف زملائهم ولكن الروح المتيقظة . والاراء الحديثة المبثوثة فى رؤوسهم وخيالهم سرعان ما تغلبت على هذه الصعوبة وبدأت تظهر بعض الشخصيات العظيمة أمثال مونييه Monier وكان من أعرف أهل عصره بالشئون الدستورية وسييس Sieëys صاحب الرسائل والكتابات التى جعلت اسمه علما من قبل انعقاد الجمعية Malouet على أن شخصية أخرى قد غطت على هؤلاء جميعا واندفعت بقوة نحو الصدر فتسلمت زمام الزعامة فى جماعة الشعب — وان لم يكن أصلا منهم — وهو الشريف جابرييل ريكتى الكونت ديمرابو Honoré—Gabriel Riqueti Comte de Mirabeau وقد كان أبوه ـ الماركيز ميرابو ـ من رجال الاقتصاد والادب ومن أنصار كيسنى Quesnay

تناقش الاعضاء فى الموقف فاقترح مالو أن يتباحث بعض الاعضاء مع ممثلى الطبقتين المنفصلتين فى الامر ولكن مونييه عارض ذلك لئلا يظهر معنى الانفصال من هذا التصرف وخطب ميرابو وأشار بأن يكون مركزهم سلبيا الى أن يروا ماذا يفعل الاخرون . ولكن مونييه غير رأيه ووافق مالو على المفاوضة مع

الاشراف ورجال الدين. وفعلا تكونت لجنة من كل الاشراف وأخرى من الشعب واجتمعت للمباحثة فى ٢٣ و ٢٥ مايو ولكن لم تثمر المفاوضة شيئا وأصر كل فريق على رأيه واقترح الملك بعد ذلك أن تجتمع تلك اللجنة عنده ومعه بعض الوزراء للتباحث من جديد واجتمعت فعلا من ١ الى ٩ يونيه ولكن كانت النتيجة كسابقتها .

وفى يوم ١٠ يونيه اقترح سيز أن يدعو نواب الشعب لاخر مرة للاجتماع معهم فى قاعة الاجتماع.

وفى ١٢ يونيه اجتمع نواب الشعب وانتخب بالى Bailly رئيسا مؤقتا لهم وكان قد اختير من قبل لرئيس Doyen — ولم يحضر الاجتماع أحد نواب الطبقتين الاخيرتين ولكن بعض هؤلاء النواب تسرب فى اليومين التاليين الى القاعة وانضم الى نواب الشعب.

وفى يوم ١٤ يونيه اكتمل الاجتماع فاقترح سييز وميرابو ومالو وكثيرون أن يطلق على جمعيتهم اسماء مختلفة وظلت المناقشة دائرة حتى اقترح ليجران Legrand أحد النواب أن تسمى «الجمعية الوطنية» وأيد سييز هذا الاسم بحرارة حتى وافق عليه الجميع

فى يوم ١٧ يونيـه بحرارة وقوة بإغلبيـة ١٩٤ ضد ٩٠ صوتا . ودوى التصفيق من أربعة آلاف متفرج . وكانت هذه الموافقة على ذاك الاسم كما كان ذلك التصفيق أول علامات الثورة بل أول صيحة من صيحات الشعب المتمرد على النظام القديم البالى . ويبتدىء كل المؤرخين الثورة الفرنسية من هذا الموقف الخالد

وكانت من المشاكل التى اعترضت نواب الشعب أيضا تحديد مركزهم : هل هم مشيرون للملك أم أن لهم عملا آخر وهل يقف الامر بهم الى حد الاشارة والاستشارة أم ان لهم سلطة يباشرونها ؟ على أنهم لم يترددوا فى أن يعلنوا أنهم ـ وهم ممثلو ٩٦ فى المائة من الامة ـ يجب أن يكون لهم الامر فى شئون الدوله . وعلى أسس النظرية الحديثة — نظرية سيادة الامة — قرروا أن لا يقروا النظام القائم فى فرنسا — وقد هاجموا بذلك العرش فى صميمه — وكما أعلنوا أن الضرائب التى تجبى الان غير شرعية . وقرروا انشاء لجنة للبحث فى مسائل الغذاء وتهيئة الاحوال لعلاج المجاعة التى تهدد البلاد .

هنا لم تعد الحرب خافية من الشعب والملك ولم تعد النتيجـة مستترة ولا غامضة بعد أن ظهرت بوادر اليقظة القوية فى الشعب ونواب الشعب .

وقد نزل موقف هؤلاء النواب كما نزلت قرارات ١٧ يونيه كالنكبة الساحقه على رؤوس الملك والاشراف ورجال الدين .
وأراد رجال الملك أن يعملوا عملا فدعوا الى اجتماع بحضره الملك يوم ٢٣ يونيه وأوصدوا قاعة الاجتماع وأوقفوا ببابها حرس من الجند فلما ذهب أعضاء الجمعية الوطنية للاجتماع كعادتهم ووجدوا هذا التصرف الصيبانى لم يترددوا بل امتلؤا حماسا وقوة حتى اقترح بعضهم أن يعقد الاجتماع تحت نوافذ الملك ليقضوا مضجعه ! ولكن أخيرا اتفقوا على الاجتماع بملعب التنس المجاور لقاعة الاجتماع وراس الاجتماع الرئيس بايى وبعض أفراد الشعب كحراس وخدم للاجتماع . وقد غلبهم الحماس والغيظ وأخذوا يباحثون فى موقف الحكومة من تشتيتهم وغلق قاعة اجتماعهم واحتمال التفكير فى حل جمعيتهم وهنا اقترح مونييه أن يقسم الاعضاء على أن لا يتفرقوا حتى يتم وضع الدستور وسرعان ما وضعوا صيغة القرار واليمين ورددها الاعضاء فى قوة وعاطفة : الشعب حولهم منفعل وقد غلبته عاطفته حتى وجم !

وهذه صورة القرار:

« من حيث أن مهمة الجمعية الوطنية هى وضع دستور البلاد

ينظم القواعد الاساسية للقانون العام وتأييد المبادىء الحقة الموافقة للمملكة فليس من حائل ولا مانع لها من اجتماعها وموالاة بحثها فى أى مكان ينعقد فيه . وإن الجمعية الوطنية ليعتبر اجتماعها رسميا مهما كان مكان اجتماع أعضاءها .

و بناء على ذلك تقرر الجمعية أن يقسم الاعضاء على أن لا يتفرقوا ولا ينحل اجتماعهم وأن يجتمعوا فى أى مكان تدعو اليه الظروف الى أن تم وضع الدستور وتؤسسه على دعائم ثابته »

وأصبح اجتماع « ملعب التنس » من أبقى ذكريات الثورة وأحبها الى نفوس الفرنسيين وكثيرا ماتغنى به الشعراء وافتن فى رسمه مشاهير الرسامين أمثال دافيد .

وفى ٢١ يونيه ذهب الاعضاء للاجتماع فوجدوا أن الملعب قد أعد للعب فتحولوا الى كنيسة « سان لوى St Luis حيث انضم اليهم كثيرون من رجال الكنيسة بعد أن تباحثوا وقر قرار أغلبيتهم على ذلك

وقد كان الملك قد دعا الجمعية العمومية الى اجتماع يوم ٢٣ يونيه. اراد به هو ورجاله ان يقاوموا الجمعية الوطنية وينكروا وجودها

وكان هـذا مملا اخرق من للملك نصحه بعدم القيام به وزيره نيكر ولـكنه لم يصغ الى نصحه وأخذ برأى المحافظين امثال Barentin

وفى يوم ٢٣ يونيه امتلأت الشوارع المؤدية الى فرسايل بالجند وأفراد الشعب على الجانبين يحيون نوابهم بحرارة وقوة حتى اذا مامر الملك وجم الجميع وخيم صمت كاد يعصف بالملك ورجاله . وامتلأت قاعة الاجتماع بالنواب . ودخل الملك فى مظهر الابهة والفخامة .

وبعد أن افتتح الاجتماع وقف أحد الوزراء وتلا خطاب الملك الذى اعلن فيه انكاره للجمعية الوطنية وأن قرارات ١٧ يونيه باطلة كما قال إن نواب الامة يجب ان يكون اجتماعهم كما كان سابقا :كل طبقة وحدها وطلب من الجمعية أن تضع حداللمناقشة فى الامور التى تثير النفس .

ثم وقف وزير آخر وتلا خطابا آخر للملك بين فيه مايعتزمه من الاصلاحات واعلن أنه لن تفرض ضريبة بعد الآن إلا بموافقة الجمعية العمومية وان الضرائب الغير مقبولة سوف يعمل على الغائها . وسوف يحدد مبلغ لـكل مصلحة من المصالح كما سيلغى الخدمات الاجبارية . كما ستنشأ مجالس مديريات ... الخ

واختتم خطاب الملك بما يأتى :

ياحضرات السادة . لقد سمعتم آرائى ورغباتى وهى متفقة وشعورى بالصالح العام فاذا لم تؤيدونى فسأقوم بخدمة المصلحة العامة وتوفير السعادة لشعبى وحدى معتبرا نفسى ممثل الامة الوحيد واعلموا ان أى مشروع تقترحونه او أى قرر تصدرونه لاتصبح له صفة القانون إلا إذا حاز تصديقى . وإن عدم ثقتكم بى أمر منكر وانى آمركم — أيها السادة — أن تفضوا اجتماعكم الآن. وغدا على نواب كل طبقة ان يجتمعوا وحدهم »

وخرج الملك وحاشيته وانسحب على أثره جماعة من الاشراف ورجال الكنيسة وبقى النواب الباقون فى صمت عميق وسكون شامل .

وبعد قليل دخل العمال ليحملوا مقاعد الاجتماع . ولكن منظر النواب — على كثرتهم — وهم مسمرون فى مجالسهم وماهم عليه من الصمت قد أثر فى هؤلاء العمال حتى تراجعوا وتركوا القاعة

كان لابد أن ينقذ الموقف . وكان لابد من ان تشيع الحرارة

فى هؤلاء الاعضاء الذين صب فوقهم ماء بارد وكان لابد ان تحمل المشمل يد لـكى تخرج النواب من الظلمة التى أطبقت عليهم .

وقد كان إذ وقف ميرابو بطل ذاك اليوم — فصرخ قائلا — يمزق السكون ويصيح فى اذن فرنسا بل فى اذن العالم والتاريخ :

أيها السادة

انى اعترف لـكم بأن الذى سمعتم الآن ربما كان فى صالح الأمـة ولـكنى اشك دائما فى كل ماتقدمه لنا يد الاسـتبداد وأوجس منه خيفة . فما هذه الدكتاتورية الشائنه ؟ انهم يريدون ان يكرهونا بقوة السلاح على ان نسلك سبيل السعادة التى يرسمونها لنا . فمن هذا الذى يصدر هذا الأمر ؟ انه وكيلـكم ! من هذا الذى يضع هـذه القوانين ؟ إنه وكيلـكم . أيضا ! أنه هو عين الشخص الذى ينبغى عليه ان يتلقى هذه الاوامر عنكم . نعم أيها السادة عنا نحن الذين نمثل ٢٥ مليونا كلهم ينظرون الينا ويتطلعون الى ماسنحمل اليهم من السعادة ولـكن ها أنتم تجتمعون وتتناقشون تحت قوة السلاح . فم يخشون علينا ؟ أين هم اعداء الشعب الذين تريدون حمايتنا من أيديهم ؟ إنى اطلب منكم ان تكونوا عند حد القسم الذى أقسمتموه . ان هذا القسم يمنعكم أن تنفضوا

حتى تضعوا لهذه الامة دستوراً ! »

ورجع كبير الامناء دى بريزيه de brezé وقال (لقد سمعتم ايها السادة أوامر الملك !)

فرد عليه ميرابو صائحا :

(أذهب الى سيدك وأبلغه اننا هنا بأرادة الشعب ولن نبرح هذا المكان الا فوق أسنة الحراب !)

وما كاد ميرابو يتم كلمته حتى صاح النواب بصوت واحد (نعم هذه هى ارادة الجمعية)

ورد عليه ايضا الرئيس بايى قائلا (ليس هناك قوة تفض هذا الاجتماع الا بارادة الاعضاء)

وانسحب كبير الامناء الى حيث لقى الملك فأنبأه النبأ فرد الملك فى ضعف وخور (اذا كانوا لايريدون ترك المكان فدعوهم وشأنهم)

واما النواب فقد خطب بعضهم ثم وقف سييز وقال بصوته الرصين وحالته الجديه (ليكن يومنا ياسادة كأمسنا وهيا نتداول فى شئوننا)

وأخذت الجمعية فعلا تتداول فى أعمالها فقررت شرعية قرارات ١٧ يونيه والتمسك بها كما قررت وجود حصانة برلمانية للاعضاء واعتبار كل معتد عليهم مرتكبا لاعظم الجرائم .

وذاعت انباء ما حدث فهاج الشعب فى باريس منفعلا وانحدرت الجموع الى فرسايل تهتف للنواب وشاع ايضا ان نيكر الوزير الشعبى المحبوب قد استقال فتدفقت على منزله الجموع وحف به موكب من فرسايل الى منزله وقد كان حقا قدم استقالته ولكنه وعد بسحبها تحت الحاح ورجاء الملك والملكة

وفى يوم ٢٤ يونيه دعا الكونت كليرمون — الاشراف الى الانضمام الى الشعب فلبى دعوته ٤٧ منهم على رأسهم دوق اورليان ابن عم الملك . وكذلك رجال الكنيسة انضم اكثرهم الى الجمعية

ولما وجد الملك حروجة مركزه أمر نيكر — الذى استرجعه الملك — أن يكتب الى دوق لوكسمبرج زعيم الاشراف والى الكار دينال دى روشفوكولد زعيم رجال الكنيسة بالانضمام الى الجمعية .فلما أبطآ دعاهما الملك اليه وطلب منهما ذلك فقال له دوق لوكسمبرج « ان هذا الامر بمثابة اعلان من الملك بأن سلطة الجمعية الوطنية أصبحت فوق كل سلطة خصوصا فى الظروف الحاضرة.

التى اصبح فيها الرأى العام على درجة عظيمة من القوة . على أن الاشراف مستعدون ان يفدوا الملك بأرواحهم » فأبى الملك المسكين ان يرجع فى امره وقال « إنى لا اريد أن يموت أحد من اجلى »

وجاء يوم ٢ يوليه فكانت الجمعية منعقده بكامل هيئتها من نواب الطبقات الثلاث تحت رآسة بايى فكان مظهرا من أجل مظاهر انتصار الشعب . واستمرت الجمعية تقوم بعملها وقد حددت يوم ٦ يوليه للبحث فى وضع الدستور

على ان الملك وحاشيته لم يكفوا عن دس الدسائس وكان غرضهم ان يعملوا على حل الجمعية الوطنية . وفى سبيل ذلك أخذوا يحرجون نيكر حتى اقاله الملك هو والوزراء المشايعين له . وبدأت تظهر حركة غريبة لحظها الشعب الباريسى تلك كثرة ظهور الجند — ومنهم فيالق أجنبية — تحت قيادة للمارشال دى بروجلى — فى شوارع باريس وفرساي فاعتقد الشعب ان هذه الحركة مقصود منها القضاء بالقوة على الجمعية .

الثورة

ارسلت الجمعية الوطنية الى الملك وفدا يطلب منه سحب القوات

الاجنبية التى ملأت شوارع باريس فرفض ورد عليهم بأنه وحده صاحب الحق المطلق فى تنظيم حركات الجنود وأنه ينصح أعضاء الجمعية — اذا كانوا يخشون شرا من هذه الجنود — ان يتركوا باريس .

وثارت النفوس لهذا التصريح وكأنما اشعل الوقود المهىء للنار وابتدأ الاضطراب يهز كيان باريس فحيثما كان مكان لاجتماع وقف حشد يستمع الى خطيب يهز اعصابهم ويثير خواطرهم ويصور لهم الهول والفزع .

وفى يوم ١٢ يوليه علم الشعب أن أمرا صدر بنفى نيكر وزيرهم الشعبى المحبوب وان هذا الامر نفذ بطريقة سرية منذ الامس كما علموا بأن أمرا سيصدر أيضا بنفى دوق اورليان فخرج الناس الوفا محشودين فى الطرقات والميادين والحدائق العامة وقد بلغ انفعال نفوسهم حدا بعيدا . وقد وقف الخطباء فى كل موضع يبثون فيهم لهب الثورة وشعلات التمرد ولعل أجل هؤلاء الخطباء خطرا كان (كامى ديمولان) إذ وقف فى حدائق (الباليه دى رويال) وقد أمسك مسدسا فى يده وهو يقول « . . . . لم يبق إلا طريق واحد ذلك ان نحمل السلاح »

وسرعان ماقامت الثورة وشاعت في باريس وتصادم المتظاهرون والجند حتى كان يوم ١٤ يوليه اذ هجم الثوار على سجن الباستيل وكان يومئذ رمز الاستبداد والصورة القائمة للطغيان والظلم واستولوا عليه وقتلوا حاميته وفكوا اسار سجناءه ·

ويعتبر الفرنسيون هذا اليوم عيد حريتهم يحتفلون بذكراه كل عام . بل يقدسون هذه الذكرى تقديسا

موقف الجمعية والملك بعد الثورة

عقب سقوط الباستيل ارسلت الجمعية الى الملك تطلب منه سحب القوات وتكوين حرس أهلى فلما اجاب سلبا ارسلت اليه الجمعية قرارا تستنكر فيه نفى نيكر وتعلن تحمل الوزراء مسئولية ماحدث وما يحدث من الاعتداء على حقوق الشعب

عندئذ وعندما رأى الملك هياج الشعب وثورته وقوة الجمعية لم يجد بدا من الخضوع وقرر الذهاب بشخصه الى مكان انعقاد الجمعية وكان ذلك فى يوم ١٥ يوليه .

كان فى هذا الوقت ميرابو واقفا يخطب فى الجمعية ويقول « ابلغوه — يعنى الملك — ان جنوده الذين غمرونا بجحافلهم قد

غمرتهم أيدى امراءه وأميراته ورجال حاشيته بالتحف والهدايا وللنح . أبلغوه أن هؤلاء بعد أن امتلأت افواهم ذهبا وخمرا باتوا يتغنون باخضاع فرنسا ويتوعدون بتشتيت الحرس الاهلى)

وجاء الرسول يخبر الجمعية بقدوم الملك ويحدثهم عن نواياه الطيبة فوقف ميرابو أيضا يقول (فلننظر اذن ماهى هذه النوايا الطيبة التى يريد جلالته ان يفضى بها الينا . إن دماء اخواننا تسيل فى باريس فليكن احترامنا الحزين هو أول مايقابل به الملك نواب هذا الشعب التعس . ان فى صمت الشعوب درسا للملوك !)

ودخل بعد ذلك قاعة الاجتماع فقابله الاعضاء فى اول الامر بالصمت العميق ولكنه تقدم اليهم وخاطبهم متوددا ثم اعلن أنه سيسحب القوات .وأنه سيعيد نيكر وبريتوى Breteuil وأصحابهما المنفيين كما أقرهم أيضا على نفى امثال الكونت دارتوا والبرنس دى كوندل والبرنس كونتى ودوق دى بربون والمارشال دى بروجلى وفى مقابل ذلك طلب الملك من الجمعية ان تكون وسيطا بينه وبين شعب باريس الثائر .

وقد ذهب وفد من الجمعية الى ثوار باريس فاستقبلوا فى

الاوتيل دي فيل Hôtel de Ville استقبالا حارا وانتخب بايى عمدة باريس والماركيز دى لافايت رئيسا للحرس الاهلى

وفى ٧ يوليه ذهب الملك الى باريس فى حماية بايى والماركيز دى لافايت وقد احتشد أكثر من مائة الف من سكان باريس فى طريق الملك يهتفون له حتى وصل الى قصر المدينه Hôtel de Ville وصادق على قرارات أهل باريس من تعيين بايى عمدة ولافايت رئيسا للحرس . وبذلك انتهى أمر السلطتين التشريعية والتنفيذية الى يد الشعب .

وكثرت الصحف بعد ذلك واصبح كل شخص يستطيع أن يبدى رأيه بحرية تامة سواء بطريق الكتابة أو الخطابة

ونشر لوستالو جريدته ثورات باريس التى فى أيام قليلة بلغ توزيعها اليومى ٢٠٠ الف نسخة كما نشر ايضا كامى دى مولان Camille Demoulins صحيفة أخذ يصدرها بمقالاته الملتهبة . وكذلك اصدر مارا صحيفته صديق الشعب .

اما الجمعية الوطنية فلم تعد تخشى الملك ولا دسائس الحاشية ولكن روعها ما أصبحت عليه العاصمة من الفوضى فأخذت تسن القوانين وتنشر القرارات والمنشورات .

مناقشات الجمعية

وحان وقت الجمعية لـكى تتناقش فى وضع الدستور لأن ظروف فرنسا فى ذلك الوقت كانت تستدعى سرعة اصـدار الدستور .

وكان يجب أن لاتضيع الجمعية وقتها كثيرا فى المناقشات ولـكن أعضاءها — وكان أكثرهم من رجال المحاماه ورجال الوعظ الكنسى اندفعوا فى تيار حماستهم يتناقشون بحرارة واستفاضة واشتهر من زعماء خطباءهم ميرابو وديسبر يمنيل وكاراليه والقس موراى . وفى وسط هذه المناقشات اقترح الماركيز لافايت اصدار « اعلان حقوق الانسان » كالاعلان الذى أصدره الامريكيين فى مؤتمر فيلادلفيا على أن يكون سابقا على اصدار الدستور وعارض ميرا بو وكثيرون فى ذلك مفضلين أن يصدر الدستور أولا . وبعـد مناقشات طويلة قررت الجمعية اصدار اعلان حقوق الانسان وكلفت لجنة من مونيه وتاليران . وسييس وآخرين

وانعقدت الجمعية فى يوم ٤ أغسطس للبحث فى (اعلان الحقوق) وثارت عدة مناقشات وتقدمت جملة اقتراحات من أمثال دوق دوجيو والفيكونت دى نوى والفيكونت دى بوهارنبة والمطران

كارت ودوق دى روشفوكو ومطران اكس ودوق دى شانتيليه واستمرت المناقشة طويلا وكثيرا من الاعضاء يقدمون اقتراحات

وفى وسط هذا التلاطم الحماسى من المناقشات أعلن كثير من الاشراف التنازل عن امتيازاتهم فى وسط التهليل والتكبير وبذلك تم فى هذه الليلة الخالدة القضاء على ماض طويل مثقل بالاستبداد والامتيازات الجائرة . لما قضى على عهد الاقطاع قضاء مبرما بمافيه من مساوىء وتقاليد جائرة باقامة صلات شكر Te Deum بناء على اقتراح اسقف باريس وتعتبر هذه الليلة فيصل تفريق بين حياتين . حياة مظلمة كلها جور وظلم واستبداد وأنانيه وحياة وضاءة كلها عدل ومساواة وحرية — لا فى تاريخ فرنسا وحدها . ولكن فى تاريخ الانسانية جمعاء إذ ابتدأ الناس يعتنقون مبادىء الحرية والعدالة والمساوات ويتمتعون بها حقا .

ومنذ يوم ٥ أغسطس ـ اليوم التالى ـ والجمعية تنعقد لبحث مواد (اعلان الحقوق) حتى كان يوم ٢٦ أغسطس فأتمت صيغة الاعلان واذاعته وهذه صيغته (بان نواب الشعب الفرنسى المجتمعين فى فى هيئة جمعية وطنية لما رأوا أن ماينزل بالمجتمع الانسانى من المصائب والشقاء وفساد الحكومات يرجع الى سبب واحد وهو جهل حقوق

الانسان أو تجاهلها . والعبث بها . قد قرروا أن يصدروا اعلانا عاما ببيان حقوق الانسان الطبيعية المقدسة التى لا يصح أن تمتد اليها يد العبث والمساومة وذلك ليكون هذا الاعلان راسخا فى أذهان بنى الانسان يذكرهم على الدوام بحقوقهم وواجباتهم ولتحترم أعمال السلطة التنفيذية المنطبقة على الأغراض التى يصبو اليها المجتمع الانسانى ولتكون مطالبة الناس بحقوقهم مؤسسة من الآن على مبادىء واضحة لا نزاع فيها ولا جدال فيكون قوام هذه الحقوق صيانة الدستور وضمانة سعادة المجموع .

لذلك تعلن الجمعية الوطنية بعناية الله العلى الاعلا الحقوق الآتية للانسان : —

١ — يولد الناس ويعيشون احراراً متساوين فى الحقوق لا تمييز ولا تفاضل بينهم الا فيما تقتضيه للمصلحة العامة .

٢ — الغاية من كل مجتمع انسانى صيانة الحقوق الطبيعية للانسان تلك الحقوق التى لا تزول مهما تقادم عليها الزمن وهى الحرية والملكية وطمأنينة النفس ومقاومة الاضطهاد .

٣ — كل سلطة مصدرها الشعب وحده ولا يجوز لاى فرد

أو أى جماعة أن يأمروا أو ينهوا الا اذا استمدوا السلطة من الشعب

٤ — الحرية تنحصر فى أمكان عمل كل ما لا يضر الغير فلكل امرىء أن يتمتع بحقوقه الطبيعية فى الدائرة التى تؤدى بمنع الناس من تلك الحقوق وتحديد هذه الدائرة موكول الى القانون

٥ — ليس للقانون أن يحظر على الناس من الاعمال الا ما يعود بالضرر على المجتمع وكل ما لا يمنعه القانون مباح ولا يحق اكراه امرىء على عمل ما لا يحتمه القانون

٦ — أن القانون هو مظهر الارادة العامة للامة ولأهل البلاد جميعا الحق أن يشتركوا فى وضعه بانفسهم أو بواسطة نوابهم والقانون واحد بالنسبة للجميع سواء كان مانحا أم مانعا ، حاميا أم معذرا والناس سواء أمام المناصب والمراتب والوظائف العامة — لا تفاضل بينهم الا فى اختلاف كفاءتهم ولا تمييز الا فيما تقتضيه فضائلهم ومواهبهم

٧ — لا يصح اتهام انسان وحبسه أو القبض عليه الا فى الاحوال المبينة فى القانون بشرط اتباع اجراءته وكل من ينفذ امراً استبداديا مخالفا للقوانين أو يأمر به أو يوعز بتنفيذه يستحق العقاب وعلى

كل انسان يستدعى او يقبض عليه طبقا للقانون ان يطيع حالا واذا عصى او قاوم يستوجب العقاب

٨ — لايصح ان يحتوى القانون الا العقوبات التى تستلزمها الحاجه الاجتماعية ولا يصح عقاب انسان الا بمقتضى قانون صدر ونشر قبل ارتكاب العمل

٩ — مفروض ان كل انسان برىء حتى تثبت ادانته واذا دعت الضرورة للقبض على امرىء قبل التحقيق من ادانته فكل شدة تستعمل معه دون ان يدعو اليها التأكيد من بقائه رهن السلطة تستوجب العقاب الشديد

١٠ — لايؤذى الانسان لسبب ارائه ولو كانت دينية مادام التصريح بها لايضر بالنظام العام الذي يقرره القانون

١١ — حرية الجهر بالآراء والافكار من حقوق الانسانية المقدسة فلكل أمرىء ان يتكلم ويكتب ويطبع على الحرية بشرط الا يسيء استعمال هذه الحرية فى الاحوال التى بينها القانون.

١٢ — ان ضمان تمتع الناس بحقوقهم يستوجب ايجاد سلطة عمومية فهذه السلطة منشأة لمصلحة المجموع لا لمصلحة من يوكل

اليهم ادارتها

١٣ —— لبقاء هذه السلطة العمومية ولادارة الحكومة عموماً يجب جباية الضرائب العامة وهذه الضرائب يجب توزيعها بالسواء بين الافراد كل بحسب طاقته

١٤ —— لاهل البلاد جميعاً الحق فى ان يقرروا بانفسهم أو بواسطة نوابهم الضرائب التى تستلزمها المصلحة العامة وتقريرها يكون بملء الحرية ولهم ان يحددوها ويحددوا قواعد ربطها وطرق جبايتها ومدتها وطريقة اتفاقها

١٥ —— للهيئة الاجتماعية أن تحاسب كل موظف عمومى وتراقبه فى اعمال وظيفته .

١٦ —— كل هيئة اجتماعية لاضمانة فيها لحقوق الانسان ولا فصل فيها بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية تعتبر محرومة من الدستور

١٧ —— من حيث أن الملكية حق مقدس لايصح العبث به فلا يحل حرمان أحد من ملكيته الا اذا أقتضت ذلك للمصلحة العامة طبقا لنصوص القوانين وفى هذه الحالة يجب تعويض المالك عن ملكه .

وضع الدستور

بعد صدور « اعلان الحقوق » بدأت الجمعية تعمل على وضع الدستور وأخذت تتناقش فى مواده . ونشأ عن ذلك انشعاب الجمعية الى ثلاث شعب . ومضى عامان على هذه المناقشات الطويلة التى تكون مجلدات من الآراء الفلسفية والسياسية والادبية الناضجة القوية وانتهى الامر بعد هذين العامين الطويلين بوضع الدستور وقد تم وضعه واعلانه فى يوم ٣ سبتمبر سنه ١٧٩١ . وحضر الملك الى الجمعية فى يوم ١٤ سبتمبر وأقسم اليمين أمامها بأن يكون مخلصا للأمة والقانون وان يستعمل كل السلطة التى اسندت اليه فى تأييد الدستور الذى قررته الجمعية الوطنية وتنفيذ القوانين .

وقد تضمن هذا الدستور نظرية المساواة بأوسع معانيها . ولكنه حصر السلطة التشريعية فى مجلس واحد اسماه « الجمعية التشريعية . وكان قانون الانتخاب فى هذا الدستور مقيدا وعلى درجتين مما اضطر الجمعية التشريعية الى تعديله بعد ذلك — وقيد الدستور حقوق الملك الى حد كبير . وأهم ما كان فى الدستور من نقص عدم مسئولية الوزارة امام المجلس وكان ذلك تعلقا طائشا بمبدأ فصل السلطات .

على أن ذلك لاينفى عظمة هـذا الدستور الجديد الذى حرج على فرنسا وعلى العالم بأحدث الآراء ـ فى حالتـه حين صدوره ـ الفلسفية والاجتماعية

وانتهت الجمعية الوطنية من وضع الدستو فانتهت بذلك مهمتها وقد انعقدت لآخر مرة فى ٣٠ سبتمبر عام ١٧٩١ حيث خطب كثير من خطباءها خطبا وطنية ومؤثرة واعلنت الجمعية انتهاء اعمالها .

وفى اليوم التالى انعقدت الجمعية التشريعية واعضاؤها لهم صمه لانتخاب الذى تم على أساس الدستور الجديد .

الدسائس

على أن ذلك لم يمنع استمرار انصار الملك فى دس الدسائس وتسميم الجو بقصد الرجوع الى الملكية المستبدة . وكان من أثر ذلك أن ازدادت كراهية الشعب للملك وبدأ ينظر اليه نظرة عدائية كما بدأ الخلاف واستمر بين الجمعية والملك بشكل ظاهر وقوى حتى وقف فرينو — وهو أحد زعماء الجيروندين الذين كانوا يريدون أن يستعملوا الشدة والارهاب لاعداء النظام الدستورى ـ يخطب ضد الملك فى جلسة الجمعية التشريعية مساء ٣ يوليه ١٧٩٢ متهما اياه بالتطواطؤ مع الاعداء . واعتبره متنازلا عن العرش بحكم

الدستور الذى ينص على انه يعتبر متنازلا عن العرش اذا تواطأ مع الاعداء

وفى ١١ يوليه — وقد كانت الحرب على وشك الشبوب بين فرنسا وبين النمسا — كان الوطن فى خطر فهب الشباب يتطوعون فى الجيش . وفى هذه الاثناء كانت الثورة ضد الملك مستمرة فى انحاء البلاد وكان الملك قد حاول الفرار فاسترجع . وكانت الصلات والمراسلات مستمرة بينه وبين اعداء البلاد . مما دعا الجمعية حقا الى التفكير فى تقييد نظام الحكم واعلان الجمهورية . وعندما هاجم الثوار قصر التويلرى فى ١٠ اغسطس التجأ الملك الى دار الجمعية فقررت الجمعية ايقافه . كما قررت الدعوة الى عقد جمعية وطنية — لأن الجمعية التشريعية لم تكن تملك تغيير الدستور — وصدر أمر الجمعية بحبس الملك فى حصن التامبل . وتأليف وزارة وطنية برآسة دانتون .

ودارت الانتخابات بين نيران الثورة المشتعلة فى كل مكان وبين لهب الكراهية للملك . فاسفرت عن انعقاد الجمعية الوطنية الكبرى فى ٢٠ سبتمبر — وكان أغلب أعضائها من أنصار الحكم الجمهورى وفى مقدمتهم روبسبير — باتى — سيرجيز —

كوليو — ديهربوا — مانويل — كامى ديمولان — مارا كارنو — سييس — فرنيو — دانتون.

اعلان الجمهورية

وفى يوم ٢١ سبتمبر اعلنت الجمهورية .

وبدأت الجمعية بعد ذلك تنعقد وتعمل على فض مشاكل فرنسا فى الداخل والخارج وحوكم أمامها الملك ابتداء من ٦ نوفمبر وصدر الحكم بالاعدام فى ٢٠ يناير سنة ٩٣ ونفذ عليه الحكم فى ٢١ يناير .

وأنتهى مصير هذا الملك البرىء . الغر الأحمق الذى أورده حتفه تهافته على سماع نصائح رجال حاشيته الدساسين ولو أنه سمع رأى نصاحه أمثال ميرابو ودانتون لتغير مصيره ولكن اعتزازه أو اعتزاز من حوله بجاه الملكية وتمسكهم بالغطرسة الكاذبة التى طالما استكثرت على الشعب أن يكون له حقا وأن يكون له صوتا قد جنى عليه

كم كان شقاء الملك لويس وما ناله من الشعب موعظة لنفسه حيا !

وكم كان مصير هذا الملك التعس موعظة للملوك بعده ميتا!

وتعاقبت على فرنسا حوادث الثورة وهي معروفة وأهم ما يخص الجمعية أن أغلبيتها قررت ايجاد محكمة تسمى محكمة الثورة لمحاكمة المتآمرين على النظام الجمهوري ... وأنتهت هذه المحكمة بقتل روبسبير

فعاد للجمعية هدوءها وأمكنها أن تعمل على اصدار دستور سنة ١٧٩٣ أنه جعل الانتخابات على درجتين كما جعل للشعب سلطة تشريعيـــة بعمل استفتاء على اصدار القوانين الخاصة بالشئون الهامة

وكان هذا الدستور قد قررته الجمعية في عهد الارهاب ولذلك فلقد كان أقرب الى روح ذلك العهد ولذا فقد رأت الجمعية أن تعهد به الى لجنة لتمحيصه فاثار هذا الغوغاء وهاجموا الجمعية أكثر من مرة ليرغموها على اصدار الدستور كما هو ولكن الاعضاء ثبتوا وأظهروا رباطة جأش وقوة عزيمة حتى استعادوا الامر الى يدهم وأعدموا زعماء الارهاب

دستور سنة ١٧٩٥.

وأصدروا الدستور بعد ذلك يحوى أهم المبادىء الدستورية العصرية فقد نص على ايجاد مجلسين بيدهما السلطة التشريعية بعد أن كانت في

وجعل السلطة التنفيذية فى يد مجلس ادارة من خمسة أعضاء وانتهت الجمعية فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٧٩٥

دستور سنة ١٨٤٨

عادت الملكية فى سنة ١٨١٥ بعد سقوط نابليون فتولى الملك لويس الثانى عشر ثم شارل العاشر الذى خلعه الشعب لاستبداده وولى بعده لويس فيليب. وأغرب ما حدث فى عهده لافساد الحياة الدستورية أن الحكومة كانت ترشح كثيرين من موظفيها وبعد نجاحهم تدفع له مرتباتهم فكانت النتيجة الطبيعية لذلك معاونتهم للحكومة كما عمدت الحكومة على رشوة الاعضاء الآخرين حتى تعالت أصوات الاستنكار من رجال الفكر والقلم وفى مقدمتهم (لويس بلان) و (لدزور رولان) وهو محامى عظيم و (جودفروا) بضرورة اصلاح الحياة النيابية وعدم انتخاب الموظفين وغير ذلك من الاصلاحات. وأخذت هذه الجماعات المفكرة المجاهدة فى سبيل الاصلاح توالى جهادها وعملها وقد كان من الذين انضموا الى هذه الحركة وأصبحوا من أكبر زعمائها شاعر فرنسا الخالد « الفونس دى لامارتين » ومن اقواله فى ذلك احدى خطبه التي يقول فيها :

« اذا كانت الملكية وقد استطاعت أن تستعين بارستقراطية انتخابيه بدلا من أن ترتكز على قوة الشعب . واذا كانت تدفع بالامة الى هوة الفساد الخلقى والرشوة فتلوث الامة بمخازيها وفضائحها . اذا كانت تستطيع أن تجعل من أفراد الامة مجموعة من طلاب المصالح المادية لم ينالوا حريتهم بفضل ما بذله آباؤهم واجدادهم من الضحايا إلا ليضعوا تلك الحرية فى سوق المساومة ويبيعوها بأبخس الاثمان . اذا كانت تصل بفرنسا الى أن تتوارى خجلا من عيوب حكومتها . إذا كانت الملكية تفعل كل هذا فانها ستسقط هذه الملكية ! نعم تأكدوا أنها ستسقط لا فى ثورة الدماء التى سفكت سنة ١٧٨٩ ولكنها فى الشراك الذى تنصبه للامة فكما رات فرنسا ثورة الدماء فسترون عن قريب ثورة السخط العام . ثورة الاحتقار والازدراء »

وظلت الحكومة ممعنة فى طغيانها وفى تسفلها الخلقى حتى بدأت المظاهرات فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٤٨ وبدات فى اليوم التالى ثورة قويه جائحه انتهت باسقاط الملكيه واعلان الجمهوريه وتألفت حكومه مؤقته دعت الى عقد جمعيه وطنيه انتخب اعضاؤها ثم انعقدت فى ٤ مايو وحدثت بها حوادث انقسامية داخليه

وهاجمها العمال ولكنها تغلبت أخيرا واصدرت دستور سنة ١٨٤٨ واهم ما كان يمتاز به اتخاذ النظام الجمهورى والعودة بالانتخاب الى نظام الدرجة الواحدة وفك بعض قيوده والرجوع الى مجلس تشريعى واحد . وجعل السلطة التشريعية فى يد رئيس الجمهورية الذى ينتخبه الشعب مباشرة وقد انتخب رئيسا للجمهورية لويس نابليون وكان من أشد أنصار الحرية والمبادىء الدستورية الديموقراطية ولكنه حالما انتخب رئيسا للجمهورية حن بغريزته الى ارجاع الملكية واخذ يدس لذلك فقامت بينه وبين الجمعية معارك وانتهى به الأمر الى حل الجمعية الوطنية والجمعية التشريعية والقبض على زعماء الجمعية . ولكن كثيراً من الاعضاء اجتمعوا رغم ذلك فى دار الجمعية حتى اخرجهم الجند بالقوة . وكان مائة من الاعضاء قد اجتمعوا بمنزل « دارو » وكيل الجمعية ولكن الجند فرقوهم أيضا وقبضوا على (دارو)

وقفة القضاة

وأجل ما يسجل فى هذا العهد وقفة القضاة إذ اجتمعت المحكمة العليا لمحاكمة لويس نابليون بناء على المادة ٦٨ من الدستور التى تنص على « اعتبار رئيس الجمهورية مرتكبا للخيانة العظمى إذا

حل الجمعية الوطنية أو وضع العقبات امام سلطتها الشرعية وبهذه الخيانة يعتبر رئيس الجمهورية مخلوعا وتنتقل السلطة التنفيذية الى الجمعية الوطنية وعلى المحكمة العليا أن تنعقد فى الحال وتدعو هيئة المحلفين للانعقاد وتعين من يقوم بوظيفة المدعى العمومى لمحاكمة الرئيس »

ولكن الجنود دخلوا قاعة الجلسة واخرجوا القضاة بالقوة بعد أن ثبتت هيئة المحكمة ذلك الاعتداء فى محضرها الرسمى واحتجت عليه فسجلت بذلك اعظم وقفة فخر للقضاء النزيه الشجاع .

أعضاء الجمعية فى السجن

واجتمع فى نفس اليوم حوالى ٢٥٠ نائبا من الجمعية وأصدروا قرارهم بخلع لويس ولكن الجند دخلوا على الاعضاء وأمروهم بالانصراف وهددوهم باطلاق النار فثبتوا فاخرجوهم بالقوة وساقوهم إلى السجن وهم يهتفون « لتحى الجمهورية »

وتألفت جماعة من رجال الفكر دعت الى حمل السلاح ومحاربة لويس وأخذت تنشر المنشورات على الشعب وكان زعماؤهم فيكتور

هيجو الاديب الخالد وكارنوجو فافر المحامى العظيم وغيرهما

وابتدأت المعركة بين النواب ورجال الثقافة والفكر وبين لويس الذى عرف كيف يسيطر بنفسه على الحل بقوة سلاحه وقسوة جنده حتى انتهى الامر بشدته وطغيانه انه استفتى الشعب فأفتى الشعب بالمناداه به امبراطورا او بنظام حكومى يوافق هذه الروح الاستبدادية

دخل لويس فى حرب السبعين وهزم فيها واسر ووصل نبأ الهزيمة فى ٣ سبتمبر سنة ١٧٨٠ فانعقد مجلس النواب واقترح جول فافر المحامى المناداه بخلع لويس واعلان الجمهورية فوافق المجلس بعد ذلك على هذا الاقتراح بعد أن اجتمعت الجماهير حول دار المجلس. وعلا هتافهم ضد لويس وللحرية والجمهورية . حتى انتقل المجلس الى دار البلدية حيث اعلنت الجمهورية وعقب ذلك عقدت جمعية وطنية ابرمت معاهدة الصلح مع المانيا بين مظاهر الاسى والحزن العميق. ثم وضعت دستور سنة ١٧٨٥ وقد كان عبارة عن عدة قوانين

وهذا الدستور يشمل كل مبادىء الدستور الفرنسى إلا بعض تعديلات أدخلت عليه

وانتهى بوضع هذا الدستور الصراع بين الملكية المستبدة

والشعوب المعذبة الطامحة للحرية فلم تكن ثورة فرنسا قاصرة على شعب فرنسا فى نتائجها وآثارها ولكنها كانت ثورة عالمية تأثر العالم كله بها واستفاد منها وفتحت عينيه وآذانه وقلبه الى آمال كبار ورسمت له خطة ثابته فهى مثال يحتذيه كل شعب وقع عليه ظلم الملكية المطلقة . وياليت كل ملكيه مطلقة فى العالم اتعظت بملكية فرنسا فان ما لقيه لويس السادس عشر فى حياته من الآلام وما مر به من عوامل الفزع والرعب والتحقير ليبلغ اضعاف مالاقاه من المحاكمة والاعدام كما أن ما لاقاه الشعب من الظلم والعذاب وقسوة الحكام قد ذاب وامحى فى جلال انتصاره وحلاوة ظفره والنهاية للحق مهما كان ضعيفا والفناء للباطل مهما اعتز بالقوة والجبروت وتزود بالسيف والنار .

مراجع الفصل الثالث

الجمعيات الوطنية ـ للاستاذ عبد الرحمن الرافعي بك المحامي،
الثورة الفرنسية ـ للاستاذ حسن جلال

Moureau , preçis

Duguit

Duguit et H. Monnier

Esmein

Thiers, His de ia Rev Fr .

Carlyle The French Revolution

J.J. Rousseau Emile Le cortrat Social

Montesquieu ' L esprit des lois :

The Cambridgə modern History

الفصل السادس

الدستور التركى

صدر الدستور التركى الحديث فى يوم ٢٠ يناير سنة ١٩٢١ بعد أن أقرته الجمعية الوطنية التى انعقدت عقب الانتصارات التى أحرزها زعيم تركيا العظيم «مصطفى كمال باشا»

وقد وضع هذا الدستور على أساس الروح الدستورية الحديثة فى الامم المتمدنية مع اضافة المبادىء القويمة التى رأى زعماء تركيا الحديثة أن لا بد منها للحكومة الجديدة. والامة الناهضة بعد اعتلالها.

قرر هذا الدستور الذى صدر باسم (قانون التشكيلات الاساسية) أن الامة مصدر السلطات وجعل سلطات ثلاثا تهيمن على شئون الدولة : السلطة التشريعية — السلطة التنفيذية — السلطة القضائية.

وأهم ما يميز هذا الدستور أنه لم يأخذ بنظرية فصل السلطات فجمع السلطتين التشريعيــة والتنفيــذية مما وجعلهما فى يد المجلس الوطنى الكبير وهو « برلمان تركيا »

وهذا الدستور مكون من ٢٢ مادة رأينا — تحقيقا للفائدة اثباتها برمتها وهى :

المادة ١ — سلطة الشعب ملك للشعب دون قيد ولا شرط والقاعدة الادارية قيام الامة بادارة شئونها بنفسها فعلا

المادة ٢ — السلطتان التنفيذية والتشريعية مجموعتان في المجلس الوطني الكبير الذي يمثل الامة وحده تمثيلا حقيقيا

المادة ٣ — يقوم المجلس الوطني الكبير بادارة الدولة التركية وتسمى الحكومة الوطنية (حكومة المجلس الوطني التركي الكبير)

المادة ٤ — يتألف المجلس الوطني الكبير من الاعضاء الذين ينتخبهم سكان الولايات.

المادة ٥ — يجدد انتخاب المجلس الوطني مرة كل عامين. فالمدة الانتخابية لكل عضو عامان إنما يجوز أن ينتخب العضو مرة أخرى ويستمر المجلس السابق في القيام بواجبه الى حين انتخاب المجلس للقبل. فاذا لم يكن من الممكن تجديد الانتخابات فلا يجوز مد مدة الاجتماع الى سنة أخرى. ولا يعد كل عضو من أعضاء المجلس الوطني نائبا عن الولاية التي انتخبته بل نائبا عن الامة

المادة ٦ — يجتمع المجلس الوطني اجتماعا عاما في أول شهر اكتوبر من كل سنة بلا دعوة

المادة ٧ — تنفيذ الاحكام الشرعية ووضع القوانين العامة

وتعديلها ونسخها وعقد الصلح والمعاهدات واعلان الدفاع عن الوطن وغيرها من الحقوق الاساسية خاصة بالمجلس الوطنى وتوضع القوانين والانظمه وفاق الاحكام الفقهية والحقوقية التى تكون أرفق بمعاملات الناس وأوفق لحاجات الزمان والاداب والمعاملات وتعين وظائف الهيئة الموكلة لادارة الامور (أى هيئة النظار ومسئولياتها بقانون مخصوص)

المادة ٨ — تدير حكومة المجلس الوطنى دوائر حكومتها بواسطة الوكلاء الذين تنتخبهم وفاق القانون المخصوص . ويعين المجلس الوطنى الوجهة التى يتبعها الوكلاء فى الشئون الادارية ويستبدلهم بغيرهم لدى الحاجة

المادة ٩ — الرئيس الذى ينتخبه المجلس الوطنى الكبير تمتد مدة رياسته بامتداد المدة الانتخابية للمجلس . وهو مأمور بالتوقيع باسم المجلس والتصديق على قرارات مجلس الوكلاء (النظار) وينتخب الوكلاء رئيسا لهم من بينهم لكن رئيس المجلس الوطنى يعتبر رئيسا طبيعيا لهيئة الوكلاء .

المادة ١٠ — تنقسم البلاد التركية باعتبار موقعها الجغرافى والاقتصادى الى ولايات والولايات الى أقضية والاقضية الى نواح

المادة ١١ — كل ولاية حائزة لشخصية معنوية واستقلال ذاتى ويقوم « مجلس شورى الولاية » بادارة أمور الاوقاف والمدارس والمعارف والصحة والاقتصاد والزراعة والاشغال والمعاونة الاجتماعية باستثناء السياسة الداخلية والخارجية والامور الشرعية والحقانية والعسكرية والعلاقات الدولية والاقتصادية والضرائب والتكاليف العمومية التى تضعها الحكومة والامور التى تشمل منافعها أكثر من ولاية

المادة ١٢ — يتألف « مجلس شورى الولاية » من اعضاء ينتخبهم أهالى الولاية ومدة اجتماع ذلك المجلس عامان

المادة ١٣ — ينتخب « مجلس شورى الولاية » رئيسا يقوم بتنفيذ قرارات المجلس وهيئة ادارية يقوم كل عضو منها بادارة شعبة من شعب الادارة. وواجب القيام بالتنفيذ عائد على هذه الهيئة الدائمة

المادة ١٤ — يوجد فى كل ولاية وال ينوب عن المجلس الوطنى الكبير ويمثله . وتعين هذا الوالى حكومة المجلس الوطنى وواجبه مباشرة الامور العامة والمشتركة فى الدولة ولا يتدخل الوالى الا الا عند وقوع تعارض بين وظائف الدولة والوظائف المحلية

المادة ١٥ — كل قضاء ليس الا عبارة عن جزء انضباطي الداري وليست له شخصية معنوية . ويتولى ادارته (قائمقام) تعينه حكومة المجلس الوطني ويكون تحت أمر الوالي

المادة ١٦ – الناحية حائزة لشخصية معنوية واستقلال ذاتي في حياتنا الخصوصية

المادة ١٧ ـ لكل ناحية « مجلس شورى وهيئة أدارية ومدير

المادة ١٨ ـ ينتخب مجلس الشورى في النواحي أهل كل ناحية رأسا

المادة ١٩ ـ ينتخب مجلس شوري الناحية مدير الناحية وهيئة ادارتها .

المادة ٢٠ ـ لمجلس شورى الناحية وهيئة ادارتها سلطة قضائية واقتصادية ومالية تتعين درجاتها بقانون مخصوص

المادة ٢١ ـ تتألف الناحية من قرية أو عدة قرى

المادة ٢٢ ـ تتوحد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات بالتفتيش العام الذي يقوم بمراقبة الامور العامة ووظائف الدولة العمومية ووظائف الادارات المحلية وقراراتها مراقبة دائمة

تاريخ الدستور التركى

صور الحكم فى تركيا القديمة

تاريخ تركيا حركة مستمرة بين الارتفاع والانخفاض. والعلاء والسقوط والمجد والانحلال ومنذ وليها آل عثمان وبرزت للوجود كأمة حية قوية واستولى سلاطينها على الخلافة الاسلامية وهم يحكمون بمقتضى أحكام الشريعة الاسلامية. وكان أمر الحكم من وجهتى الظلم والعدل يرجع دائما الى شخصية السلطان. فمتى كان عامر القلب بالايمان سار على أوامر كتاب الله وسنة النبى. واذا كان ضعيف الروح الدينية غير متعلق باحكام الشريعة طغى واستبد وحكم هواه فى شئون الدولة

على أن الواقع أن السلطان أو الخليفة كان يجمع فى يديه كل السلطة وكان يحكم برأيه لا معقب لحكمه وليس بجانبه من يراجعه بشكل شورى ولم تعرف تركيا فى عهودها الأولى التى سبقت العهود التى سنتحدث عنها بعد أى نظام نيابى ولكنها كانت تحكم حكما مطلقا

وكان يساعد على بقاء هذا النظام المركز الطبيعى لتركيا وقد

كانت مملكة شرقية فى وسط أوربا تحوطها من كل جهاتها ممالك قوية فكان لذلك النزاع مستمرا بينها وبين الممالك التى حولها وكانت الحروب دائمة فما كان يستقر جيشها عاما أو بضعة عام إلا قليلا ولقد كان شغلها بحروبها الخارجية يمنع شعبها من التفكير فى أى نظام داخلى وكان الهم منصرفا نحو التغلب على اعدائها الخارجين أو العمل على توسيع رقعة الخلافة . وظلت هكذا حتى كان عهد « سليمان القانونى » (١٥٨٠ - ١٥٦٦)

عهد سليمان القانونى واصطلاحاته

وقد كان عصره من اسمى العصور التى مرت بتركيا فامتدت فتوحاتها شرقا وغربا وظللت العدالة حياة الشعب وقضى سليمان على قسوة حكام الاقاليم فذاق الشعب لاول مرة طعم الحكومة العادلة. وساوى السلطان بين الافراد ثم قام بحركة اصلاح فى كل فروع الحكومة. فوضع تشريعات جديدة وعدل كثيرا من القوانين القديمة وكاد يقضى نهائيا على نظام الاقطاع الذى كان قائما على طراز الاقطاع فى أوربا. وحسنت على ذلك حالة الشعب التركى وحالة الفلاحين خاصة حتى أن جماعة من فلاحى هنجاريا تركو

بلادهم مختارين واستوطنوا روميليا ليعيشوا فى ظل الحكومة التركية العادلة الانسانية

ولقد كتب أحد مؤرخى الترك كوتشى بك kotchi Bey الذى وصفه فون هامير von Hommer بانه مونتسكيو تركيا عن عصر سليمان فقال (ان هذا الخليفة العادل كان يجلس فى غرفة تتصل بالغرفة التى كان يجتمع فيها مجلس الدولة أو الديوان بحيث كان يتسلط بروحه العادلة على اعضاء الديوان فكان العدل لذلك رائد هؤلاء الاعضاء فى كل ما يجرونه ويتصرفون فيه . وكان بعيدا عن تسلط الحريم لا يعطى المناصب الا لمستحقيها وقطع دابر الرشوة وأقام المالية على نظم ثابتة)

فترة استبداد وحكم مطلق

توفى سليمان القانونى سنة ١٥٦٦ واعقبه خلفاؤه من السلاطين فلم يحسنوا سياستهم ولم يترسموا خطواته فرجعت تركيا القهقرى وتألبت عليها القوات الخارجية وتناوبت فيها الفتن الداخليــــة وقضى على مجدها العظيم الذى بلغته فى عهد ســـليمان . حتى تولى السلطان سليم الثالث والبلاد مختلة النظم والاحكام جائرة والاستبداد متمكن والانكشارية متسلطون على

السلاطين يولون ويعزلون ويقتلون والفوضى ترتع فى البلاد. فبدت من سليم الثالث ميول نحو الاصلاح تحت صرخات الشعب.

فبطش الانكشارية بعومات الاصلاح فى مهده. على أن فكرة الاصلاح عامة لم تمت فقد تلقاها عنه السلطان « محمود » وأخذ ينظم طرق الاصلاح ويبعث بمنشورات لتحسين الحال الى الولاة والحكام ولكنه توفى ولم يستتم من فروع الاصلاح الا تنظيم الجند بعد أن بدد جنود الانكشارية

ظهور العهد الدستورى.

فى هذا الوقت ظهرت فى أوربا وأمريكا روح جديدة فتتابع انتصار الشعوب بنيل حرياتها والظفر بدساتيرها وشبت الثورة الفرنسية فعصفت بمبادىء الاستبداد وزلزلت الظلم والطغيان وتلقى العالم عنها مذاهب جديدة وبثت فى الناس فكرة الحرية والمساواة والعدالة حتى لم تعد هناك أذن لم تصل اليها صيحة تلك الثورة الخالدة ولم تعد هناك نفس لم تتذوق سحر تلك المبادىء. فلما امتدت موجة الثورة الفكرية الى كل الشعوب قام اكثرها ينادى بمبادىء الحرية والعداله والمساواة وكان طبيعيا أن يتأثر الشعب

التركى بتلك الموجه الجبارة فقام كثير من الكتاب ينشرون ويتحدثون عن تلك الاراء الجديدة ولقى هؤلاء الكتاب مناصرة ومعاضدة من بعض وزراء الدولة الميالين بطبيعتهم الى الاصلاح امثال رشيد باشا وعالى باشا وفؤاد باشا الذين أخذوا يبثون فكرة الاصلاح فى عهد السلطان عبد المجيد مما كان من نتائجه صدور أمر سام قرىء علنا فى جمهور من الوزراء والاعيان فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٣٩ جاء فى أوله :

(لا يخفى على عموم الناس أن دولتنا العلية من مبدأ ظهورها وهى جارية رعاية الاحكام القرآنية الجليلة وقوانين الشريعة المنيفة بتمامها ولذا كانت قوة ومكانة سلطنتنا السنية والرفاهية وعمارية أهليها وصلت حد الغاية وقد انعكس الامر منذ مائة وخمسين بسبب عدم الامتثال والانقياد للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة بناء على طروء الكوارث المتعاقبة والاسباب المتنوعه فتبدلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر ..) الى أن قال (واعتمادا على المعونة الالهية واستنادا على الامدادت الروحانيه النبوية قد رؤى من الان فصاعدا أهمية لزوم وضع وتأسيس قوانين جديدة تتحسن بها ادارة ممالك دولتنا العلية المحروسة والمواد الاساسية لهذه القوانين هى عبارة عن الامن على الارواح وحفظ العرض والناموس والمال وتعيين الخراج

وهيئه طب العساكر للخدمة ومدة استخدامهم لانه لا يوجد فى الدنيا اعز من الروح والعرض والناموس والمال فلو رأى انسان أن هؤلاء مهددون وكانت خلقته الذاتيه وفطرته الاصليةلاتميل الى ارتكاب الخيانة ... الخ)

وكان أهم ما تكلم عليه هذا المنشور مسألة الضريبة وتحديدها وثباتها ومسألة الجندية وتنظيمها وحرية الانسان وتأمينه على حياته والتحدث عن القوانين وزيادة اعضاء مجلس الاحكام العدلية وانشاء دار شورى حيث النواب يبدون افكارهم وارائهم بالحرية التامة بدون تحاش وتقرير القوانين المختصة بالامن على الروح والمال وتعيين الخراج) ثم نص على وجوب القسم على حفظ هذا العهد ونص على تحريم الرشوة « بتدوين قانون شديد »

ثم اصدر السلطان فى ١٨ فبراير سنه ١٨٥٦ فرمانا جديدا ببيان الاصلاحات المقتضى ادخالها وهى مسهبه لا تخرج فى روحها عما جاء فى المنشور السابق من ضمان الحريه الشخصيه وعدالة المحاكمه وتنظيم الادارة والجنديه والضرائب وتعيين مجلس للادارة ويرجع الفضل فى هـذا الى «رشيد باشا» الذى أخذ بعد ذلك ينظم القوانين الخاصه لكل فرع من فروع الادارة والقضاء ووضع القوانين

للمحاكم فى مجموعة تسمى « مجلة الاحكام العدلية » وصدرت بعد ذلك عدة قوانين أخرى نسج فيها على منوال القوانين الفرنسية

ثم شغلت الدولة بعدة حروب خارجيـة فى عهد هذا السلطان والذى تلاه حتى كان عهد مراد خان وقد قويت حركة الاصـلاح بزعامة مدحت باشا الذى يسمونه أبا الحرية والدستور

عبد الحميد فى ولاية العهد

وكان ولى عهد هذا السلطان حميد افندى الذى سمى بعد ذلك بعبد الحميد الثانى وكان فى أثناء ولاية العهد من أنصار الاصلاح والدستور وكان يعرب عن تعلقه بالدستور دائما فى أحاديثه حتى يخيل للسامعين ـ كما قيل ـ أنه أشد تمسكا به من واضع الدستور نفسه وكان لذلك يتصل بكثيرين من رجال الاصلاح وعلى رأسهم مدحت باشا وكان يمنى اصدقاءه ورفاقه بحياة دستورية عظيمة سامية حتى استطاع أن يستجلب محبتهم له ورضاءهم عنه وقد اقتنعوا جميعا وبصلاحيته للسلطة وتشرب روحه بالمبادىء الدستورية وحب الحرية .

وفى ربيع سنه ١٨٧١ ، بدأ اسم عبد الحميد يتوارد على الالسن بصورة جدية وكان ذلك فى عهد السلطان عبد العزيز الذى كان غير

محبوب . مستبدا مسرفا غارقا فى شهواته

ظهور زعيم الدستور

وقد ظهر فى هذا الوقت جماعة من العاملين فى سبيل الاصلاح وعلى رأسهم مدحت باشا الذى كان رئيسا لمجلس الدولة وصدرا أعظم . فلما ضاق ذرعه بما تلاقيه البلاد على يد السلطان ترك منصبه وأعلن أنه لن يعمل وزيرا فى هذا العهد الاسود وأرسل تقريرا الى السلطان يحذره فيه من الخطر الذى يدفع السلطان الدولة اليه وقد تجمع حول مدحت باشا كثيرون من عشاق الاصلاح ولعله حوالى نوفمبر أو ديسمبر سنة ١٨٧٥ قد بدأت فعلا فكرة الدستور تظهر فى تركيا لاول مرة وقد أخذ مدحت باشا يعمل على عقد جمعية وطنية وفى سبيل القيام بمشروعاته الوطنية الجليلة أخذ يعمل على اتحاد المسلمين والمسيحيين ونجح فى هذا نجاحا خلده له التاريخ

الثورة الأولى

وكانت الفكرة قوية بأن السلطان عبد العزيز هو الصعوبة القائمة امام تنفيذ الاصلاحات الدستوريه فلم يتوانوا عن خلعه فى ٣٠ مايو سنة ١٨٧٦ وتولية ابن أخيه السلطان مراد . وقد قوبلت هذه الثوره بارتياح عظيم من الشعب وانطلقت الصحف تكتب

بحريه . وقد تمت هذه الثوره على ما كان فيها من الخطورة بهمة « مدحت باشا » بحيث لم يقم لهم معارضون . ولكن السلطان « الجديد مراد » لم يمكن غير اسبوع وظهرت عليه علامات الجنون وكان « مدحت باشا » يشير الحكومة بقوة رعدالة ونزاهة. وكانت هناك فكرة لابقاء السلطان مراد سلطانا اسمعلى أن يقوم الوزراء بالعمل فعلا ولكن كثيرين عارضوا هذه الفكره وعلى رأسهم مدحت باشا الذى اقترح خلع السلطان وتولية اخيه عبد الحميد لتفاقم خطورة المرض وخاصة عند ما سمع وهو فى مرضه بانتحار سلفه السلطان عبد العزيز . وكان مدحت باشا فى هذه الاونه يحضر دستورا وكان نفوذه يتزايد باستمرار وقد ضمنه كثيرا من المبادىء الحديثه وعرضه على الوزراء وكبار العلماء ثم عرضه بعد مناقشه على مجلس الدوله الذى انعقد فى دار شيخ الاسلام وقد حضره الوزراء وكثير من لاعيان قد افقوا عليه بحماس وحرارة وبعد ذلك عرض على العهد عبد الحميد فقبل أن ينفذه بحذافيره اذا تولى السلطنة وزاد وعده وعودا بتوسيع نطاق الحرية فى الدستور اكثر من المشروع المجهز وفى هذه الاثناء كان الطب قد عجز أمام مرض السلطان المجنون وقر القرار بين مدحت والوزراء على خلعه وتولية عبد الحميد وفى يوم ٣١ اغسطس سنة ١٨٧٦ ترك عبد الحميد

قصر « برستا هانم » يصحبه وزير الحربية وفيلق من الفرسان فى الساعة السابعة ونصف صباحا ثم وصل السراى الملكية وكان فى استقباله الوزراء وكبار الاعيان حيث أعلن خلع مراد وتولية عبد الحميد

عهد عبد الحميد .

كان عبد الحميد شخصية غريبة قد امتدت غرابتها إلى أبعد حد وكان شاذ الاطوار قد جمعت فيه كل المتناقضات فكان يبدو ذكيا وغبيا شجاعا وجبانا رحيما وقاسيا مقاتلا ومسالما كريما وشحيحا . على أن جمع المؤرخين على أنه كان خبيث الطوية ماكرا داهية كثير الشك والحذر بل مسرفا فى ذلك . قضى حياته يخشى المؤامرات ويسيء الظن بكل شخص حواليه وخاصة بوزرائه فما متع لأحد منهم بثقته مدة ولو قصيرة . استخدم جيشا هائلا من الجواسيس حتى لقد كان يخيل للانسان فى عهده أن ليس هنالك ساكن فى تركيا إلا وهو جاسوس. ومتى اعتمد الحاكم على الجاسوسية فقل على ملكه السلام . ! ولقد كان هؤلاء الجواسيس يغذونه يوميا بالتقارير عن أعمال الوزراء والسفراء ورجال الحكومة حتى ذوى المراتب الضئيلة والاعيان وكل شخصية فى الدولة وكانت

أغلب هذه التقارير كاذبة يقصد بها اصحابها استدامة نعمة السلطان وكان هو ينظم أعماله ويخط سياسته على أساس هذه التقارير

وكان عبد الحميد بطبيعته نزاعا إلى الاستبداد مسرفا فى الطغيان ظالما . فى سبيل تحقيق أغراضه لا يتورع ولا يتحرج ولا تعرف الرحمة السبيل الى قلبه .ولم يكن ما أظهره من محبة الحياة الدستورية والعطف عليها بل الاسراف فى الوعد بنصرتها. إلا وسيلة لتحقيق أغراضه فى الوصول إلى العرش حتى اذا ما وصل الى أمنيته انتفض شخصا آخر يكره الدستور ولا يطيق أن يكون له شريك فى رأيه ولقد كان أول عمل عمله أن أخذ يناوىء (مدحت باشا) ووزراء الاصلاح الذين عرف فيهم القوة على خلع السلاطين وتولية غيرهم. وكان همه منصرفا إلى تقوية نفوذه واضعاف نفوذ الوزراء بل تشويه سمعتهم فجمع من ايديهم كل سلطة حتى صار الحل والعقد بيده سواء فى السياسة الداخلية أو فى السياسة الخارجية

اعلان الدستور فجأة

وحدث أن ابدى بعض رجال الدول الاجنبية رغبة فى عقد مؤتمر لتقرير أحسن أوجه الاصلاح لكى يعمل بها السلطان وكان ذلك على أثر حوادث فى (بلغاريا) وقد قرر هؤلاء عقد المؤتمر

فى العاصمة فى ديسمبر بعد شهرين من توليته العرش وقد وجد عبد الحميد نفسه فى مركز حرج فلو أنه قبل عقد هذا المؤتمر لأصغر نفسه فى عيون شعبه ولو أنه رفض لعرض نفسه لحرب مع الدول الاوربية وفى وسط الحيرة التى كانت تتجاذب تفكير السلطان وجد « مدحت باشا » فرصته فاقترح عليه لكى يحفظ كرامة ملكه ومن ناحية أخرى لكى يبقى على علاقات الود بينه وبين الدول الاجنبية أن يعلن الدستور فكأنه بذلك قد حقق أمانى شعبه وفى الوقت نفسه أملى على الاجانب ارادته ولم يترك لهم فرصة لكى يعبثوا بسلطته ففى يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦ وهو اليوم المحدد لانعقاد المؤتمر أطلقت المدافع وأعلن رسميا اصدار الدستور وانتهى المؤتمر فى ٢٠ يناير سنة ١٨٧٧ على أنه قد ظهرت نوايا السلطان بعد ذلك مباشرة اذ بدأ فى ٣ فبراير بعزل مدحت باشا وجمع السلطة فى يديه ولكنه أراد أن يستمر فى سياسة النفاق فأجرى انتخابا لمجلس النواب (مجلس المبعوثان) ثم عين أعضاء مجلس آخر هو (مجلس الاعيان)

مجلس المبعوثان

وانعقد مجلس النواب فى ١٩ مارس سنة ١٨٧٧ فى سراى

(بشكطاش) وعنـد افتتاحه تليت خطبة أنيقة عن لسان جلالة السلطان وبحضوره ابتدأها بالشكر والحمد على افتتاح المجلس ثم تحدث عن العدالة وبعض الاستشهادات التاريخية ثم تكلم عن حالة البلاد وعن الاصلاحات و العلاقات الخارجية والحروب وتكلم عن الدستور ومحو الاستبداد و تنظيم الحكومة الى غير ذلك وكانت خطبة فائقة يخال سامعها أو قارئها أن عبد الحميد انما هو مبعوث الحرية ورسول العدالة .

ثم استمر مجلس النواب فى عمله تحت رآسة احمد وفيق باشا وقد كان سفيراً لتركيا لدى بلاط نابليون الثالث — وهو رجل كامل الثقافة — وحضره ممثلون لسوريا والعراق والبانيا وارمنيا

وبالرغم من حداثة عهد الشعب التركى بالحياة النيابية فقد جمع المجلس اعضاء مقتدرين كانوا يثيرون دائما مسائل هامة منها الكثير الخاص بالاصلاح ووجوه التغيير فى الحكومة والقوانين .

وقد أوجد اجتماع نواب الشام والعراق وأرضروم وسالونيك فرصة لهم للتباحث سويا والنظر فى شئون ممالكهم والظلم الواقع على شعوبهم وتبادل الرأى فى وجوه الاصلاح

وكان النواب فى أكثر الاحايين يهاجمون « الباشوات » من

الحكام مهاجمات حقة وعادلة رعنيفة ويفضحون مساوءهم ويكشفون فضائحهم وكان هذا العمل جديدا على تركيا وعلى الحكام المستبدين واخيرا على عبد الحميد الطاغي الذى تلفت واذا به يجد شركاء له فى محاسبة حكامه وولاته . ولو عقل لاستطاع أن يستفيد من مناقشات وآراء النواب لاصلاح الحال . ولكنه ضيق صدر الملوك للمستبدين وحرج نفوسهم الطاغية جعلاهم يكرهون أن يجدوا أمامهم نوابا ويكرهون أن يسمعوا هؤلاء النواب يتناقشون بما يشعر أنهم قد استلبوا منهم شيئا !

وأخذ النواب بعد ذلك يهاجمون الوزراء ويكشفون مساوءهم العامة والخاصة ولكنهم لم يستطردوا من ذلك الى مهاجمة السلطان. غير أن الحال مع ذلك لم ترضه وخاصة عندما طلب المجلس حضور الوزراء والحكام الذين يوجه اليهم الاتهام لمناقشتهم فقد عارض فى ذلك معارضة شديدة .

وفى هذه الاثناء اشتدت الخصومة بين النواب وبين البشوات حتى أصبح من الطبيعى أن يقضى أحد الخصمين على الآخر وكان عبد الحميد يناصر البشوات وقد ضاق ذرعا بالنواب وبالحياة الدستورية وكان دائما يلعن مدحت باشا وذكراه الذى عرض

استبداده لقوة النظام الدستورى . ولذلك فقد اغتنم عبد الحميد فرصة اصرار النواب على احضار ثلاثة من الوزراء وجه اليهم اتهام الى المجلس لمناقشتهم فأعلن حل المجلس وقرر نفى اعضائه خارج استامبول . وقد كانت مدة انعقاد البرلمان شهران

ومن هذا العهد لم تعرف تركيا الحكم الدستورى حتى قامت ثورة سنة ١٩٠٨

عبد الحميد ، مدحت : كره عبد الحميد النظام الدستورى واشتد سخطه عليه لانه لقى من النواب شركاء له فى سلطته وفى تصريف ملكه الشيء الذى هاج نزعته الاستبدادية حتى جن جنونه واختلط عليه الامر . ولما كان يعلم أن هذا النظام من صنع مدحت باشا الذى اشار عليه بايجاده وإعلان الدستور فقد حنق عليه وضاق صدره وانطوى على كراهية بالغة لذلك الرجل الحر ووجد من بطانته وحاشيته من يغذى هذه الكراهية ويشعل نارها ويقوى أوارها وكان السلطان معرضا دائما عن مدحت الذى أحس بما تحمله جوانح السلطان عليه فكتب خطابا الى السلطان فى ٧ يناير ١٨٧٧ هذا نصه نثبته اظهاراً لقدر الرجل ومقدار شعوره بكرامته وما هو عليه من حب للوطن وتقديس للحرية .

مولاى صاحب الجلالة .

« كانت غايتنا من نشر القانون الاساسى أن نبدد ظلمات المظالم ونظهر السبيل القويم لجلالتكم ونحدد واجبات الوزراء ونمنح تركيا التمدن التام فيجب اذن برغم الاوامر الموجودة منذ ثلاثين سنة أن ينفذ النظام الجديد حتى فى هذا الوقت . وقت الازمه الشديده لاننا نشرنا القانون الاساسى لخير الامة لا لمجرد استمالة أوروبا المعادية لنا ولا يشق على جلالتكم أن أقدم لها بعض الايضاحات فى هذا فان جلالتكم المسئوله عن اعمالها يجب عليها أن تعرف حقوقها كما يجب على الوزراء أن يعرفوا حقوقهم أيضا . ثم انه يجب علينا أن نحاكم الخبثاء الذين يخدعون الامة ويجرون عليها الخراب منذ ٤٠٠ سنة وانى لا اريد أن اتجاوز حد الاحترام الواجب لجلالتكم ولكن الواجب يقضى على بأن اجتنب تنفيذ اوامر جلالتكم المناقضه لمصلحة البلاد طبقا لما تقضى به الشريعة الغراء . فان مسئوليتى عظيمة باهظة كما تعلمون . ولقد تعهدت أمام ضميرى بأن اعيد السعادة الى الوطن فلا يمكنى ان أنكث هذا العهد . ولو خدعت وطنى لقام يصب على اللعنات . ولكننى لن اخدعه فلتتنازل جلالتكم الى الوثوق بحسن ارادتى وسلامة قصدى ولكنى اكرر هنا أيضا أنى أخشى صوت

ضميرى ولعنات وطنى . ولذلك كله أتجاسر على كتابة هذا الكلام، فان العثمانيين يجب أن يكونوا قادرين على تحسين دولتهم وان يحكموا أنفسهم بأنفسهم »

« هل تعلم جلالتكم قوانين البلدان الدستورية ؟ وهل يلزمنى أن أوضحها لها ؟ ان واجبنا نحن الوزراء عظيم جدا وسنؤديه كعثمانيين صادقين وانما نحن نرجو من جلالتكم أن تنعموا على بثقتكم لاننى لم افعل ما يوجب عدم رضاكم . وانما أود ان تعرف البلاد مسؤليتى بالنظر اليها فقد مضت تسعة ايام وجلالتكم ترفض اجابة امطالبى مع أنها لا تخرج عما تخوله القوانين العادلة وحاجتى اليها كحاجة الحداد الى مطرقته . وانه لا يخاق بجلالتكم أن تغرقوا البلاد بيدكم، فى حين أننا نبذل الجهد لانقاذها من الهوة التى سقطت فيها .

« يا مولاى اذا كانت حرية ضميرى ستدفعكم الى عزلى عن منصب الوزارة فأنا أتوسل الى جلالتكم أن تسندوا هذا المنصب الى رجل باسل يعرف كيف يوفق بين رغائبكم وسعادة الوطن

وكان جواب عبد الحميد على هذا الخطاب العظيم أن عزل صاحبه من الوزارة فى ٢ فبراير سنة ١٨٧٧ وجرده من نياشينه ونفاه على ظهر باخرة الى (برنديزى) ثم سمح له بعد حين بالرجوع الى تركيا ولكنه بعد رجوعه كان يعامل معاملة قاسية لا معنى للانسانية فيها ولا للمروءة ولا للشهامة . ولم يكن عبد الحميد يهدأ له بال ومدحت خالق الدستور موجود باستامبول يتمتع بمحبة الشعب والتفافه حوله. ولذلك دبر له مكيدة دنيئة . . ولتفصيل موضوع هذه المكيدة يجب أن نرجع قليلا للوراء . عندما عزل السلطان عبد العزيز وجد فى خامس يوم لعزله ميتا على كرسى فى احدى غرف قصره واختلفت الاشاعات بشأن موته فقيل أنه قتل نفسه غما على عزله من السلطنة والخلافة وقيل أن الذين خلعوه وعلى رأسهم مدحت باشا هم الذين قتلوه خشية أن يرجع الى المطالبة بعرشه وكان أهم مروجى الاشاعة الاخيرة أعداء مدحت وقد أجرى تحقيق واستدعى أطباء عديدون لفحص الجثة واشتركت كل المفوضيات والسفارات فى إرسال طبيب. فقر قرار أكثر من عشرين طبيبا على أنه مات منتحرا وقد وافقت على ذلك السلطانة « فريدة » — على أن عبد الحميد ورجاله عندما أرادوا الكيد لمدحت تذكروا هذه الحادثة فأشاعوا إن مدحت وخير الله افندى وشيخ الاسلام ومحمود دامات ومعهم رجلان هم

الذين قتلوا السلطان عبدالعزيز وسرعان ما قبض عليهم ووضعوا فى السجن تمهيدا لمحاكمتهم وعقدت المحكمة يوم ٣٠ يونية سنة ١٨٨١ وحكمت على الجميع بالاعدام بناء على شهادات مزيفة من شهود زور هذا بالرغم من اقتناع الرأى العام فى تركيا وفى الممالك الاجنبية ببراءة مدحت وإخوانه حتى ان هذه المسألة أثيرت فى البرلمان الانجليزى وحدثت عنها ضجة هائلة فيه كان من نتيجتها أن استبدلت عقوبة الاعدام بالنفي الى بلاد العرب وارسل مدحت وخير الله افندى إلى الطايف وتخلص عبد الحميد من شبح المصلحين وزعماء حركة الحرية والدستور . ولكن عبد الحميد الذى عاش عمره غارقا فى بحر من دماء الابرياء لم يقنعه النفى فأرسل الى والى الحجاز عثمان باشا ليقضى على الزعيمين المنفيين فأرسل عثمان باشا بعض القتلة اليهما فى دارهما فحاولوا أولا خنق خير الله فلم يستطيعوا التغلب عليه فانتزعوا خصيتيه على طريقة ترتجف منها المفاصل وتقشعر من هول وحشيتها الابدان أما مدحت باشا وقد كان قد جاوز الستين من عمره فلما شعر بهذه الحركه كتب وصيته التى ارسلت الى زوجاته والتى جاء فيها :

يا حليلاتى المحترمات

لقد اودعتكن مع اولادى القدرة الصمدانية فهى تكفى لحمايتكم ووصيانتكم . . .

ان هذه الاحوال من المقدرات الالهية فلا تأسفوا جميعا ولا تتكدروا من جرائها وربما يكون استشهادى هذا كفارة عما ارتكبناه من الذنوب ان شاء الله تعالى وانتم سلموا أمركم الى الله لان لكم نصيبا من المكافأة المعنوية ولهذا فمأمولى أن لاتتفوهو بكلمة سوء واكتفوا بأن تحولوا ظلامتكم الى العدالة الربانية لان المحكمة العليا — والله أعلم وانتم لا تعلمون — ستظهر برئاسة الحضرة الالهية كل شىء وتحله حلا منطبقا على الحق والعدالة . . .

الى أن قال فى ختامه (واياكم أن تضعوا على قبرى حجرا مذهبا بل اصقلوا رخامة عادية وضعوها على قبرى واكتبوا عليها هذا قبر مدحت شهيد غيرته الفطرية)

وبعد أن طوى الوصية انقض عليه زنجى فخنقه ثم قطعت رأسه وارسلت فى صندوق الى السلطان وانتهى أمر ذلك الزعيم الحر الذى صرخ فى تركيا أول صرخة بطلب الدستور والحرية واستشهد فى سبيلهما وفنى ولم يفن صدى صرخته الابدية

وكانت وفاته فى سنة ١٨٨٢

عبد الحميد وحكمه المطلق :

انفرد عبد الحميد بالسلطة بعد ذلك فحكم تركيا أسوأ حكم وأنزل بأهلها ألوان العذاب والتنكيل بما لم يرو مثله التاريخ وتعطلت الحريات واضطرب بالناس الامن وانتقلت عدوى الاستبداد من السلطان الى وزرائه ثم الى حكامه حتى وصلت الى أحقر رجل من عمال الحكومة حتى لقد كان الناس يخشون الهمس ويحاسبون أنفسهم على حركات محياهم وخلجات أعصاب وجوههم ولم يكن ذلك ليمنع عنهم العذاب والتنكيل فقد اتخذ عبد الحميد جيشا عرمرما من الجواسيس لا يحصرهم عد وكانوا قد فهموا جميعا نفسية سلطانهم فكانوا يملاون تقاريرهم اليومية بفنون من القصص الخيالية يتهمون الابرياء ويختلقون على الناس الجرائم والسلطان يثق كل الثقه بتلك التقارير المزيفة وحوله جماعة من أمثال المشعوذ ابى الهدى) وسواه يؤثرون على افكاره ويوهمونه بان كل الرعيه خائنة ناكرة للجميل مما بث فى السلطان روح الخوف والحذر فكان لا يروح ولا يجيء الا وهو يلبس سترة من الزرد تحت ثيابه ولا يخرج الا فى عربة مصفحة بالفولاذ وحوله جند بالمئات وتفاقم خطر الجواسيس حتى أصبحت لهم دولة فى قلب الدولة وكانوا كلهم انذالا خرجوا من صلب أسفل

الطبقات فعاثوا فى البلاد فسادا وقضوا على حياة كثيرين من الابرياء وكان قصر يلدز قد جمع أسوأ ما عرف عن سجن الباستيل فكان يحوى محكمة التفتيش وسجونا وغرفا للتعذيب ولقد كان يقبض على الشخص ويؤخذ الى قصر يلدز فلا يعلم أهله اين راح ولا يعلم هو ماذا يكون مصيره فيعذب وينكل به ثم يقضى أياما يلاقى فيها أشنع صنوف ايذاء جسمه ايذاءا وحشيا وقد يلقى به اخر الامر فى البوسفور لتطعمه الحيتان

حكى أن باخرة انجليزية اسمها دار لنجتون غرقت بكل ما تحمل فى بحر مرمره فخطر للشركة التى تملكها أن تجرب تخليص بعض الاشياء الثمينة التى كانت فى تلك الباخرة فأنزلوا اليها غطاسا ماهرا بقى زمنا تحت الماء يدرس موقعها وحالة سقوطها وكيف يمكنه الدخول اليها ثم قرع الجرس الكهربائى سائلا القبطان أن ينتشله فأخرجوه واذا به قد خرج اليهم على آخر رمق من الحياة اصفر الوجه متقطع الانفاس لا يعى ولا يجيب وبعد أن عالجوه عاد الى رشده واصبح قادرا على الكلام فسألوه عما أصابه فقال :

« نزلت الى قرب الباخرة وما كدت أصل اليها حتى رأيت نفسى فى قبر لا فى بحر وقد رأيت أشخاصا كثيرين منهم من هو بثياب

الضباط ومنهم باثواب ملكية ومنهم عراة وكلهم مثقلو الأرجل بالحديد فكنت أينما تحركت أجد عددا من هذه الاشباح أمامى وورائى وظننت نفسى فى عالم الاخرة وانى قدمت أو أصابنى مس فتولانى الذعر »

وهؤلاء ضحايا عبد الحميد ! ضحايا جنون الاستبداد ! على أن الامر لم يقتصر على التنكيل بأفراد الشعب أو بالقائمين بحركة الاصلاح والمطالبة بالدستور والحرية ولكنه تعداهم الى كبار رجال الدولة واعضاء البيت المالك والسلطان المخلوع مراد وقدكان ينالهم من التنكيل ما ينال أفراد الشعب . ولقد روى عن السلطان مراد أنه كان يردد فى كثير من الاحيان قوله « أى ظلم أفظع من هذا . إن قتل امرىء فى حالة غضب جريمة قد تغتفر ولكن تعذيب عشرات من الناس عشرات السنين لهو أفظع ظلم فى العالم. إن نيرون حينما كان يعذب النصارى فى زمنه كان يلقيهم للحيوانات المفترسة فينتهى عذابهم فى دقائق معدودة أما الحالة التى نحن فيها فلا تنتهى فلقد فاق أخى نيرون واخوانه »

وإن من تحصيل الحاصل أن نشرح كل ألوان التعذيب وانواع الايذاء التى كانت تنزل بالشعب التركى فقد فاقت الوصف وتعدت

حدود الحصر وترامت أبعد من أفق الخيال والتصور فلقد كان ينهال التعذيب على الشعب عيانا وظهورا وينهال عليه في الخفاء والسر وكما يكون بالقتل والاعدام والحبس والنفي يكون بطرق الغدر والخيانة من تسميم واغتيال

لقد محت أفعال عبد الحميد ذكرى أهوال الحوادث الفرنسية قبيل الثورة الكبرى وتضاءلت وحشية الامم المتبربرة القديمة أمام وحشيته وهو يعيش في عصر النور والحرية .

كان هم عبد الحميد منصرفا الى حياة الجاسوسية والى اشباع نهمته الدموية فكان طبيعيا أن ينصرف عن تدبير شئون الملك كما يجب على الحاكم المتيقظ فكان من نتيجة ذلك أن دب الفساد في الحكومة وفي الشعب وانتشرت الرشوة وكثرت المظالم وانتهبت الحقوق واضطرب الامن في داخلية البلاد وانتشر روح التعصب الذميم بين الطوائف الدينية المختلفة فقامت عصابات ووقعت معارك هائلة وجرى الدم انهارا ونزلت في الولايات التركية نكبات ومذابح فظيعة حتى أخذ عدد وفير من الشعب يهاجر من البلاد العثمانية وقد بلغ عدد المهاجرين ستمائة ألف من المسلمين وثمانمائة الف من المسيحيين وقد اغرت هذه الحال الدول الاجنبية بعبد الحميد مما كان

كن نتيجته أن سلخ من جسم الامبراطورية التركية كثير من الامارات والولايات أمثال بلغاريا والبوسنه وتساليا والروميل الشرقية وقضى على استقلال (كريد) وكادت تسلخ « مقدونيا » واحتل الانجليز مصر والسودان واستاجروا قبرص وقامت لمنازعات فى داخلية الولايات وبين الدولة والدول الاخرى روسيا غيرها وتأخرت البلاد نفسها تأخرا كبيرا وكادت مظالم الموظفين الخائنين تقضى على الزراعة والتجارة والصناعة وقيدت حرية الفكر وحطمت الاقلام وحجر على المطبوعات وقيل إن عبد الحميد أمر بمحو كلمات الحرية والعداله والدستور والمساواة من القواميس وحلت بالبلاد الفاقة والفقر وأصبح حال تركيا شر حال . . كل هذا يحدث وعبد الحميد لا يزال فى عطش الى الدم وظمأ للطغيان والاستبداد ولكن لكل ليلة فجر ولكل داء شفاء ... ولو بالموت ؟ . . ولم يكن طبيعيا فى حياة الأمم ان تموت أمة ويعيش فرد ويغلب شعب ليستريح مستبد ولكنما المحن فى حياة الامم هى الحافز لها على النهوض وكلما اشتدت عليها وطأة النكبات حال ذلك اشتدادا فى النفوس قوة فى العزائم

الثورة تتهيأ :

استطاع عبد الحميد بحكمه وحياته أن يحطم سعادة نفسه ويحطم سعادة شعبه كما استطاع أيضاً أن يخلق في الشعب روح الاستياء والتبرم فالاستنكار فالشعور بوجوب تغيير الحال وعدم الخضوع لهذه الذلة وذلك الطغيان وكان كل فرد من الشعب يحس هذا الاحساس ويتهيأ لمقاومة الظلم والاستبداد ولكن الشعب كان في احتياج إلى زعامة تقوده خاصة وقد كان في حالة سيئة من الجهل والفقر. وقد وجدت هذه الزعامة في جمعية الاتحاد والترقي وهي التي قامت بتهيئة الثورة وخلع عبد الحميد واعلان الدستور وتخليد أعظم صفحة في التاريخ التركي

جمعية الاتحاد والترقي :

كان أول تكوينها في «مقدونيا» حينئذ اجتمع بعض الزعماء المفكرين الذين تحز في نفوسهم ما يأتيه السلطان من المظالم وما ينزله بالشعب المسكين من البغي كما تكونت أيضاً جمعيات من المنفيين من رجال الفكر وأنصار الحرية في باريس وسويسرا . وفي سنة ١٩٠٦

م — ٢١ — ٢٢

انضمت الجماعات التى تكونت فى كل بلد من بلاد مقدونيا الى بعضها وكونت جمعية واحدة مركزها « سالونيك » وتكون مثلها برياسة « احمد رضا » فى باريس فى اكتوبر سنة ١٩٠٧ وعقدت الجمعيات العزم على العمل فى سبيل انشاء حكومة دستورية . ولقد كان أعضاء هاتين الجمعيتين فى أول الامر من المسلمين ولكن كثيرين من المسيحيين واليهود المنفيين انضموا الى الجمعيتين وتكونت جمعية أخرى فى (جنيف) وتكونت أخيراً جمعية واحدة تضم كل أعضاء هذه الجمعيات باسم جمعية الاتحاد والترقى وكان يطلق قبل ذلك على المجاهدين فى سبيل الحرية والدستور اسم « جمعية تركيا الفتاة » أخذت الجمعية تنشر الدعاية لمبادئها حتى اعتنق الشعب التركى كله مذهبها وكان من ضمن العاملين مع الجمعية البرنس محمود وولداه الذين هربوا من عبد الحميد فى اكتوبر سنة ١٨٩٩ ولم تكن يد عبد الحميد لتبلغ بالبطش أعضاء الجمعية فى خارج تركيا أما فى الداخل فكان كل من يشتبه فيه يقبض عليه ويلاقى عذابا اليما وكان أهم زعماء جمعية الاتحاد والترقى « نيازى وانور » وكلاهما كان ضابطا من أشجع الضباط بالجيش التركى فلما رأى نيازى حالة الحكومة والشعب امتلأت نفسه نزوعا إلى تحرير الشعب واصلاح الحكومة ولما كان قائدا لاحدى الفيالق وشى به الجواسيس فطرد

لأنه من أنصار الاصلاح وفر الى باريس ثم رجع الى « سالونيك» مخاطرا وانضم الى جمعيتها وكان دؤوبا على نشر فكرة الثورة بصور سرية بين الجند والضباط وكان يلبس أحيانا كشيخ ويدعى أنه معلم أو حاج أو تاجر أو درويش يتسول ويبث الفكرة بين الشعب والجند فى الجيش والجوامع .

وقد صاحبت هذه الحركة حركة نشر واسعة النطاق كان أكثره فى الخفاء وكان أهم الكتب التى نشرت مؤلفات احمد رضا بك وقد طبعت فى مصر وتسربت الى داخلية البلاد منها (استنصاف) و (السيدات) و (الجيش) و (الضباط) و (والتبعة) ومؤلفات ناجى افندى مثل (حى على الفلاح). وقد كان لهذه الكتب تأثير عظيم فى بث روح الوطنية وحب الحرية والدستور فى الشعب

وكان من أهم ما قوى حركة الجمعية انضمام الجند والضباط اليها وأول عمل ثوري جدى حدث عندما قررت الجمعية فى سالونيك اعدام ناظم بك قائد مركز سلانيك لخياناته وترصده لاعضاء الجمعية واختير لتنفيذ الحكم شاب ضابط قام بالمأمورية خير قيام مما بعث الحمية والحماس فى اخوانه الضباط وأصبحوا يتسابقون فى سبيل القيام بمثل هذه المأموريات الوطنية . وقد قوى هذا العمل عضد الجمعية

خاصة عندما حاولت الحكومة الوصول الى الضابط الذى قتل ناظم بك فلم تستطع مما جعل عبد الحميد يرتمد غيظا وكمدا . ويضاعف مجهوداته الجاسوسية

وتجمعت للجمعية جيوش تحت رآسة ضباط مهرة يلتهبون حماسا وللحرية جعلوا شعارهم على حد قول نيازى :

« ان خير موتة يموتها الوطنى هى التى تكون فى سبيل الحق »

وأخذوا يجاهرون الامة والحكومة وعلى رأسها السلطان بحركتهم وبمطالبهم ثم تقدموا الى الدول الاوربية بنشرة طويلة بينوا فيها حالة الجمعية وخطتها ومقاصدها كما تحدثوا فيها عن مسألة مقدونيا واستمساكهم بها وكانت الدول الاوربية مهتمة بها عندئذ وأبانوا حسن نيتهم ومحوا اشاعة التعصب الدينى وتأكيد التضامن بين المسلمين والمسيحيين واعلنوا فيها عزمهم على العمل على ايجاد حكومة دستورية

بعد إعلان هذه النشرة أصبح الموقف خطيرا واضحى يوم الفصل قريبا . وعقد نيازى جمعية (رسنة) وكان جلهم من الضباط

واتفقوا على اعلان الثورة وهيئوا أمرهم على ذلك واذاعوا على مركز الجمعية العام هذا الخبر — وفى كتاب خواطر نيازى من صفحات هذه الثورة عجائب لصور البطولة الحقة حيث يقول انه بعد أن اتفق مع زملائه الضباط على ان لا وظيفة لهم الا . «الموت فى سبيل حرية الوطن» وأعد عدته لليوم المشهود رجع الى منزله فوجد شريكة حياته مضطربة فما أن تحادثا قليلا حتى قالت له « حقا ليس لك وظيفة الا الموت . . فى سبيل حرية الوطن »

واعقب ذلك أن ارسل زوجته الى عديله بعد تسعة أشهر من زفافه ولم يسعد بحبها بعد وكتب الى عديله يقول فى خطاب (.. آثرت الممات على حياة الذل وانى لذاهب الآن لأموت مع مائتى فدائى من أبناء الوطن .. وبعد فاما للموت واما سلامة الوطن)

وفى اليوم الموعود هاجم نيازى واخوانه الفدائيين الثكنة وحطموا الصناديق واستلبوا ما فيها من سلاح وذخيرة ونقود وفى هذا يقول نيازى « لقد كانت تلك المعاول — التى حطمت الصناديق — تكسر القيود التى كبلت فيها سواعد الامة لا صناديق الاسلحة وكان صرير ذلك اليراع الذى كتبت به صك سجل فيه عدد

ما أخذ من نقود ووضع فى الصندوق — يعكس صدى دوى المدافع المؤذنة باعلان الحرية فى افق مستقبل الوطن ، وتسلحت فرقة نيازى بما حملت من سلاح وعددها ١٦٠ وطنيا وتقدمت الى مقابلة الفرق الاخرى التى حذت حذوها فى الشدنات الاخرى فلما تقابلوا خطبهم نيازى خطبة حماسيه . وكتب على أثر ذلك خطابا الى باشكاتب المابين ابان فيه غرضهم ومطالبهم من الحرية واعادة الدستور ثم زحفوا على القرى التى تناصرهم . ولما دخلوا قرية كبروا وهللوا فردد أهلها تكبيرهم وتهليلهم .

قويت الجمعية وصارت من القوة بحيث كونت حرسا أهليا فى كل مدينة وقرية واستولت بواسطة انضمام الموظفين اليها سرا على اسرار الحكومة الاداريه والسكك الحديدية والتلغرافات والبريد . ونيازى بجماعته يسير فى السهل والوعر يحتمل معهم كل عذاب ونصب والفكرة الروحيه تحددهم للجهاد متذوقين كل عذاب فيه عذابا سائغا

وقد انكمش جلاد والحكومة من موظفيها الانذال وانبعثت العزة الوطنية والحمية الوطنيه فى نفوس الشعب

ولكن عبد الحميد كان ما زال غارقا فى حياة الجاسوسية يحاول القضاء

على الحركة وقد عمى عن الحقيقة التى تقول إن الشعوب متى استفاقت فلن تعاودها سنة النوم ثانية .

الثورة

انعقدت جمعية الاتحاد والترقى واتفقت على اعلان الدستور واعلان الثوره على حكومه عبد الحميد واتفقت أيضا على تحديد يوم أول سبتمبر سنة ١٩٠٨ للقيام بالحركة — وهو يوم عيد جلوس عبد الحميد .

حدث فى هذا الوقت أن تسلح الالبانيون وعقدوا العزم على مهاجمة قنصلية النمسا وذلك لكراهية الالبانيين للنمساويين الذين كانوا يقومون فى ألبانيا بفتح محلات الدعارة والخمر والرقص والغناء .

خشيت الجمعية تأثير هذه المهاجمة على الحركة من حيث تأخيرها أو القضاء عليها فعجلت برجاء الالبانيين بالامتناع عن هذا العمل واجاب هؤلاء رجاء الجمعية ومن ثم انضمت قواتهم المسلحة الى قوات الجمعيــة . عندئذ لم تجد الجمعية معنىً للتأخير فارسلت طلبا رسميا الى (يلدز) تطلب فيه ارجاع الدستور . وعندئذ

علم عبد الحميد بما قررته الجمعية فأرسل جيشا كبيرا الى مناستر لمهاجمة نيازى وانور بقيادة الشمسى باشا فلما تلاقى الجيشان أبى جند الحكومة أن يحاربوا اخوانهم جنود الامة فألقوا السلاح وقتل الشمسى باشا. وعلى هذه الصورة تم الامر فى كل نواحى مقدونيا حتى انضم كل الجيش الذى سير لمحاربة الثائرين الى صفوف هؤلاء الثائرين .

طلب عبد الحميد بعد هذه النكبة التى نزلت بجبروته من فريد باشا الصدر الاعظم أن يتولى وزارة الحربية ليعاقب العصاة فأبى فريد ذلك وهنا استولى عبد الحميد على الامر بنفسه وأرسل اربعين جاسوسا ليأتوه باسماء الخائنين فى الجيش ولكن هؤلاء الاربعين اختفوا بحيث لم يعرف عنهم أثر ولم يسمع خبر . فأرسل السلطان تلغرافا الى فرقة أزمير بالسفر حالا لمعاقبة سلانيك فجاءه الرد أن الجيش لن يحمل السلاح حتى يعلن الدستور !

أسقط فى يد السلطان وأخذ يجهز جيشا كبيرا ولكن جاءته انباء من عثمان باشا الذى أرسل ليتولى قيادة الفيلق الثالث أن الثائرين أسروه وقال فى تلغرافه أن الفيلق المذكور ينوى الزحف على الاستانه اذا لم يعطى الشعب ما يطلبه من الدستور وفى الوقت نفسه وردت أخبار من موناستر أن الدستور قد أعلن فيها وجاءت اخبار اخرى من جهات اخرى انه اذا لم يعلن الدستور فان حادثا جللا سيقع للسلطان نفسه . ونالت هذه الانباء من السلطان كل منال واستدعى فورا جميع الوزراء واستشار أولا سماحة شيخ الاسلام .

وقال له إن الجيش قد تمرد واصبح فى منزلة العصاة وطلب من سماحته اصدار فتوى تجيز لجلالته ارسال الجيش لمعاقبة الثائرين بالنار لانهم تمردوا على سلطانهم : فاجاب سماحته أنه لا بد من أخذ رأى فتوى امينى وهو الموظف الذى يكتب صورة للفتوى عادة بصورة سؤال يذيله سماحه شيخ الأسلام بكتابة كلمة واحدة عليه وهى أولور « أى يجوز » أو « أولماز » أى « لا يجوز » فاستدعى السلطان الفتوى أمينى وهو شيخ فى الثمانين من عمره وطرح عليه السؤال فأجاب أن لا بد له من التأمل فى المسألة ومراجعتها والحال احضروا جميع السجلات والأوراق والكتب وبعد أن درسها الفتوى أمينى وراجعها بتدقيق عظيم.

قال للسلطان انه لا يعتبر عمل الجنود ثورة على سلطانهم لان الامة تطالب فقط بحقوقها ولذلك لا يمكن اصدار فتوى. وهكذا يكون شيوخ الاسلام!

فاستدعى السلطان الشيخ أبو الهدى وسأله رأيه فاجاب أنه الامة تطلب الصريح بمقتضى القرآن أى أن يكون الامر شورى بينهم وإن القرآن والشرائع المقدسة تعتبر السلطان خليفة طالما هو يرعى الشرع الشريف فمتى خالفه سقطت خلافته وكانت

هذه الفتوى بناء على ارهاب زعماء الاصلاح من الوزراء .

وكان مجلس الوزراء مجتمعا فى غرفة مجاوره فأرسل اليهم جلالته وسألهم رأيهم فابدى سعيد رأيه ثم تحول الى كامل باشا وسأله رأيه . اما كامل باشا فاجابه بكلمة واحدة وهى (الدستور) فتحول سعيد باشا الى الاخرين وقال (ما رأيكم أيها السادة ؟) فلم يلفظ واحد منهم بكلمة واحدة فلما رأى سعيد باشا سكوتهم قال (السكوت رضى) ثم تناول ورقة وكتب عليها المضبطة وذيلها بتوقيعه ثم دفعها الى شيخ الاسلام فوقع عليها وتلاه جميع الحاضرين ثم عرضوا على زكى باشا ان يرفع المضبطة الى السلطان فأبى قائلا انه جندى لا شأن له فى الامر فما لبث سعيد باشا أن أخذها بنفسه الى السلطان .

اعلان الدستور

وكانت الانباء عندئذ وصلت بأن فرق الثائرين فى سالونيك بدأت تتحرك . عندئذ لم يجد السلطان محيصا عن الخضوع أمام قوة الشعب واذلال النفس المستبدة المتجبرة لعظمة الحق فاعلن ارجاع الدستور فى مساء ٢٤ يوليه واذاع هذا الاعلان فى مقدونيا وفى البلاد الاخرى وكان لهذا الاعلان رنة وضجة

بأقام البلاد واقعدها واجتمع فى كل مكان وفى كل بلد وناد وكل حقل وسهل المسلمون والمسيحيون يرقصون ويهتفون للحرية والمساواة والاخاء والعداله ويحتفلون بهذا العيد احتفال الأمة التى يشملها الظفر بدستورها وتنتشى من الانتصار بحريتها .وفى العاصمه اجتمع الموظفون والضباط والطلبة والشعب ونظموا المواكب تتقدمها اعلام عليها هتاف للحرية والمساواة والاخاء والعــــدالة والناس فى فرح ونشوة يتعانقون ويرقصون ويهتفون لزعماء الحرية والدستور وينادون بسقوط عهد الاستبــــداد والجواسيس حتى اصبحت استامبول شعلة بعد خمود وجذوه بعد انطفاء بل أصبح أهلوها فى شبه غيبوبة لا يعرفون ماذا يعملون وكان معنى الدستور اطلاق الحرية للصحف تكتب ما تشاء ومن اظرف ما حدث أن محررى الصحف وعمالها كان اول مافعلوه ان هاجموا بعد اعلان الحريه المراقبين الذين كان معينا واحد منهم فى كل جريدة فألقوا بهم فى الشوارع وتجمعت الجموع حول قصر يلدز ولا هتاف لهم الا بسقوط الجواسيس وتدفقت الجموع على الكنائس والجوامع يخطبون ويتعانقون فوق المذابح والمنابر .

وناهيك من وصف أمة ذاقت اعواما واجيالا ظلم الاستبداد

وعذاب الطغيان ثم تذوقت فجأة حلاوة الحرية ونعيم الدستور. فمن يبلغ بها الفرح مرتبة الجنون فلا تثريب عليها ولا لوم!

بعد اعلان الدستور

بعد اعلان الدستور بدأت الصحف تكتب بحرية وبدأت جمعية الاتحاد والترقى تعمل علانية وبنشاط والتزم عبد الحميد السكون مما أثار ريبة الشعب وظنوا أنه يدبر مكيدة فى الخفاء للجمعية. وبعد انقضاء بضعة أشهر على قيام الثورة بدأ بعض الرجعيين من أنصار عبد الحميد ومن الموظفين المطرودين يدسون ويتآمرون ومن هؤلاء تكونت جمعية سرية سميت «الجمعية المحمدية» كان غرضها مقاومة جمعية الاتحاد والترقى

ودارت الانتخابات لمجلس النواب فاظهر الشعب التركى قوة مدهشة وروحا عظيمة وكانت نتيجة الانتخاب أعظم ثمرة لأعظم فوز دستورى فقد كان كل النواب من أعضاء أو أنصار جمعية الاتحاد

والترقى واجتمع المجلس فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٨ . وقد احتفل الشعب باجتماع البرلمان احتفالا فخما واستقبل اعضاءه بالتهليل والتصفيق فى الطرق والميادين وذهب السلطان بنفسه مع ابنائه الخمسة الى الاجتماع ولم يلاق احتفاء يذكر ولم يكن لحضوره تأثير محسوس واقسم امام شيخ الاسلام بعد الافتتاح يمين الطاعة والامانة للدستور ثم بعد ذلك أخذ المجلس يقوم بأعماله العادية . وثارت فى اوائل اجتماعاته مناقشات حول تصرفات عبد الحميد المالية فحمل بعض النواب — مثل رضا توفيق — على السلطان حملات شعواء

وأخذ عبد الحميد يتودد الى النواب بالولائم وباظهار عواطف دستورية عميقة ولكن الشعب كان يشك فى مسلكه وما كان أحد ليثق فى أقوال وأفعال عبد الحميد وهو الظامىء طول حياته الى الطغيان والدم غير ان سوء الحال ظل مستمرا فى الحكومة ولم يحدث أى اصلاح لحال الجيش مما أدى الى أبداء شعور بالامتعاض ثم ابدأت الجمعية المحمدية تعمل على اثارة الشعور ضد جمعية الاتحاد والترقى كما بدأ عبد الحميد دسائسه ضد الجمعية أيضا ولما رأى حملة

الصحافة شديدة بدأ يفكر فى اصلاح قانون المطبوعات وأخذ السلطان أيضا يوقع فى الخفاء باعضاء البرلمان بحيث بدأت تفكر الجمعية فى وضع حد لهذا كله بعد أن ظهر لها أن الامر كاد يخرج من يدها وخاصة عندما بدأ خصومها يدبرون المظاهرات ضدها وضد الدستور ويهتفون بسقوط الدستور وبحياة الشريعة الاسلامية لكى يثيروا العواطف الدينية فى قلوب الشعب كما عملوا على اثارة الفتنة بين المسلمين والمسيحيين واليهود وقد ظهر أن عبد الحميد فى سبيل هذه الثورة ضد الجمعية قد سخت يده بالذهب والفضة ولما قبض على بعض المهيجين وجدت معهم كميات وافرة من المال ثم حدث أن سقطت الوزاره وتشكلت فى ١٤ ابريل وزارة أخرى ليس فيها واحد من اعضاء الجمعية وذاعت انباء هذه الثورة فى الولايات التركية

جيش الحرية

ووصلت الى مقدونيا هذه الانباء وكان الجيش فيها تحت قيادة «شوكت باشا» وكان قائدا شجاعا محترما من الجميع فسارع الى الجمعية وسألها الاوامر لكى ينفذ قائلا (انه اقسم ان يدافع عن الجمعية وأنه سيحترم قسمه) ثم أخذ يكون جيشا عظيما من المسلمين والمسيحيين والالبانيين

وبدأ الزحف على « استامبول » فى يوم الجمعه ١٦ ابريل وثارت العاصفة فجأة وانتظر شعب استامبول وقد دبت فيه حياة الثورة من جديد وتخاذل عبدالحميد وانكمش فى قصره يرتعد خوفا على نفسه بعد ان حل مجلس النواب ولكن البرلمان كان يجتمع رغم هذا الحل فى (سان استيفنو) وفى يوم ٢٢ ابريل ظهرت طلائع جيش الحرية بقيادة شوكت باشا فى ضواحى العاصمه وقد قوبل هـذا الجيش العظيم مقاومات ضئيله لاتذكر فى بعض الأماكن ولكن قائده بمهارة حربية فائقه طوق العاصمة ثم تمكن فى صباح يوم وصوله من الاستيلاء على المعسكرات القائمة بقرب (يلدز) قصر السلطان ولم يأت المساء حتى هدأ كل شىء وأسقط فى يد عبد الحميد لان الهجوم كان أسرع من ان يترك له مجالا للاحتياط أو التدبير وعظم فى جمعية الاتحاد والترقى عدد الذين يقترحون عزل عبد الحميد كما اقترح بعضهم قتله وحاول عبد الحميد بعد أن خارت عزيمته وشعر بانفلات الزمام من يده أن يفر الى بعض القبائل الالبانيه ولكن شوكت باشا قبض على رسله وكانت حقائب رئيسهم « يوسف باشا » مفعمة بالمال ففشل تدبير عبد الحميد لآخر مرة

نهاية عبد الحميد

وحاصر شوكت باشا قصر يلدز واستولى الذعر على من فيه ولأول مرة فى التاريخ اطفئت انواره وبات ليله فى ظلام وهكذا يكون مصير الظالمين . . ! ! وقبض فى العاصمة على كل أنصار عبد الحميد وجواسيسه وسرعان ما أفتى شيخ الاسلام بعدالة ماحدث فتقرر ايفاد من يعلن عبد الحميد بعزله واخاه الاصغر رشاد بتولية العرش وكان الوفد الذى تألف لاعلان عبد الحميد بعزله مكونا من القائد اسعد باشا والمحامى كرسو افندى وآخرين وقد وصلوا قصر يلدز يوم الاربعاء ٢٧ ابريل ودخلوا على السلطان فسألهم السلطان عما يريدون فاعلنوه بعزله بناء على ارادة البرلمان وفتوى شيخ الاسلام فأصفر عبد الحميد وتخاذلت قواه وضعف الجبار العاتى امام قوة الحق وارتعشت اعضاؤه وارتعدت فاصله وقال إنه لم يرتكب جريمة ولكنه القدر وهذا نصيبه وهذه قسمته وسألهم ان يؤكدوا له تأمينه على حياته وكان يتكلم متهدج الصوت بادي التأثر فاجابه الوفد بان ارادة الشعب التركى فى هذا الامر هى العليا لانهم لم يكلفوا بابلاغ شىء بهذا الخصوص فاستولى عليه الذعر وسالهم فى رعدة الطفل المخوف أتقسمون أن لن تمس حياتى فأجابه اسعد باشا

أننا نؤكد لك أن الجمعية لن تقوم باى عمل ظالم . فردعلى ذلك عبد الحميد بسرد بعض مواقفه التى وقفها فى صالح الشعب مؤكدا أنه لايستحق العزل ثم تأوه ورفع يديه الى السماء ودعا الله أن يعاقب من تسبب فى السوء فرد الجميع بقولهم (آمين) ثم انحدرت دموع عبد الحميد وقد فنيت فى ماء دموعه مظالمه وجبروته وعدوانه وبغيه .

وفى نفس اليوم أعلن تولى (رشاد الخامس) سلطنة تركيا وخلافة المسلمين وفى المساء عندما جاءوا لنقله من القصر بكى طويلا واجتمع حوله نساؤه يشاركنه البكاء ومن ثم أخذ الى القطار الذى أقله الى سالونيكا وانتهى بذلك عهد عبد الحميد ويكفى أن يقال أنه انتهى عهد عبد الحميد . . . ! ! !

الدستور الجديد والزعيم كمال باشا

أجل حادث بعد ذلك هو اندحار تركيا فى الحرب العظمى وتعرضها للفناء بعد أن اقتطعت منها الولايات واحتل الحلفاء الاستانة لولا قيض الله لها الزعيم العظيم مصطفى كمال باشا ورفاقه الامجاد فكونوا جيشا فى آسيا الصغرى وحاربوا اليونان وانتصروا عليها ودخلوا العاصمة ظافرين وكونوا حكومة دستورية عظيمة الشأن بل أنشأوا تركيا أخرى غير تركيا القديمة تقف فى الصفوف الاولى بين أرقى الدول المتمدينة .

مراجع الفصل الفائت

خواطر نيازى

الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده تاليف سليمان البستانى

عبد الحميد من ولاية العهد الى المنفى تاليف جلال نورى بك

تاريخ الدولة العثمانيه للمغفور له محمد بك فريد .

The Turkish Empire LOrd Evrssley

La jeune - Turque et la Revolution

A Sarron

Life of Abdul Hamid · Sir'Edwin Pears

بعض الجرائد العربية وأهمها جريدة الاخبار

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣	٥	وخليقة	وخلقية
٦	١٥	المدنة	للدينة
١٤	٦	واحساسه	واحساسهم
١٤	٧	وبآلامه	وآلامه
٢٠	٧	برلمانا	برلمان
٢٦	٦	مدا	كهذا
٣٠	١٤	قولا	قول
٣٠	١٤	حكما	حكم
٣٠	١٨	كرا ا	كراما
٣٧	١٨	واصبت	واصبحت
٥١	٩	كبير	كبيرة
٥٣	٣	ينزل لم الوحى	لم ينزل الوحى
٦٠	٤	ورا	ورائى
٧٤	١	أية	أى
٨٧	٤	يصدرون	يصدروا
٩١	١	تام	تاما
٩٧	١١	ظحن	يطحن

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩٧	١٦	دون	دوق
١١٠	٢	هـ ئها	هيأها
١١٠	١٧	دناليا	ساتورناليا
١١٢	١٥	لمق	يخلق
١٢٢	٨	متـ ـرين	منتصرين
١٢٢	١٨	المدفيه	المدفعية
١٢٦	١٩	ا ر	فأثار
١٧٨	١٤	فستوى	فسوى
١٨٨	١٥	الآ ون	الآثمون
١٧٩	١١	ـا	بها
١٨٥	١٠	لميصني	لم يصنع
١٩٠	١٨	رفاضت	وفاضت
١٩٤	٢	اقررته	اقرته
١٩٠	١٣	العاملة	العامة
٢٠٣	٨	المرؤ	المرء
٢٠٤	٨٨	يؤوون	يأوون
٢٠٥	٧	البائسون	البائسون

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤٠	٣	الملكة	المملكة
١٥٢	٧	عاق	عام
١٦٠	٤	مستور	مسطور
١٧٨	١٤	فستوى	فسوى
٢٢٤	٦	أجمعين	مجمعون
٢٢٩	٨	جدا	جيدا
٢٣١	٣	وتلك هى يحكم التى	وهى تلك التى يحكم
٢٤٠	١٧	لم يطلق	لم يطلق
٢٥٢	١٤	يكونوان	يكونون
٢٥٦	١٩	واجهه	واجه
٣٠٤	١٤	عرض على المهد	عرض المهد على

للمؤلف

فى ظلال الدموع (مجموعة قصص مصريه) نفذت

مأساة الحلمية (رواية تمثيلية)

القدسية العاشقة (« » معربة عن بيير فرونديه

تحت الطبع

الجزء الثانى من جهاد الامم فى سبيل الدستور

الشهيد المجهول وقصص أخرى (وقعت حوادثها فى ايام الثورة)

عقد ايجار العمل

مركز المرأة فى القانون المصرى والمقارن

المتشرد. (قصة مصريه طويلة)

انتظـــروا الجـــزء الثـــانى

قريبــا

واشتركوا فيه من الان

يحتوى على

دستور مصر وتطوراته التاريخية والجهود الاخيرة

دستور روسيا . بولندا . سوريا . المانيا . ايطاليا . . . الخ

مطبعة جريدة مصر الحرة

شبرا بشارع أسعد بمصر

